# شرح المنظومة الميمية

في

## الوصايا والآداب العلمية

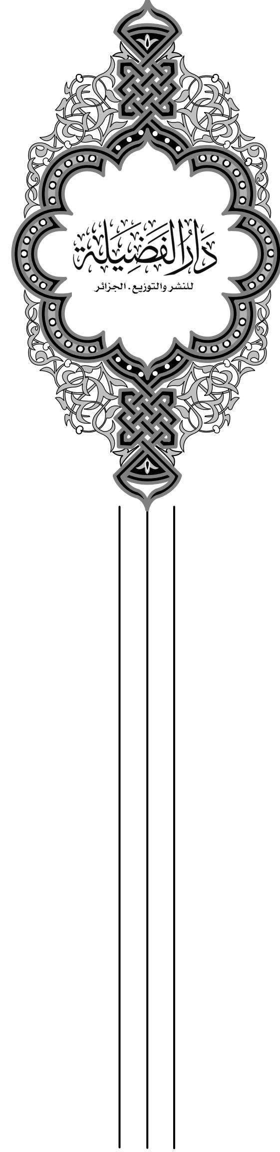
للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي

شرحها

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طبع على نفقة بعض المحسنين
جزاهم الله خيرا وأعظم لهم المثوبة

شرح
المنظومة الميمية






**الطبعة الثانية لدار الفضيلة**

(1432 هـ ـ 2011 م)

**رقم الإيداع:** 1134 ـ 2010

**ردمك:** 1 ـ 19 ـ 866 ـ 9947 ـ 978

**دار الفضيلة للنشر والتوزيع**

العنوان: حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر

هاتف وفاكس: 021519463

التوزيع: 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني: darelfadhila@maktoob.com

موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

# شرح

# المنظومة الميمية

## في

## الوصايا والآداب العلمية

للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي

شرحها

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة

# تَقْـرِيظ

## فضيلة الشَّيخ زيد بن محمَّد بن هادي المدخلي حفظه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن آمن به واتبعه أما بعد :

فعلى الابن الصالح الشيخ / عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر السلام ورحمة الله وبركاته

وأفيدكم بوصول خطابكم الموجّه إليّ ، والذي يحمل في حروفه وجمله التحية الطيّبة ، والدعاء الشرعي المبارك الدال على محبتكم الإيمانية الصادقة ، وخلقكم الكريم ، فأسأل الله أن يبارك لكم في العلم والعمل والأهل والمال والولد في المحيا والممات ، وكان برفق خطابكم هذا شرحكم الوافي الكافي للمنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية ، وقد طلبتم مني الاطلاع على شرحكم للمنظومة المذكورة ، وقد قُرئ عليّ بعضه فأعجبتني ألفاظ الشرح ، ومعانيه ، وأسلوبه ، وإن الكتاب لجدير بالطبع ، والنشر لما فيه من الخير الكثير لكل سامع وقارئ .

وإنني لأوصي طلاب العلم باقتنائه بعد طبعه ، والعناية بحفظ القصيدة أو قل المنظومة حفظاً جيداً مع العناية التامة بقراءة الشرح المشتمل على النصوص العظيمة من الكتاب العزيز والسنة الكريمة ، والآثار المأثورة عن أئمة العلم البارزين ذات الفوائد المأخوذة من نصوص الوحي المبين .

فجزيت خيراً يا بنيَّ على ما بذلت من جهد كبير في نثر النظم بما اتفق معه في الأسلوب والمعاني والأهداف ، وكان الله في عونكم ، وعون كل ناصح لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم .

وتقبلوا تحيات والدكم زيد بن محمد بن هادي المدخلي ، وسلّموا لي على والدكم العزيز الذي بذل لنا الكثير من مؤلفاته التي أسأل الله أن ينفع بها قارئها ، وسامعها ، وأن يثيبه عليها الثواب الجزيل ، إنه حسبنا ونعم الوكيل .

التوقيع

١٤٣١/١/١٩هـ

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# مُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

فهذه منظومةٌ طيِّبةٌ نافعةٌ مباركة للعلَّامة الشَّيخ حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ، ضمَّنها جملةً من الوصايا العظيمة والآداب الكريمة والأخلاق الفاضلة الَّتي ينبغي أن يتحلَّى بها طالبُ العلم.

وقدَّم قبل ذلك بيانًا وافيًا لمكانة العلم الرَّفيعة ومنزلته الشَّريفة، وساق في نظمه البديع جملةً من الأبيات أشار فيها إلى الآيات الكريمات والأحاديث عن رسول الله ﷺ في بيان مكانة العلم وفضله ومنزلته.

وكذلك ضمَّن هذه المنظومة ما ينبغي أن يُعنى به طالبُ العلم من العلوم، وذكر العلومَ والتَّدرج فيها، وطريقةَ التَّلقِّي، إلى غير ذلك ممَّا اشتملت عليه هذه المنظومة، والَّتي سمَّاها رَحِمَهُ اللَّهُ: «**المنظومة الميميَّة في الوصايا والآداب العلميَّة**» قال عنها تلميذه الشَّيخ زيد بن محمَّد بن هادي المدخَلي: «وهي

منظومة عظيمة النَّفع جمَّة الفوائد، تحمل في جملها التَّربية الإسلاميَّة الأصيلة وتحثُّ على بذل الجهد في طلب العلم الشَّرعي الشَّريف وترغِّب فيه، وتدعو إلى الإخلاص فيه وإلى تعليمِه والدَّعوة إليه، وقد دلَّل فيها رَحِمَهُ اللَّهُ على صحَّة ما قال ببراهين قاطعة وأدلَّة صائبة واضحة»[1].

وقد طُبعت أُولى طبعاتها في حياته رَحِمَهُ اللَّهُ عام (١٣٧٣هـ)، وكانت وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ عام (١٣٧٧هـ)، ثمَّ بعد ذلك طُبعت طبعاتٍ عديدة، ولا أعلم لها إلى هذه السَّاعة شرحًا مطبوعًا.

وهي منظومةٌ حافلةٌ بالمعاني العظيمة والآداب الكريمة والأخلاق الفاضلة الَّتي هي جمال المسلم وحِلية طالب العلم.

وحريٌّ بكلِّ طالب علم أن يُعنى بهذه المنظومة؛ إن تيسَّر له أن يحفظها، فهذا خيرٌ عظيمٌ، وإن لم يتيسَّر الحفظُ؛ فليقرأها مرَّات عديدة حتَّى تكون أشبه بالمحفوظ مع العناية بفهم معاني الأبيات ومعرفة دلائلها وشواهدها، ثم تتويج ذلك بالعمل الَّذي هو مقصود العلم، وأرجو اللهَ الكريمَ عزَّ وجلَّ أن يجعل في هذا الشَّرح ما يعين على تحقيق ذلك ـ مع الإقرار بالقصور والتَّقصير ـ وقد كان شرحي هذا في أصله دروسًا أمليتُها في دورة علميَّة أُقيمت في المدينة النبويَّة تمَّ تفريغُها من الأشرطة ثمَّ عملتُ على تنقيحها وتهذيبها بما تيسَّر ولله الحمد أولًا وآخرًا، والمرجو منه سبحانه الرِّضا والقبول، وأن يبارك في هذا

---

(١) «الشَّيخ حافظ الحكمي حياته وجهوده العلميَّة والعمليَّة» للشَّيخ زيد بن محمَّد ابن هادي المدخَلي (ص٤٧).

الجهد وأن يجعله لوجهه خالصًا ولعباده نافعًا إنَّه جوادٌ كريمٌ.

ولا يفوتني هنا أن أشكر والدَنا الكريم صاحب الفضيلة الشَّيخَ الوقور والعالم الجليل زيد بن محمَّد بن هادي المدخَلي المعروف بوفائه وبرِّه بشيخه الشَّيخ حافظ حَكمي رَحِمَهُ اللهُ على تكرُّمه بالاطِّلاع على هذا الشَّرح والتَّقريظ له، فشكر اللهُ مسعاه وأثابه وأحسنَ إليه وبارك في حياته وذرِّيَّته، وأسألُ الله أن يغفر للشَّيخ حافظ وأن يرحَمَه وأن يجزيَه عن طلَّاب العلم خير الجزاء وأن يرفع درجتَه في علِّيِّين، كما أسألُه أن يثيب كلَّ من أعان في ضبط هذه المنظومة وتدقيقها[1]، وتصحيح شرحها وتنقيحه، وأسأله سبحانه أن يمنَّ علينا أجمعين بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح، وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يزيدَنا علمًا، وأن يجعل ما نتعلَّمه حجَّة لنا لا علينا، وأن يبارك في هذه المنظومة وشرحها، إنَّه ـ تبارك وتعالى ـ سميعٌ قريب مجيب.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

**وكتب**

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

**غفر الله له وعفا عنه**

**المدينة النبويَّة ٦/ ١١/ ١٤٣٠هـ**

(١) وقد استفدت كثيراً من ذوي الاختصاص في اللُّغة والعروض.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية
## للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله(١)

١ -الحَمْدُ لله ربِّ العالمينَ عَلى ... آلائِهِ وَهْوَ أهلُ الحَمْدِ والنِّعَمِ

٢- ذي المُلكِ والمَلَكُوتِ الواحِدِ الصَّمَدِ الـ ... بَرِّ المهَيْمِنِ مُبدِي الخَلْقِ مِنْ عَدَمِ

٣- مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ ما لا يَعْلمونَ وبِالْـ ... بَيانِ أنْطَقَهُمْ والخَطِّ بالقَلَمِ

٤- ثمَّ الصّلاةُ على المُخْتارِ أَكْرَمِ مَبْـ ... عُوثٍ بِخيْرِ هُدًى في أفضَلِ الأُمَمِ

٥- والآلِ والصَّحْبِ والأتْباعِ قاطِبَةً ... والتَّابِعينَ بإحْسانٍ لِنَهْجِهِمِ

٦- ما لاحَ نَجْمٌ وما شمسُ الضُّحى طَلَعَتْ ... وعَدُّ أنْفاسِ ما في الكوْنِ مِن نَسَمِ

٧- وبَعْدُ مَنْ يُرِدِ اللهُ العَظِيمُ بِهِ ... خيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي دِينِهِ القِيَمِ

٨- وحَثَّ ربِّي وحَضَّ المؤمنينَ عَلى ... تَفَقُّهِ الدِّينِ مَعْ إنْذارِ قَوْمِهِمِ

٩- وامْتَنَّ رَبِّي عَلى كلِّ العِبادِ وكُلْـ ... لِ الرُّسْلِ بالعِلْمِ فاذْكُرْ أكْبَرَ النِّعَمِ

١٠ - يَكفِيكَ في ذاكَ أُولَى سُورَةٍ نَزَلَتْ ... عَلى نَبِيِّكَ أعْني سورَةَ القَلَمِ

١١ - كذاكَ فِي عِدَّةِ الآلاءِ قدَّمَهُ ... ذِكْرًا وقَدَّمَهُ في سُورَةِ النِّعَمِ

١٢ - ومَيَّزَ اللهُ حَتَّى في الجوارِحِ مَا ... مِنْها يُعَلَّمُ عنْ باغٍ ومُغْتَشِمِ

١٣ - وذمَّ ربِّي تعالَى الجاهِلِينَ بِهِ ... أشَدَّ ذمٍّ فَهُمْ أدْنى مِنَ البَهَمِ

١٤ - ولَيْسَ غِبْطَةٌ الا في اثْنَتَيْنِ هُما الْـ ... إحْسانُ في المالِ أو في العِلْمِ والحِكَمِ

١٥ - ومِنْ صِفاتِ أُولِي الإيمانِ نَهْمَتُهُمْ ... فِي العِلْمِ حتى اللِّقَى أَغْبِطْ بِذِي النَّهَمِ

١٦ - العِلْمُ أعْلَى وأحْلى ما لَهُ اسْتَمَعَتْ ... أُذْنٌ وأعْرَبَ عنهُ ناطِقٌ بِفَمِ

---

(١) من أراد سماع هذه المنظومة بقراءة موافقة لهذا الضَّبط يمكنه الدُّخول على الرَّابط التَّالي:
http://www.al-badr.net/qiroah-al-mimiyah.php

١٧- العِلْـمُ غايَتُـهُ القُـصْوَى ورُتْبَتُـهُ الْــ عَلْيــاءُ فاسْــعَوا إليــهِ يَــا أُولِي الهِمَــمِ
١٨- العِلْــمُ أشْرَفُ مَطْلــوبٍ وَطالِبُــهُ للهِ أكْــرَمُ مَــن يَمْــشِي عَــلى قَــدَمِ
١٩- العِلْــمُ نــورٌ مُبِــينٌ يَسْتَـضِيءُ بِــهِ أَهْــلُ الــسَّعادَةِ والجُهَّــالُ فِي الظُّلَــمِ
٢٠- الْعِلْــمُ أعْــلَى حَيــاةٍ للعِبــادِ كَــما أَهْــلُ الجَهالَــةِ أمْــواتٌ بِجَهْلِهِــمِ
٢١- لا سَمْعَ لا عَقْلَ بَلْ لا يُبْصِرونَ وفِي السْـ سَــعِيرِ مُعْــتَرِفٌ كُــلٌّ بِــذَنْبِهِمِ
٢٢- فالجَهْلُ أَصْـلُ ضَـلالِ الخَلْـقِ قاطِبَـةً وأصْــلُ شِــقْوَتِهِمْ طُــرًّا وظُلْمِهِــمِ
٢٣- والعِلْمُ أصْـلُ هُـداهُمْ مَـعْ سَـعادَتِهِمْ فــلا يَــضِلُّ ولا يَــشْقى ذَوُو الحِكَــمِ
٢٤- والخَوفُ بالجهْلِ والحُزْنُ الطّويـلُ بِـهِ وعَــن أُولِي العِلْــمِ مَنْفِيَّــانِ فَاعْتَــصِمِ
٢٥- العِلْــمُ واللهِ مِــيراثُ النُّبُــوَّةِ لا مــيراثَ يُــشْبِهُهُ طُــوبَى لِمُقْتَــسِمِ
٢٦- لأنَّــهُ إرْثُ حَــقٍّ دائِــمٍ أبَــدًا ومــا سِــواهُ إلى الإفْنَــاءِ والعَــدَمِ
٢٧- ومنْــه إرْثُ سُــلَيْمانَ النُّبُــوَّةَ والْــ فَــضْلَ المُبِــينَ فــما أوْلاهُ بِــالنِّعَمِ
٢٨- كــذَا دَعــا زَكَرِيَّــا ربَّــهُ بِــوَلِي أَلْآلِ خَــوفَ المــوالِي مِــن وَرائِهِــمِ
٢٩- العِلْـمُ مِيـزانُ شَرْعِ اللهِ حيـثُ بِـهِ قِوامُــهُ وبِــدُونِ العِلْــمِ لَمْ يَقُــمِ
٣٠- وكُلَّــما ذُكِــرَ الــسُّلطانُ في حُجَــجٍ فــالعِلْمُ لا سُــلْطَةُ الأيْــدِي لِــمُحْتَكِمِ
٣١- فــسُلطَةُ اليَــدِ بالأبْــدانِ قــاصِرَةٌ تَكــونُ بالعَــدْلِ أوْ بــالظُّلْمِ والغَــشَمِ
٣٢- وسُــلْطَةُ العِلْـمِ تَنْقـادُ القُلـوبُ لَهَـا إلَى الهُــدَى وإلَى مَرْضــاةِ رَبِّهِــمِ
٣٣- ويَذْهَبُ الدِّينُ والـدُّنْيا إذَا ذَهَـبَ الْــ ــعِلْمُ الّــذِي فيــهِ مَنْجــاةٌ لِمُعْتَــصِمِ
٣٤- العِلْمُ يا صَـاحِ يَـسْتَغْفِرْ لِـصاحِبِهِ أهـلُ الـسّماوَاتِ والأرْضِـينَ مِـنْ لَـمَمِ
٣٥- كَــذَاكَ تَــسْتَغْفِرُ الحْيتــانُ في لُجَــجِ مِــن البِحــارِ لَــه فِي الــضَّوْءِ والظُّلَــمِ
٣٦- وخــارِجٌ فِي طِـلابِ العِلْـمِ مُحْتَـسِبًا مُجاهِــدٌ في سَــبيلِ اللهِ أيُّ كَمِــي
٣٧- وإنَّ أجْنِحَــةَ الأمْــلاكِ تَبْــسُطُها لِطالِبِيــهِ رضًى مِــنْهُمْ بِــصُنْعِهِمِ
٣٨- والـسَّالِكونَ طريـقَ العِلْـمِ يَسْلُكُهُمْ إلَى الجِنــانِ طريقًــا بــارئُ النَّــسَمِ

٣٩- والسَّامِعُ العِلْمَ والوَاعِي لِيَحْفَظَهُ     مُؤَدِّيًا ناشِرًا إيَّاهُ في الأُمَمِ
٤٠- فيَا نَضَارَتَهُ إذْ كَانَ مُتَّصِفًا     بِذا بِدَعْوَةِ خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ
٤١- كَفاكَ فِي فَضْلِ أهْلِ العِلْمِ أنْ رُفِعُوا     مِنْ أجْلِهِ دَرَجاتٍ فوْقَ غَيْرِهِمِ
٤٢- وكانَ فضْلُ أبِينَا فِي القَدِيمِ عَلى الْـ     أمْلاكِ بالعِلْمِ مِن تَعْلِيمِ رَبِّهِمِ
٤٣- كذاكَ يوسُفُ لَمْ تَظْهَرْ فَضِيلَتُهُ     لِلعالَمِينَ بِغَيْرِ العِلْمِ والحِكَمِ
٤٤- وما اتِّبَاعُ كَلِيمِ اللهِ لِلْخَضِرِ الْـ     مَعْروفِ إلا لعِلْمٍ عَنْهُ مُنْبَهِمِ
٤٥- مَعْ فَضْلِهِ بِرِسالاتِ الإلَهِ لَهُ     وَمَوْعِدٍ وسَماعٍ مِنْهُ لِلْكَلِمِ
٤٦- وقَدَّمَ المصْطفى بالعِلْمِ حامِلَهُ     أعْظِمْ بِذلِكَ تَقْدِيمًا لِذِي قَدَمِ
٤٧- كفَاهُمُو أنْ غَدَوْا لِلْوَحْيِ أوْعِيَةً     وأضْحَتِ الآيُ مِنْهُ فِي صُدورِهِمِ
٤٨- وأَنْ غَدَوْا وُكَلاءَ في القِيامِ بهِ     قَوْلًا وفِعْلًا وتَعْلِيمًا لغيرِهِمِ
٤٩- وخصَّهُمْ ربُّنا قَصْرًا بِخَشْيَتِهِ     وعَقْلِ أمْثالِهِ فِي أصْدَقِ الكَلِمِ
٥٠- ومَعْ شَهادَتِهِ جاءَتْ شَهادَتُهُمْ     حَيْثُ اسْتَجابُوا وأهْلُ الجَهْلِ في صَمَمِ
٥١- ويَشْهدُونَ عَلى أهْلِ الجَهالَةِ بالْـ     مَوْلَى إذا اجتَمَعُوا فِي يَوْمِ حَشْرِهِمِ
٥٢- والعَالِمُونَ عَلى العُبَّادِ فَضْلُهُمُ     كالبَدْرِ فَضْلًا عَلى الدُّرِّيِّ فَاغْتَنِمِ
٥٣- وعَالِمٌ مِنْ أُولِي التّقْوَى أشدُّ عَلى الْـ     شَّيْطانِ مِنْ ألْفِ عَبَّادٍ بِجَمْعِهِمِ
٥٤- ومَوْتُ قَوْمٍ كَثِيرُو العَدِّ أيْسَرُ مِنْ     حَبْرٍ يَموتُ مُصَابٌ واسِعُ الألَمِ
٥٥- كَما مَنافِعُهُ فِي العَالَمِ اتَّسَعَتْ     وَلِلشّيَاطِينِ أفْراحٌ بِمَوْتِهِمِ
٥٦- تَاللهِ لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا لَمَا فَرِحُوا     لأنَّ ذَلِكَ مِن أعْلامِ حَتْفِهِمِ
٥٧- هُمُ الرُّجُومُ بِحَقٍّ كُلَّ مُسْتَرِقٍ     سَمْعًا كَشُهْبِ السَّما أعْظِمْ بِشُهْبِهِمِ
٥٨- لأنَّهَا لِكِلا الجِنْسَيْنِ صائِبَةٌ     شيطانَ إنْسٍ وجِنٍّ دونَ بَعْضِهِمِ
٥٩- هُمُ الهُداةُ إلى أهْدَى السَّبيلِ وأهْـ     ـلُ الجَهْلِ عنْ هَدْيِهِمْ ضَلُّوا لجَهْلِهِمِ
٦٠- وفَضْلُهُمْ جاءَ في نصِّ الكِتابِ وفِي الْـ     حَديثِ أشْهَرُ مِنْ نارٍ عَلى عَلَمِ

٦١- يـا طالِـبَ العِلـمِ لا تَبْغِـي بـه بَـدَلًا  فقَــدْ ظَفِــرْتَ ورَبِّ اللَّــوْحِ والْقَلَــمِ
٦٢- وقَدِّسِ العِلـمَ واعْـرِفْ قَـدْرَ حُرْمَتِـهِ  فِي القَــوْلِ والفِعْــلِ والآدابَ فَــالْتَزِمِ
٦٣- واجْهَـدْ بِعَـزْمٍ قَـوِيٍّ لا انْثِنَـاءَ لَـهُ  لَــوْ يَعْلَــمُ الْمَــرْءُ قَــدْرَ العِلْــمِ لَمْ يَــنَمِ
٦٤- والنُّـصْحَ فابْذُلْـهُ لِلطُّـلابِ مُحْتَـسِبًا  في الــسِّرِّ والجُهْــرِ والأُسْــتاذَ فَــاحْتَرِمِ
٦٥- ومَرْحَبًـا قُـلْ لِمَـنْ يَأتِيـكَ يَطْلُبُـهُ  وفِـيهِمُ احْفَـظْ وَصـايَا المُـصْطَفَى بِهِـمِ
٦٦- والنِّيَّـةَ اجْعَـلْ لِوَجْـهِ الله خالِـصَةً  إنَّ البِنــاءَ بِــدونِ الأَصْــلِ لَمْ يَقُــمِ
٦٧- ومَـن يَكُـنْ لِيَقُـولَ النـاسُ يَطْلُبُـهُ  أَخْــسِرْ بِــصَفْقَتِهِ فِي مَوْقِــفِ النَّــدَمِ
٦٨- ومَـنْ بـه يَبْتَغِـي الـدُّنْيا فَلَـيْسَ لـه  يَــومَ القِيامَــةِ مِــن حَــظٍّ ولا قَــسَمِ
٦٩- كَفَى بِـ(مَن كانَ) فِي شورَى وهُودٍ وفِي الـ  إسْراءِ مَوْعِظَــةً لِلحَــاذِقِ الفَهِــمِ
٧٠- إيَّـاكَ واحْـذَرْ مُمـارَاةَ الـسَّفِيهِ بِـهِ  كَــذا مُباهــاةَ أَهْــلِ العِلْــمِ لا تَــرُمِ
٧١- فـإنَّ أَبْغَـضَ كـلِّ الخَلْـقِ أَجْمَعِهِـمْ  إلى الإلَــهِ أَلَــدُّ النَّــاسِ فِي الخِــصَمِ
٧٢- والعُجْبَ فاحْذَرْهُ إنَّ العُجْبَ مُجْتَرِفٌ  أعْــمالَ صــاحِبِهِ في سَــيْلِهِ العَــرِمِ
٧٣- وبِــالمُهِمِّ المُهِــمِّ ابْــدَأْ لِتُدْرِكَــهُ  وَقَــدِّمِ الــنَّصَّ والآرَاءَ فَــاتَّهِمِ
٧٤- قَـدِّمْ وُجوبًـا عُلـومَ الـدِّينِ إنَّ بِهـا  يَبِـينُ نَهْـجُ الهُـدَى مِـن مُوجِـبِ الـنِّقَمِ
٧٥- وكـلُّ كَـسْرِ الفَتَـى فالـدِّينُ جـابِرُهُ  وَالكَـسْرُ فِي الـدِّينِ صَـعْبٌ غَـيْرُ مُلْتَـئِمِ
٧٦- دَعْ عَنْكَ مـا قالَـهُ العَـصْرِيُّ مُنْـتَحِلا  وبِــالعَتِيقِ تَمَــسَّكْ قــطُّ واعْتَــصِمِ
٧٧- مــا العِلْــمُ إلا كِتــابُ الله أو أَثَــرٌ  يَجْلــو بِنُــورِ هُــداهُ كــلَّ مُنْــبَهِمِ
٧٨- مَا ثَمَّ عِلْمٌ سِوى الـوَحْيِ المُبِـينِ ومَـا  مِنْــهُ اسْــتُمِدَّ ألا طُــوبَى لِمُغْتَــنِمِ
٧٩- والكَـتْمَ لِلعِلْـمِ فاحْـذَرْ إنَّ كاتِمَـهُ  فِي لَعْنَــةِ الله والأَقْــوامِ كلِّهِــمِ
٨٠- ومِــن عُقوبَتِــهِ أنْ فِي المَعــادِ لَــهُ  مِــنَ الجَحــيمِ لِجَامًــا لَــيْسَ كَــاللُّجُمِ

٨١- وصـائِنُ العِلْـمِ عمَّـنْ لَـيْسَ يَحْمِلُـهُ    مـا ذا بِكِـتْمانٍ بـلْ صَـوْنٌ فَـلا تَلُـمِ
٨٢- وإنَّـمَا الكَـتْمُ مَنْـعُ العِلْـمِ طالِبَـهُ    مِـن مُـسْتَحِقٍّ لَـهُ فَـافْهَمْ ولا تَهِـمِ
٨٣- وأتْبِـعِ العِلْـمَ بـالأعْمالِ وادْعُ إلَى    سَـبيلِ ربِّـكَ بالتِّبْيـانِ والحِكَـمِ
٨٤- واصْـبِرْ عَـلى لاحِـقٍ مِـنْ فِتْنَـةٍ وأذَى    فِيـهِ وفِي الرُّسْـلِ ذِكْـرَى فاقْتَـدِهْ بِهِـمِ
٨٥- لَواحِـدٌ بِـكَ يَهْدِيـهِ الإلَـهُ لَـذَا    خَـيْرٌ غَـدًا لـكَ مِـنْ حُمْـرٍ مِـن الـنَّعَمِ
٨٦- واسْلُكْ سَواءَ الـصِّراطِ المـسْتَقِيمِ ولا    تَعْـدِلْ وقُـلْ ربِّيَ الـرَّحْمَنُ واسْـتَقِمِ

## الوصيةُ بكتاب الله عزّ وجلّ

٨٧- وَبِالتَّـدَبُّرِ والتَّرتِيـلِ فَاتْـلُ كِتَـا    بَ الله لاسِـيَّما في حِنْـدِسِ الظُّلَـمِ
٨٨- حَكِّـمْ بَراهِينَـهُ واعْمَـلْ بِمُحْكَمِـهِ    حِـلًّا وحَظْـرًا ومَـا قَـدْ حَـدَّهُ أقِـمِ
٨٩- واطْلُبْ مَعانِيْـهِ بالنَّقْـلِ الـصَّريحِ ولا    تَخُـضْ بِرَأيِـكَ واحْـذَرْ بَطْـشَ مُنْـتَقِمِ
٩٠- فَمَا عَلِمْتَ بِمَحْـضِ النَّقْـلِ مِنْـهُ فَقُـلْ    وَكِـلْ إلَى الله مَعْنـى كـلِّ مُنْـبَهِمِ
٩١- ثُـمَّ المِـرَا فيـه كُفْـرٌ فاحْذَرَنْـهُ ولا    يَـسْتَهْوِيَنَّكَ أقـوامٌ بِـزَيْغِهِمِ
٩٢- وعنْ مَناهِيـهِ كُـنْ يـا صـاحِ مُنْزَجِـرًا    والأمْـرَ منـهُ بـلا تَـردادٍ فـالْتَزِمِ
٩٣- ومـا تَـشابَهَ فَـوِّضْ لِلإلـهِ وَلا    تَخُـضْ فَخَوْضُـكَ فيـه مُوجِـبُ الـنِّقَمِ
٩٤- ولا تُطِـعْ قـولَ ذِي زيْـغٍ يُزَخْرِفُـهُ    مِـنْ كُـلِّ مُبْتَـدِعٍ في الـدِّينِ مُـتَّهَمِ
٩٥- حَـيْرانَ ضَـلَّ عـنِ الحـقِّ المُبِـينِ فَـلا    يَنْفَـكُّ مُنْحَرِفًـا مُعْـوَجَّ لَمْ يَقُـمِ
٩٦- هُـوَ الكِتـابُ الَّـذي مَـن قـامَ يَقْـرَؤُهُ    كـأنَّما خاطَـبَ الـرَّحْمَنَ بـالكَلِمِ
٩٧- هُوَ الصِّراطُ هُو الحَبْلُ المَتِينُ هُـوَ الْـ    مِيـزانُ والعُـرْوَةُ الـوُثْقَى لِمُعْتَـصِمِ
٩٨- هُو البَيانُ هُو الذِّكْرُ الحَكِيمُ هُـوَ التْـ    تَفْـصِيلُ فـاقْنَعْ بِـهِ فِي كُـلِّ مُنْـبَهِمِ
٩٩- هُـو البَـصائِرُ والـذِّكرَى لِمُـدَّكِرٍ    هُـو المَـواعِظُ والبُـشْرى لِغَـيرِ عَمِـي
١٠٠- هُـو المُنَـزَّلُ نُـورًا بَيِّنًـا وهُـدًى    وَهْـوَ الـشِّفاءُ لِمـا فِي القَلْـبِ مِـن سَـقَمِ

١٠١ - لَكِنَّـــهُ لِأُولِي الإيـــمانِ إِذْ عَمِلُـــوا بِـما أَتَـى فِيـه مِــنْ عِلْـمٍ ومِــنْ حِكَـمِ
١٠٢ - أَمَّا عَلى مَـن تَـوَلَّى عَنـه فهـو عَمًـى لِكَوْنِـــهِ عَـــنْ هُـــداهُ المُـــسْتَنيرِ عَمِي
١٠٣ - فمَــنْ يُقِمْـهُ يَكُــنْ يَـومَ المَعـادِ لَـهُ خَــيرَ الإِمــامِ إِلَى الفِــرْدَوسِ والــنِّعَمِ
١٠٤ - كَما يَسُوقُ أُولِي الإِعْـراضِ عنـهُ إِلَى دارِ المَقـــــامِعِ والأَنْكـــــالِ والأَلَمِ
١٠٥ - وقَـدْ أَتَـى الـنصُّ في الطُّـولَيْنِ أَنَّهُـما ظِـــلًّا لِتـــالِيهِما فِي مَوْقِـــفِ الغُمَـــمِ
١٠٦ - وأَنَّـــه فِي غَـــدٍ يَـــأْتِي لِـــصاحِبِهِ مُبَـــشِّرًا وحَجِيجًـــا عَنْـــهُ إِنْ يَقُـــمِ
١٠٧ - والمُلْـكَ والخُلْـدَ يُعْطِيـهِ ويُلْبِـسُهُ تــاجَ الوَقــارِ الإِلــهُ الحَــقُّ ذو الكَــرَمِ
١٠٨ - يُقالُ اقْرَأْ ورَتِّلْ وارْقَ فِي غُرَفِ الْـ جَنَّــاتِ كَــيْ تَنْتَهِــي لِلْمَنْــزِلِ الــنَّعِمِ
١٠٩ - وحُلَّتانِ مِن الفِرْدَوسِ قَـدْ كُـسِيَتْ لِوالِدَيْـــهِ لَهـــا الأَكْـــوانُ لَمْ تَقُـــمِ
١١٠ - قــالا بِــماذا كُــسِيناهَا فقيــلَ بِــما أَقْرَأْتُمـــا ابْـــنَكُما فاشْـــكُرْ لِـــذِي الـــنِّعَمِ
١١١ - كَفَـى وحَـسْبُكَ بِـالقُرْآنِ مُعْجِـزَةً دامَـــتْ لَـــدَيْنَا دَوَامًـــا غَـــيْرَ مُنْـــصَرِمِ
١١٢ - لَمْ يَعْــتَرِهْ قَــطُّ تَبْــدِيلٌ ولا غِــيَرٌ وَجَـــلَّ فِي كَثْـــرَةِ الـــتَّرْدادِ عَـــنْ سَـــأَمِ
١١٣ - مُهَيْمِنًـــا عَرَبِيًّـــا غَـــيرَ ذِي عِـــوَجٍ مُـــصَدِّقًا جـــاءَ فِي التَّنْزِيـــلِ فِي القِـــدَمِ
١١٤ - فيـهِ التَّفَاصِيلُ للأحْكـامِ مَـعْ نَبَـأٍ عـــمَّا سَـيأْتِي وعَــنْ مــاضٍ مِــن الأُمَــمِ
١١٥ - فــانْظُرْ قَــوارِعَ آيــاتِ المَعــادِ بِــهِ وانْظُــرْ لِـما قَــصَّ عَــنْ عــادٍ وعَــنْ إِرَمِ
١١٦ - وانْظُرْ بِهِ شَرْحَ أَحْكامِ الشَّريعَةِ هـلْ تَــرى بِهــا مِــن عَــوِيصٍ غَــيرِ مُنْفَـصِمِ
١١٧ - أَمْ مِـن صَـلاحٍ ولَمْ يَهْـدِ الأَنـامَ لَـهُ أَمْ بـــابِ هُلْـــكٍ ولَمْ يَزْجُـــرْ ولَمْ يَلُـــمِ
١١٨ - أَمْ كـانَ يُغْنِـي نَقِـيرًا عـن هِدايَتِـهِ جَمِيــعُ مــا عنــدَ أهــلِ الأرضِ مِــنْ نُظُــمِ
١١٩ - أخبـــارُهُ عِظَـــةٌ أمثالُـــهُ عِـــبَرٌ وكُلُّـــهُ عَجَـــبٌ سُـــحْقًا لِـــذِي صَـــمَمِ
١٢٠ - لَمْ تَلْبَثِ الجِـنُّ إِذْ أَصْـغَتْ لِتَـسْمَعَهُ أَنْ بــــادَرُوا نُــــذُرًا مِــــنْهم لِقَــــوْمِهِمِ
١٢١ - اللهُ أَكْـبَرُ مـا قَـدْ حَـازَ مِـن عِـبَرٍ ومِـــن بَيـــانٍ وإِعْجـــازٍ ومِـــن حِكَـــمِ
١٢٢ - واللهُ أَكْــبَرُ إِذْ أَعْيَــتْ بلاغَتُــهُ وحُـــسْنُ تَرْكِيبِـــهِ للعُـــرْبِ والعَجَـــمِ

١٢٣ - كمْ مُلْحِدٍ رامَ أن يُبْدِي مُعارَضَةً ... فعَادَ بالذُّلِّ والخُسْرانِ والرَّغَمِ
١٢٤ - هيْهاتَ بُعْدًا لِمَا رامُوا وما قَصَدُوا ... وما تَمَنَّوْا لَقَدْ بَاؤُوا بِذُلِّهِمِ
١٢٥ - خابَتْ أمانِيُّهُمْ شاهَتْ وُجُوهُهُمُ ... زَاغَتْ قُلوبُهُمُ عنْ هَدْيِهِ القِيَمِ
١٢٦ - كَمْ قَدْ تَحدَّى قريشًا في القديمِ وهُمْ ... أهلُ البلاغةِ بينَ الخَلْقِ كُلِّهِمِ
١٢٧ - بِمِثْلِهِ وبِعَشْرٍ ثُمَّ واحدةٍ ... فلَمْ يَرُومُوهُ إذْ ذا الأمرُ لَمْ يُرَمِ
١٢٨ - الجنُّ والإنسُ لم يأتوا لَوِ اجْتمعوا ... بِمِثْلِهِ ولَوِ انْضَمُّوا لِمِثْلِهِمِ
١٢٩ - أنَّى وكيْفَ وربُّ العَرْشِ قائِلُهُ ... سبْحانَهُ جَلَّ عنْ شِبْهٍ لَهُ وسَمِي
١٣٠ - مَا كان خَلْقًا ولا فَيْضًا تَصَوَّرَهُ ... نَبِيُّنا لا ولا تَعبيرَ ذِي نَسَمِ
١٣١ - بلْ قالَهُ ربُّنا قوْلًا وأنْزَلَهُ ... وَحْيًا على قلْبِهِ المُسْتَيْقِظِ الفَهِمِ
١٣٢ - واللهُ يَشْهَدُ والأملاكُ شاهِدَةٌ ... والرُّسْلُ معْ مُؤْمِنِي العُرْبَانِ والعَجَمِ

## الوصيةُ بالسُّنّة

١٣٣ - ارْوِ الحَدِيثَ ولازِم أهْلَهُ فهُمُ النْـ ... ـنَاجُونَ نَصًّا صريحًا للرَّسولِ نُمِي
١٣٤ - سامِتْ مَنابِرَهُمْ واحْمِلْ محابِرَهُمْ ... والْزَمْ أكابِرَهُم في كلِّ مُزْدَحَمِ
١٣٥ - اسْلُكْ مَنارَهُمُو والْزَمْ شِعارَهُمُ ... واحْطُطْ رِحالَكَ إنْ تَنْزِلْ بِسُوحِهِمِ
١٣٦ - همُ العُدولُ لِحَمْلِ العِلمِ كَيْفَ وَهُمْ ... أُولُو المكارِمِ والأخْلاقِ والشِّيَمِ
١٣٧ - همُ الأفاضِلُ حازُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ ... همُ الأُلى بِهِمُ الدِّينُ الحَنيفُ حُمِي
١٣٨ - همُ الجَهابِذَةُ الأعْلامُ تعرِفُهُمْ ... بينَ الأنامِ بِسِيمَاهُمْ وَوَسْمِهِمِ
١٣٩ - همْ ناصِرُو الدِّينِ والحَامُونَ حَوْزَتَهُ ... مِنَ العَدُوِّ بجيشٍ غيرِ مُنْهَزِمِ
١٤٠ - همُ البُدورُ ولكنْ لا أُفُولَ لَهُمْ ... بلِ الشُّموسُ وقد فاقُوا بِنُورِهِمِ
١٤١ - لم يبقَ للشَّمس مِنْ نُورٍ إذا أَفَلَتْ ... ونورُهم مُشْرِقٌ مِنْ بَعْدِ رَمْسِهِمِ
١٤٢ - لَهُمْ مَقامٌ رَفيعٌ ليْسَ يُدْرِكُهُ ... مِنَ العِبادِ سِوَى السَّاعِي كَسَعْيِهِمِ

١٤٣ - أَبْلِـغْ بِحُجَّـتِهِمْ أَرْجِـحْ بِكِفَّـتِهِمْ     في الفَـضْلِ إنْ قِـسْتَهُمْ وَزْنًـا بِغَـيْرِهِمِ
١٤٤ - كفـاهُمُو شَرَفًـا أَنْ أصبحُوا خَلَفًـا     لِـسَيِّدِ الحُنَفَـا في دينِـهِ القِـيَمِ
١٤٥ - يُحْيُـونَ سُـنَّتَهُ مِـنْ بَعْـدِهِ فَلَهُـمْ     أَوْلَى بـهِ مِـنْ جَميـعِ الخَلْـقِ كُلِّهِـمِ
١٤٦ - يَـرْوُونَ عنـهُ أحاديـثَ الـشَّرِيعَةِ لا     يَـأْلُونَ حِفْظًـا لَهَـا بالـصَّدْرِ والقَلَـمِ
١٤٧ - يَنْفُونَ عنها انْتِحَـالَ المُبْطِلِينَ وتَحْـ     ـريـفَ الغُـلاةِ وتَأْويـلَ الغَـوِيْ اللَّـئِمِ
١٤٨ - أَدَّوا مَقالَتَــهُ نُـصْحًا لأُمَّتِـهِ     صـانُوْا رِوايَتَهـا عـنْ كُـلِّ مُـتَّهَمِ
١٤٩ - لَمْ يُلْهِهِـمْ قـطُّ مِـن مـالٍ ولا خَـوَلٍ     ولا ابْتِيـاعٍ ولا حَـرْثٍ ولا نَعَـمِ
١٥٠ - هَذا هُو المَجـدُ لا مُلْـكٌ ولا نَـسَبٌ     كَـلَّا ولا الجَمْـعُ لِلأمـوالِ والخَـدَمِ
١٥١ - فكُـلُّ مَجْـدٍ وَضِـيعٌ عِنـد مَجْـدِهِمُو     وكـلُّ مُلْـكٍ فَخُـدَّامٌ لِمُلْكِهِـمِ
١٥٢ - والأَمْنُ والنُّورُ والفَوْزُ العَظِيمُ لَهُـمْ     يَـوْمَ القِيامَـةِ والبُـشْرَى لِحِـزْبِهِمِ
١٥٣ - فـإنْ أَرَدْتَ رُقِيًّـا نَحـوَ رُتْبَـتِهِمِ     ورُمْـتَ مَجْـدًا رفِيعًـا مِثْـلَ مَجْـدِهِمِ
١٥٤ - فاعْمِـدْ إِلَى سُـلَّمِ التقـوَى الَّـذِي نَـصَبُوا     واصْـعَدْ بِعَـزْمٍ وَجِـدَّ مِثْـلَ جِـدِّهِمِ
١٥٥ - واعْكُفْ عَلى السُّنَّةِ المُثْلى كَما عَكَفُـوا     حِفْظًـا مـعَ الكَـشْفِ عـن تَفْـسِيرِها وَدُمِ
١٥٦ - واقْـرَأْ كِتابًـا يُفِيـدُ الاصْـطِلاحَ بِـهِ     تَـدْرِي الـصَّحيحَ مِـن المَوْصـوفِ بالـسَّقَمِ
١٥٧ - حَكِّـم قَوَاعِـدَهُ وَاحْـرُزْ فَوَائِـدَهُ     تَحُـزْ عَوَائِـدَهُ كَالـدُّرِّ تَنْـتَظِمِ
١٥٨ - فهْيَ المَحَجَّةُ فاسْلُكْ غـيرَ مُنْحَـرِفٍ     وهـيَ الحَنِيفِيَّـةُ الـسَّمْحاءُ فاعْتَـصِمِ
١٥٩ - وَحْـيٌ مِـنَ الله كـالقُرْآنِ شـاهِدُهُ     في سُـورةِ الـنَّجْمِ فاحْفَظْـهُ ولا تَهِـمِ
١٦٠ - خيرُ الكلامِ ومِـنْ خـيرِ الأنـامِ بَـدَا     مِـن خـيرِ قَلْـبٍ بـهِ قـدْ فـاهَ خـيرُ فـمِ
١٦١ - وهْيَ البيَانُ لأسْرارِ الكِتَـابِ فبِالْـ     إعْـراضِ عـنْ حُكْمِهـا كُـنْ غَيرَمُتَّـسِمِ
١٦٢ - حَكِّـمْ نَبِيَّـكَ وانْقَـدْ وارْضَ سُـنَّتَهُ     مَـعَ اليَقِـينِ وحَـوْلَ الـشَّكِّ لا تَحُـمِ
١٦٣ - واعْضُضْ عَلَيها وجانِـبْ كـلَّ مُحْدَثَـةٍ     وقُـلْ لِـذِي بِدْعَـةٍ يَـدْعُوكَ لا نَعَـمِ
١٦٤ - فـمَا لِـذِي ريبَـةٍ في نفـسِهِ حَـرَجٌ     مِمَّـا قَـضَى قـطُّ في الإيْـمانِ مِـنْ قَـسَمِ

١٦٥- (فَلا وَرَبِّكَ) أقْوَى زاجِرًا لأُوْلِي الْـ ... أَلْبـابِ والمُلْحِـدُ الزِّنْـدِيقُ في صَـمَمِ

## في الفرائض والآلةِ والتّحذير من العلوم المبتدعةِ

١٦٦- وبالفرائِضِ نصفِ العِلْمِ فَاعْنَ كَما ... أَوْصَى الإلـهُ وخَـيْرُ الرُّسْـلِ كُلِّهِـم

١٦٧- مِـن فـضْلِها أن تَـوَلَّى اللهُ قِـسْمَتَها ... ولَمْ يَكِلْهـا إلى عُـرْبٍ ولا عَجَـمِ

١٦٨- (يُوصيكُم اللهُ) آيٌ بَعْدَها اتَّـصَلَتْ ... وفي الكَلالَـةِ أُخْـرَى فَـادْنُ واغْتَـنِمِ

١٦٩- وخُذْ إذا شِئتَ مـا قـدْ تَـستَعِينُ بِـهِ ... مِـنْ آلـةٍ تُلْفِهـا حَـلًّا لِمُنْـبَهِمِ

١٧٠- كالنَّحْوِ والصَّرْفِ والتّجْويدِ معْ لُغَةٍ ... يُـدْرَى بِهـا حَـلُّ مـا يَخْفـى مِـنَ الكَلِـمِ

١٧١- واحْذَرْ قـوانِينَ أَرْبـابِ الكَـلامِ فـمَا ... بِهـا مِـنَ العِلْـمِ غـيرُ الـشَّكِّ والـتُّهَمِ

١٧٢- قـامُوسُ فَلْـسَفَةٍ مِفْتـاحُ زَنْدَقَـةٍ ... كَـمْ مِـنْ مُلِـمٍّ بِـهِ قـدْ بـاءَ بالنَّـدَمِ

١٧٣- رامُوا بِها عَزْلَ حُكْـمِ اللهِ واقْتَرَحُـوا ... لِلْحَـقِّ رَدًّا وإنْفـاذًا لِحُكْمِهِـمِ

١٧٤- يُـرُوكَ أَنْ تَـزِنَ الـوَحْيَيْنِ مُجْتَرِئًـا ... عَلَـيهِما بِعُقُـولِ المُغْفِـلِ العَجَـمِ

١٧٥- وأنْ تُحَكِّمَهـا فِي كُـلِّ مُـشْتَجَرٍ ... إذْ لَـيْسَ فِي الـوَحْيِ مِـن حُكْـمٍ لِمُحْـتَكِمِ

١٧٦- أمَّا الكِتابُ فحَـرِّفْ عَـنْ مَواضِـعِهِ ... إذْ لـيْسَ يُعْجِـزُكَ التَّحْريـفُ لِلْكَلِـمِ

١٧٧- كـذا الأحادِيـثُ آحـادٌ ولـيْس بِهـا ... بُرْهـانُ حـقٍّ ولا فـصْلٌ لِمُخْتَـصِمِ

١٧٨- وقَـدْ أَبَـى اللهُ إلَّا نَـصْرَ مـا خَـذَلُوا ... وكَـسْرَ مـا نَـصَرُوا مِـنْهُمْ عَـلى رَغَـمِ

١٧٩- كَـذا الكَهانَـةُ والتَّنْجِـيمُ إنَّهُـمَا ... كُفْـرانِ قَـدْ عَبَثَـا بالنَّـاسِ مِـنْ قِـدَمِ

١٨٠- إسنادُهَا حِزْبُ إبْلـيسَ اللَّعِـينِ كَـمَا ... مُتُونُهـا أكْـذَبُ المَنْقـولِ مِـنْ كَلِـمِ

١٨١- مَـا لِلـتُّرابِ ومـا لِلْغَيْـبِ يُدْرِكُـهُ ... مَـا لِلتَّـصَرُّفِ والمَخْلـوقُ مِـنْ عَـدَمِ

١٨٢- لوْ كانتِ الجِنُّ تَدْرِي الغَيْـبَ مـا لَبِثَـتْ ... دَهْـرًا تُعـالِجُ أصـنافًا مِـنَ الأَلَمِ

١٨٣- أمَّـا النُّجُـومُ فَـزَيْنٌ لِلـسَّما و(رُجُـو ... مًـا للـشَّياطِينِ) طَـرْدًا لاسْـتِماعِهِمِ

١٨٤- كـما بِهـا يَهْتَـدِي الـسَّارِي لِوِجْهَتِـهِ ... في الـبَرِّ والبَحْـرِ حيـثُ الـسيْرُ فِي الظُّلَـمِ

١٨٥ - والنَّـيِّرَانِ بِحُـسْبَانٍ وذلـكَ تَقْـ ـدِيرُ العَزِيـزِ العَلِـيمِ المُـسْبِغِ الـنِّعَمِ
١٨٦ - فمَـنْ تَـأَوَّلَ فيهـا غـيْرَ ذاكَ قَفَـا مـا لـيْسَ يَعْلَمُـهُ فَهـو الكَـذُوبُ سِـمِ
١٨٧ - كَـالمُقْتَفِينَ لِعُبَّـادِ الهياكِـلِ فِي عَـزْوِ التَّـصَرُّفِ والتـأثِيرِ للـنُّجُمِ
١٨٨ - والكـاتِبِينَ نِظامًـا في عِبادَتِهـا عَقْـدًا وكَيْفًـا وتَوْقِيتًـا لِنُـسْكِهِمِ
١٨٩ - فَـذَا سُـعُودٌ وذَا نَحْـسٌ وطَلْـسَمُهُ كَـذَا وناسَـبَهُ ذا كَـمْ بِخَرْصِـهِمِ
١٩٠ - واحْذَرْ مَجَلَّاتِ سُوءٍ فِي المَلا نُـشِرَتْ تَـدعُو جِهـارًا إلى نَـشْرِ الـبَلا بِهِـمِ
١٩١ - تَـدْعُو لِنَبْـذِ الهُـدَى والـدِّينِ أجْمَعِهِ والعِلْـمِ بـلْ كـلِّ عَقْـلٍ كامِـلٍ سَـلِمِ
١٩٢ - ولِلرُّكُـونِ إلى الـدُّنْيا وزُخْرُفِهـا والرَّتْـعِ كـالحيَوانِ الـسَّائِمِ الـبَهِمِ
١٩٣ - ولِلتَّهَتُّـكِ جَهْـرًا والخَلاعَـةِ مَـعْ نَبْـذِ المُـرُوءَةِ والأَخْـلاقِ والـشِّيَمِ
١٩٤ - والاعْتِمـادِ عَـلى الأسْبـابِ مُطْلَقِهـا دُونَ المُـسَبِّبِ والخَـلّاقِ مِـنْ عَـدَمِ
١٩٥ - والكُفْرِ بـاللهِ والأمْـلاكِ معْ رُسُـلٍ والـوَحْيِ مـعْ قَـدَرٍ والبَعْـثِ لِلـرِّمَمِ
١٩٦ - وَلاعْتِنـاقِ الطَّبيعيَّـاتِ لـيْسَ لَهـا مُـدَبِّرٌ فاعِـلٌ مـا شـاءَ لَمْ يَـضِمِ
١٩٧ - قامَـتْ لَـدَيْهِمْ بِـلا قَيُّـومِ ابْـدَعَها مُـسَخَّراتٍ لِغاياتٍ مِـنَ الحِكَـمِ
١٩٨ - سَمَّوْهُ مَدْحًا لهُ العِلْمَ الجَدِيدَ بَلِ الْـ ـكُفْـرَ القَـدِيمَ ومِنْـهُ القَـوْلُ بالقِـدَمِ
١٩٩ - تَقَـسَّمُوهُ المَلاحِيـدُ الطُّغـاةُ عَـلى سَـهْمٍ وأكثَـرَ لا أهْـلًا بِـذِي القِـسَمِ
٢٠٠ - وكُلَّمـا مَـرَّ قَـرْنٌ أوْ قُـرُونٌ أَتَـوْا بِـهِ عَـلى صُـورَةٍ أُخْـرَى لِخُبْـثِهِمِ
٢٠١ - بَعْضُ الخَبيث عَلى بَعْـضٍ سَـيَرْكُمُهُ رَبِّي وَيَجْعَلُـهُ في النَّـارِ للـضَّرَمِ
٢٠٢ - واعْجَبْ لِعُدْوانِ قَوْمٍ حاوَلُوا سَفَهًا أنْ يَجْمَعُـوهُ إلى الإسْـلامِ فِي كَمَـمِ
٢٠٣ - كالنَّارِ في الماءِ أو طُهْـرٍ عَـلى حَـدَثٍ في وقتِـهِ أوْ إخـاءِ الـذِّئْبِ والغَـنَمِ

خاتمة في تحصيل ثمرات العلم النّافعة واجتناء قطُوفه الدّانية اليانعة

٢٠٤ - وَحَاصِلُ العِلْمِ ما أُمْلِي الـصِّفَاتِ لَـهُ فَأَصْـغِ سَـمْعَكَ واسْتَنْـصِتْ إلَى كَلِمِـي
٢٠٥ - وَذَاكَ لا حِفْظُـكَ الفُتْيَـا بِأَحْرُفِهَـا وَلا بِتَـسْوِيدِكَ الأَوْرَاقَ بِـالحُمَمِ

٢٠٦- وَلا تَـصَدُّرُ صَـدْرِ الجَمْعِ مُحْتَبِيًا	تُمْلِيـــهِ لَمْ تَفْقَـــهِ المَعْنِـــيَّ بـــالكَلِمِ
٢٠٧- ولا العِمَامَــةُ إذْ تُرْخِــي ذُؤابَتَهــا	تَــصَنُّعًا وخِــضَابُ الــشَّيْبِ بـالْكَتَمِ
٢٠٨- ولا بِقَوْلِـكَ يَعْنِـي دائبًـا ونَعَـمْ	كَــلا ولا حَمْلِــكَ الأسْــفَارَ كـالْبَهَمِ
٢٠٩- ولا بِحَمْــلِ شَــهاداتٍ مُبَهْرَجَــةٍ	بِزُخْــرُفِ القَــوْلِ مِــن نَثْــرٍ ومُنْــتَظِمِ
٢١٠- بــلْ خَــشْيَةُ الله في سِرٍّ وفِي عَلَــنٍ	فــاعْلَمْ هــيَ العِلْــمُ كــلُّ العِلْـمِ فـالْتَزِمِ
٢١١- فَلْتعْــرِفِ اللهَ ولْتَــذْكُرْ تَــصَرُّفَهُ	ومَــا عَــلى عِلْمِــهِ قــد خُــطَّ بــالقَلَمِ
٢١٢- وحَقَّهُ اعْرِفْ وقُـمْ حَقًّـا بِمُوجبِهِ	ومَـنْهَجَ الحَـقِّ فَاسْـلُكْ عَنْـهُ غَـيْرَ عَمِـي
٢١٣- أَشْقَى وأَسْعَدَ مُخْتَـارًا أضَـلَّ هَـدَى	أدْنَــى وأبْعَــدَ عَــدْلًا مِنْــهُ فِي القِــسَمِ
٢١٤- أَوْحَـى وأرْسَـل وصَّى آمِـرًا ونَهَـى	أَحَــلَّ حَــرَّمَ شَرْعًــا كَامِــلَ الحِكَــمِ
٢١٥- يُحِبُّ الإحْـسَانَ والعِـصْيانَ يَكْرَهُـهُ	والْــبِرَّ يَرْضــاهُ مــعْ سُــخْطٍ لِجُــرْمِهِمِ
٢١٦- بِمُقْتَـضَى ذَيْـنِ فِي الـدَّارَيْنِ مُطَّـرِدٌ	لا ظُلْــمَ يُخْــشَى ولا خَــيْرٌ بِمُنْهَــضِمِ
٢١٧- فاعْمَلْ عَلى وَجَلٍ وادْأَبْ إِلَى أَجَلٍ	واعْــزِلْ عــن الله سُــوءَ الظَّــنِّ والــتُّهَمِ
٢١٨- للـشَّرْعِ فانْقَـدْ وسَـلِّمْ لِلقَـضَاءِ ولا	تُخَاصِــمَنَّ بِــهِ كالمُلْحِــدِ الخَــصِمِ
٢١٩- وبالمَقــادِيرِ كُــنْ عَبْــدًا لِمَالِكِــهِ	وعابِــدًا مُخْلِــصًا فِي شَرْعِــهِ القِــيَمِ
٢٢٠- إِيَّـاهُ فاعْبُـدْ وإِيَّـاهُ اسْـتَعِنْ فَبِـذَا	تَــصِلْ إليْــهِ وإلا حُــرْتَ فِي الظُّلَــمِ
٢٢١- وخُذْ بالاسْبابِ واسْتَوْهِبْ مُـسَبِّبَها	وثِــقْ بِــهِ دُونَهــا تُفْلِــحْ ولَمْ تُــضَمِ
٢٢٢- بالشَّرْعِ زِنْ كُلَّ أَمْـرٍ مـا هَمَمْـتَ بِـهِ	فـــإِنْ بَـــدَا صـــالِحًا أَقْـــدِمْ ولا تَجِـــمِ
٢٢٣- أَخْلِصْهُ واصْدُقْ أَصِبْ واهْضِمْ فَذِي شُرِطَـتْ	فِي صــالِحِ الــسَّعْيِ أَوْ فِي طَيِّــبِ الكَلِــمِ
٢٢٤- أَخْلِصْهُ لله واصْدُقْ عازِمًا وأَصِـبْ	صِرَاطَــهُ واهْــضِمَنَّ الــنَّفْسَ تَنْهَــضِمِ
٢٢٥- لا تُعْجَــبَنَّ بِــهِ يُحْــبَطْ ولا تَــرَهُ	فِي جانــبِ الــذَّنْبِ والتَّقْــصِيرِ والــنِّعَمِ
٢٢٦- وحيثُ كانَ مِن النَّهْيِ اجْتَنِبْهُ وإِنْ	زَلَلْــتَ تُــبْ منــهُ واسْــتَغْفِرْ مــعَ النَّــدَمِ
٢٢٧- وَأَوْقِفِ النَّفْسَ عندَ الأمرِ هلْ فَعَلَـتْ	والنَّهْيِ هلْ نَزَعَـتْ عـن موجِـبِ الـنِّقَمِ

٢٢٨- فـإنْ زَكَـتْ فاحْمَـدِ المَـوْلَى مُطَهِّرَهـا ونعْمَـــــةَ الله بالـــــشُّكْرانِ فاسْـــــتَدِمِ
٢٢٩- وإنْ عَصَتْ فاعْـصِها واعْلَـمْ عَـدَاوَتَها وحَـــــذِّرَنْها وُرُودَ المَـــــوْرِدِ الـــــوَخِمِ
٢٣٠- وانْظُرْ مَجازِيْ المُسِيئينَ الَّتـي أُخِـذُوا بِهـــا وحَـــاذِرْ ذُنوبًـــا مِـــن عِقـــابِهِمِ
٢٣١- والْزَمْ صِفاتِ أولي التَّقْـوَى الَّـذينَ بهـا عَلَـــــيْهِمُ اللهُ أَثْنَـــــى واقْتَـــــدِهْ بِهِـــــمِ
٢٣٢- واقْنُتْ وبينَ الرَّجَا والخَوْفِ قُمْ أَبَدًا تَخْـشَى الـذُّنُوبَ وتَرْجُـو عَفْـوَ ذِي الكَـرَمِ
٢٣٣- فالخوفُ مَا أَوْرَثَ التَّقْوَى وحَـثَّ عَـلى مَرْضـــاةِ رَبِّي وهَجْـــرِ الإِثْـــمِ والأَثِـــمِ
٢٣٤- كَذا الرَّجَا ما عَلى هَـذا يَحُـثُّ لِتَـصْـ دِيـــقٍ بِمَوْعـــودِ رَبِّي بـــالجَزَا العَظِـــمِ
٢٣٥- والخَوْفُ إنْ زادَ أَفْضَى لِلْقُنُـوطِ كَـمَا يُفْـــضِي الرَّجـــاءُ لأَمْـــنِ المَكْـــرِ والـــنِّقَمِ
٢٣٦- فَلا تُفَـرِّطْ ولا تُفْـرِطْ وكُـنْ وَسَـطًا وَمِثْـــلَ مَـــا أَمَـــرَ الـــرَّحْمَنُ فاسْـــتَقِمِ
٢٣٧- سَدِّدْ وقارِبْ وأَبْشِرْ واسْتَعِنْ بِغُـدُوْ وبـــالرَّواحِ وأَدْلِـــجْ قاصِـــدًا ودُمِ
٢٣٨- فمِثْـلُ مـا خَانَـتِ الكـسْلانَ هِمَّتُـهُ فَطَالَمَـــا حُـــرِمَ المُنْبَـــتُّ بالـــسَّأَمِ
٢٣٩- ودُمْ عَلى البَاقِياتِ الصَّالِحاتِ وحَوْ قِـلْ واسْـأَلِ اللهَ رِزْقًـا حُـسْنَ مُخْتَـتَمِ
٢٤٠- واضْرَعْ إلى الله في التَّوْفِيـقِ مُبْـتَهِلا فَهْـــوَ المُجِيـــبُ وأَهْـــلُ المَـــنِّ والْكَـــرَمِ
٢٤١- يـا رَبِّ يـا حـيُّ يـا قيـومُ مَغْفِـرَةً لِـمَـــا جَنَيْـــتُ مِـــنَ العِـــصْيانِ واللَّمَـــمِ
٢٤٢- وامْنُنْ عَلَيَّ بِـمَا يُرْضِـيكَ واقْـضِهِ لِي مِـــنِ اعْتِقـــادٍ ومِـــنْ فِعْـــلٍ ومِـــنْ كَلِـــمِ
٢٤٣- وأَعْلِ دينَـكَ وانْـصُرْ ناصِريـهِ كَـمَا وَعَـــــدْتَهُمْ ربَّنـــــا فِي أَصْـــــدَقِ الكَلِـــــمِ
٢٤٤- واقصِمْ بِبَأْسِـكَ رَبِّي حِـزْبَ خاذِلِـهِ ورُدَّ كَيْـــــدَ الأعـــــادِي فِي نُحُـــــورِهِمِ
٢٤٥- واشْـدُدْ عَلـيْهِمْ بِزِلْـزَالٍ ودَمْدَمَـةٍ كَـمَا فَعَلْـتَ بِأَهْـلِ الْحِجْـرِ فِي القِـدَمِ
٢٤٦- واجْعَلْهُمُـو رَبَّنـا لِلْخَلْـقِ مَوْعِظَـةً وعِـــبْرَةً يـــا شَـــديدَ الـــبَطْشِ والـــنِّقَمِ
٢٤٧- ثمَّ الصَّلاةُ عَلى المَعْـصومِ مِـنْ خَطَـأٍ مُحَمَّـــــدٍ خَـــــيْرِ رُسْـــــلِ الله كُلِّهِـــــمِ
٢٤٨- والآلِ والصَّحْبِ ثـم التـابعين لَهُـمْ وتَـــمَّ نَظْمِـــي بِحَمْـــدِ الله ذِي الـــنِّعَمِ

# شرح المنظومة

* قال النَّاظمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١-الحَمْــــدُ لله ربِّ العــــالمينَ عَــــلى آلائِـــهِ وَهْـــوَ أهــلُ الحَمْــدِ والــنِّعَمِ
٢-ذي المُلكِ والملَكُوتِ الواحِدِ الصَّمَدِ الـ بَرِّ المهيْمِنِ مُبـدِي الخَلْـقِ مِـنْ عَـدَمِ
٣-مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ ما لا يعْلمـونَ وبِالْـ بَيـــانِ أنْطَقَهُـــمْ والخَـــطِّ بـــالقَلَمِ
٤-ثمَّ الـصّلاةُ عـلى المُخْتـارِ أكْـرَمِ مَبْــ عُوثٍ بِخيْرِ هُـدًى في أفـضَلِ الأُمَـمِ
٥-والآلِ والـصَّحْبِ والأتْبـاعِ قاطِبَـةً والتَّـــابِعينَ بإحْـــسانٍ لِـــنَهْجِهِمِ
٦-ما لاحَ نَجْمٌ وما شمسُ الضُّحى طَلَعَتْ وعَدُّ أنْفاسِ ما في الكـوْنِ مِـن نَـسَمِ

بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ بحمد الله عَزَّوَجَلَّ والثَّناء عليه ـ سبحانه ـ بما هو أهله.

والبدء بحمد الله عَزَّوَجَلَّ أمرٌ درَج عليه أهل العلم؛ تأسِّيًا بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وتأسِّيًا بالنَّبيِّ ﷺ في خطبه ورسائله.

و«**الحمدُ**»: هو الثَّناء على الله ـ جلَّ وعلا ـ بالصِّفات الكاملة والأفعال العظيمة، وهو ـ جلَّ وعلا ـ له الحمد كلُّه أوَّلًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا.

وحمد الله نوعان:

**١ـ** حمدٌ له ـ تبارك وتعالى ـ على أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة العليا.

**٢ـ** وحمدٌ له على نعمه الَّتي لا تعدُّ ولا تحصى، وآلائه الَّتي لا تُستقصى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحمد نوعان: حمدٌ على إحسانه إلى عباده، وهو من الشُّكر؛ وحمدٌ لما يستحقُّه هو بنفسه من نعوت كماله، وهذا الحمد لا يكون إلَّا على ما هو في نفسه مستحقٌّ للحمد، وإنَّما يستحقُّ ذلك من هو متَّصف بصفات الكمال»[1].

والنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع بين هذين النَّوعين؛ إذ حمد الله على الأسماء والصِّفات، وحمدَه ـ جلَّ وعلا ـ على الآلاء والنِّعم.

وقوله: «**ربِّ العالمين**»؛ أي خالقهم ورازقهم ومالكهم والمتصرِّف فيهم خفضًا ورفعًا، وقبضًا وبسطًا، وحياةً وموتًا، فلا ربَّ لهم سواه، ولا خالق لهم غيره جلَّ وعلا.

وقوله: «**على آلائه**»؛ «الآلاء»: النِّعم، قال تعالى: ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن: ١٣]، والنِّعم كلُّها منه، وهي لا تعدُّ ولا تحصى، قال تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ**﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ**﴾ [النحل: ١٨].

وقوله: «**وهو أهلُ الحمدِ والنِّعم**»؛ «أهل الحمد» أي: الحقيق بأن يُحمد ـ جلَّ وعلا ـ، وقد ثبت في «صحيح مسلم» فيما يُقال عند الرَّفع من الرُّكوع: «**أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ**»[2]، أي أهلُ ـ أَنْتَ يا اللهُ ـ وحقيقٌ أنْ يُثنى عليك وأن تُمَجَّدَ.

وقوله: «**النِّعم**» أي: مُسْدِي النِّعم والمتفضِّل بها وحده لا شريك له.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٨٤).

(٢) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ برقم (٤٧٧).

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ذِي المُلك**»؛ وهو بَدَلٌ مِنْ لفظ الجلالة، أي صاحب الملك، والمُلك يرجع إلى ثلاثة معانٍ:

الأَوَّل: ثبوت صفات الملك له الَّتي هي صفات العظمة والجلال والكمال والكبرياء؛ كالقوَّة والعِزَّة والقُدرة، ونحوها من الصِّفات.

الثَّاني: أنَّ جميع الخلق مَمَالِيكُه وعبيدُه، ومفتَقِرون إليه، ومضطرُّون إليه، ولا غِنَى لهم عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ، قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: ١٥].

الثَّالث: أنَّ له التَّدبيرات النَّافذة، يقضي في مُلكه بما يشاء، ويحكُم بما يريد، يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويقبض ويَبسط، ويُحيي ويُميت، ويعزُّ ويذلُّ، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، له الحُكم فيه تقديرًا وشرعًا وجزاءً.

وقوله: «**والملَكُوت**» بزيادة الواو والتَّاء، على وزن «فَعَلُوت» صيغة مبالغة، مثل: «جَبَرُوت»، و«رَغَبُوت»، و«رَهَبُوت»؛ منَ الجبر والرَّغبة والرَّهبة(١).

قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ**﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وقال جلَّ وعلا: ﴿**فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [يس: ٨٣ ]، وثبت من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول في الرُّكوع والسُّجود: «**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ**»(٢).

---

(١) راجع «لسان العرب»: باب رحم (١٢/ ٢٣٠).

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٨٠)، وأبو داود (٨٧٣)، والنَّسائي (١٠٤٩)، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٨١٧).

وقوله: «**الواحد**»؛ وهو اسمٌ من أسماء الله تعالى الحسنى، ومعناه: المتفرِّد بصفات المجد والجلال، والمتوحِّد بنعوت العظمة والكبرياء والجمال، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ واحدٌ في ذاته لا شبيهَ له، وواحدٌ في صفاته لا مثيلَ له، وواحدٌ في أفعاله لا شريكَ له، وواحدٌ في ألوهيَّته فليس له ندٌّ في المحبَّة والتَّعظيم والذُّلِّ والخضوع، وهو ـ جلَّ وعلا ـ الواحدُ الَّذي عظُمَت صفاته حتَّى تفرَّد بكلِّ كمالٍ.

وقوله: «**الصَّمَد**»؛ وهو اسمٌ من أسماء الله ـ جلَّ وعلا ـ ورد في سورة الإخلاص، ومعناه: السَّيِّدُ العظيمُ الَّذي كمُل في علمه وحكمته وقدرته وعزَّته وجميع صفاته، فهو ـ سبحانه ـ واسعُ الصِّفات عظيمُها، الَّذي صمَدَت إليه جميعُ المخلوقات، وقصدتُه كلُّ الكائنات بأسرها في جميع شؤونها، فليس لها ربٌّ سواه[1].

وقوله: «**البَرُّ**» وهو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

ومعناه: الَّذي شمل الكائنات بأسرها ببرِّه وفضله ومنِّه وجودِه وعطائه، وآثارُ هذا الوصف شمَل جميعَ النِّعم الظَّاهرة والباطنة، فلا يَستغني مخلوقٌ عن إحسانه وبرِّه طَرْفَةَ عَيْنٍ.

وقوله: «**المُهَيمِن**»؛ وهو اسمٌ ثابتٌ في القرآن في أواخر سورة الحشر

---

(١) انظر: «فتح الرَّحيم الملك العلَّام» للشَّيخ عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي (٣٨).

ومعناه: «أي المطَّلِع على خفايا الأمور وخبايا الصُّدور، الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا، الشَّاهدُ على الخلق بأعمالهم، الرَّقيبُ عليهم فيما يَصدُرُ منهم من قولٍ أو فعلٍ»[1].

وقوله: «**مُبْدِي الخَلْق من عَدَم**»؛ أي موجدهم، قال الله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الروم: ١١]، وقال سبحانه: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم: ٢٧]، وقال جلَّ وعلا: ﴿**كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ**﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقوله: «**من عَدَم**» دلَّ على ذلك نصوصٌ منها قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان: ١].

* **ثمَّ قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٣- مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ ما لا يعْلَمُونَ وبِالْـ ... بَيَانِ أَنْطَقَهُمْ والخَطِّ بالقَلَمِ**

«**من علَّم النَّاس**»: «مَنْ» اسمٌ موصولٌ بمعنى الَّذي، أي الَّذي علَّم النَّاس ما لا يعلمون، كما قال سبحانه: ﴿**وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ٧٨]، وقال جلَّ وعلا: ﴿**عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ٥]، وقال: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣]، فالعلم فضل الله ومنَّته.

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان» للعلَّامة ابن سعدي (٩٤٧).

وتعليمُه ـ سبحانه ـ شاملٌ لكلِّ علمٍ مِنْ علوم الدُّنيا وعلوم الآخرة، وحظُّ الكافر من ذلك ظاهرٌ مِنَ الحياة الدُّنيا، قال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧].

وأكرمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ المسلمين بخيرِ العلوم وأنفعِها ألا وهو العلم بما خُلِقوا لأجله، وأُوجِدوا لتحقيقِه على تفاوت بينهم في ذلك قوَّةً وضعفًا.

وقوله: «**وبالبَيَان أنطقَهُم والخطِّ بالقَلم**»؛ أي أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أنطق الإنسانَ بالبيان، كما قال تعالى: ﴿**ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ**﴾ [الرَّحمن: ١ ـ ٤]، فهو يتلفَّظ ويتكلَّم بلسانه ما يبينُ عمَّا في ضميره، والإبانةُ عمَّا في الضَّمير تكون باللِّسان وتكون ـ أيضًا ـ بالخطِّ بالقلم، كما قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ**﴾ [العلق: ٤]؛ ولهذا فإنَّ تعليمَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان ما لَمْ يعلم يشملُ التَّعليمَ النُّطقي والتَّعليمَ الخطِّي، والنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع بينهما بقوله: «**وبالبيان أنطقَهم والخطِّ بالقَلَمِ**».

وقوله: «**والخطِّ**» معطوف على «**بالبيَان**» أي أنطقهم بالبيان وأنطقهم بالخطِّ، فيَبينُ عمَّا في ضميره بالنُّطق بلسانه، ويَبينُ ـ أيضًا ـ عمَّا في ضميره بالخطِّ بقلمِه.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٤ - ثمَّ الصَّلاةُ عَلى المُخْتارِ أَكْرَمِ مَبْـ عُوثٍ بِخيْرِ هُـدًى في أفـضَلِ الأُمَـمِ**

عطف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ على الحمد والثَّناء على الله؛ جمعًا في صدر نظمِه بين الحمد لله، والصَّلاة على رسولِ الله ﷺ.

وصلاتُنا على النَّبيِّ المختار ﷺ هي ـ كما قال ابن القيِّم في كتابه «جلاء الأفهام»[1] ـ: «الطَّلبُ منَ الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناءٌ عليه، وإظهارٌ لفضله وشرفه، وإرادةُ تكريمه وتقريبه، فهي تتضمَّن الخبر والطَّلبَ، وسُمِّي هذا السُّؤال والدُّعاء منَّا نحن «صلاةً عليه» لوجهين:

أحدهما: أنَّه يتضمَّن ثناء المصلِّي عليه، والإشادة بذكر شرفه وفضله، والإرادة والمحبَّة لذلك من الله تعالى، فقد تضمَّنت الخبرَ والطَّلبَ.

والوجه الثَّاني: أنَّ ذلك سمِّي منَّا صلاةً؛ لسؤالنا من الله أن يصلِّيَ عليه، فصلاةُ الله عليه ثناؤُه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه سؤالنا اللهَ تعالى أن يفعل ذلك به» انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: «**على المختَار**»؛ أي محمَّد ﷺ خاتم النَّبيِّين، و«المختارُ» هو مِنْ أوصافه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ومعناه: المصطفى والمجتبى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [الحج: ٧٥].

وقوله: «**أكرَمِ مبعوثٍ**»، هذا وصفٌ له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فالنَّبيُّ ﷺ أكرمُ مبعوثٍ، أي أفضلُ رسولٍ أُرسِل، و«المبعوث»: المرسَل، وقد صحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[2].

---

(١) (ص٢٦٢ ـ ٢٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ورواه الإمام أحمد (١٠٩٨٧)، والتِّرمذي (٣٦١٥) وصحَّحه، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**».

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**بِخَيْرِ هُدًى**»؛ أي بأفضل هدًى، وقد كان ﷺ في كلِّ جمعةٍ إذا خطب النَّاس يقول: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرَ الهدى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»[1].

فهو ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ المبعوث بخير هدًى.

وقولُه: «**في أفضَلِ الأُمَم**»؛ أي أمَّة محمَّد ﷺ، وهي أفضل أمم النَّبيِّين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد جاء في «مسند الإمام أحمد» رَحِمَهُ اللهُ بسندٍ حسن، عن حكيم بن معاوية عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أَنْتُمْ توفونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله تبَارَكَ وَتَعَالَى**»[2].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم ومنازلهم في الجنَّة ومقاماتهم في الموقف»[3].

وقول الله جلَّ وعلا: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أحمد برقم (٢٠٠١٥)، والتِّرمذي (٣٠٠١) وحسَّنه، وابن ماجه (٤٢٨٨) بلفظ: «**إنَّكم تتمُّون سبعين أمَّة ...**»، وحسَّنه الشَّيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٦٢٨٥).

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٤٥).

﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، دالٌّ على خيريَّة هذه الأمَّة من وجوه:

◊ من جهة كمال إيمانهم بالله.

◊ ومن جهة أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

◊ ومن جهة كونهم خيرَ النَّاس للنَّاس.

وهذا المعنى استظهره بعضُ الصَّحابة من الآية؛ كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال في معنى الآية: «خير النَّاس للنَّاس، تأتون بهم في السَّلاسل في أعناقهم حتَّى يدخلوا الإسلام»(١)، وكذا قال غير واحد من السَّلف.

◊ ومن وجوه خيريَّة هذه الأمَّة: أنَّها أكثر الأمم استجابةً لنبيِّها، كما في الحديث عنه ﷺ أنَّه قال: «**أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٢).

◊ ومن وجوه خيريَّتها: أنَّها أكثر الأمم دخولًا للجنَّة، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، قلنا: نعم، قال: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، قلنا: نعم، قال: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، قلنا: نعم، قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ**

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٥٧).

(٢) رواه مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه برقم (١٩٦).

الأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ» متفق عليه(١).

* وقول النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٥- والآلِ والصَّحْبِ والأتْباعِ قاطِبَةً والتَّـــابِعينَ بإحْـــسانٍ لِـــنَهْجِهِمِ**

قوله: «**والآل**» معطوفة على «**المختار**»، أي: والصَّلاة على الآل والصَّحب والأتباع.

والمراد بـ«**الآل**» هنا: آل النَّبيِّ ﷺ، وهم الَّذين حُرِّمت عليهم الصَّدقة، وهم أقاربُه من جدِّه الأقرب عبد المطَّلب، وذرِّيَّتُه ﷺ، ومن آله ـ أيضًا ـ زوجاته أمَّهات المؤمنين كما يدلُّ لذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٣]، وجاء في «الصَّحيحين» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالت: «ما شَبع آلُ محمَّدٍ ﷺ من خُبْزِ بُرٍّ مَأْدُومٍ ثلاثةَ أيَّام حتَّى لَحِقَ بالله»(٢).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والصَّحب**»؛ أي أصحاب النَّبيِّ ﷺ، وهم الَّذين أكرمهم الله بلقاء النَّبيِّ ﷺ والإيمان به وماتوا على ذلك.

(١) رواه البخاري برقم (٦٥٢٨)، ومسلم برقم (٢٢١).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٤٢٣)، ومسلم برقم (٢٩٧٠).

وقوله: «**والأتباع قاطبةً**» أي الَّذين لقوا أصحابَ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه عطفهم عليهم.

وقوله: «**والتَّابعين بإحسان لنهجِهم**»، والمراد بـ«**التَّابعين بإحسان**»: مَنْ أخذوا عن الأتباع إلى قيام السَّاعة، فقد قال الله جلَّ وعلا: ﴿**وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ**﴾ [التوبة: ١٠٠].

قوله: «**لنهجِهمِ**»؛ أي ساروا على النَّهج الَّذي كانوا عليه.

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٦-ما لاحَ نَجْمٌ وما شمْسُ الضُّحى طَلَعَتْ وعَدُّ أنْفاسِ ما في الكوْنِ مِن نَسَمِ**

قوله: «**ما لاح**»؛ أي ما ظهر وطلع.

قوله: «**وما شمسُ الضُّحى طلَعت**»؛ خصَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شمسَ الضُّحى بالذِّكر لأنَّها في ذلك الوقت تشتدُّ إضاءتها، وكثيرًا ما يخصُّها الشُّعراء بالذِّكر.

«**وعدُّ أنفاس**»؛ أي وعَدَدُ أنفاس ما في الكون من نسم، سواء أنفاس النَّاس أو غيرهم.

قوله: «**من نَسَم**» جمع نسمة، والمراد كلّ ذي روح.

وقصد النَّاظم بذكر هذه الأمور الصَّلاة عليه ﷺ بالكثرة، صلاةً كثيرةً مَزيدةً إلى يوم الدِّين، فصلوات الله وسلامه عليه، وفاتَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا وفي خاتمةِ النَّظم ذكر السَّلام على النَّبيِّ ﷺ عقب الصَّلاة عليه ولعلَّ ذلك وقع سهوًا.

* قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧- وبَعْدُ مَنْ يُرِدِ اللهُ العَظِيمُ بِـهِ    خـيْرًا يُفَقِّهُـهُ[١] فِي دِينـهِ القِـيَمِ

قوله: «**وبعدُ**»؛ هي كلمة يُؤتى بها للانتقال من أسلوبٍ إلى آخر، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يأتي بها في خُطبه ومُكاتباته، ومعناها: «مهما يكن من شيء بعد».

فلمَّا أنهى الحمدَ والثَّناءَ والصَّلاةَ على رسول الله ﷺ، وعلى الصَّحب والآل، قال: «**وبعدُ**» مُشعرًا بذلك إرادته الشُّروع في المقصود.

وشرع رَحِمَهُ اللَّهُ بدأً من هذا البيت بذكر فضائل العلم، مشيرًا إلى الدَّلائل على مكانتِه العليَّة، ومنزلتِه العظيمة، وآثارِه المباركة، وعوائدِه الحميدة.

وقوله: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ العظيمُ بِهِ    خيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي دِينِهِ القِيَمِ**»

يدلُّ عليه ما ورد في «الصَّحيحين» من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[٢]، والمراد بـ«الدِّين»؛ أي أصوله وفروعه.

والفقهُ في الدِّين يشمل الفقهَ في أصول الدِّين، وهو ما يسمِّيه بعض أهل

(١) حُرِّكت الهاء بالضّم للضّرورة الشعرية مراعاة للوزن العَروضي، والأصل أنّها بسكون الهاء لوقوعها في جواب الشرط وجزائه.

(٢) رواه البخاري برقم (٧١)، ومسلم برقم (١٠٣٧).

العلم «الفقه الأكبر»[1] وهو «العقيدة»، ويشمل ـ أيضًا ـ الأحكام وتفاصيل الشَّرائع وما يتعلَّق بالمعاملات، وأيضًا الآداب والأخلاق، فكلُّ ذلك يتناوله قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».

والفقه: الفهم، وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**في دينِه القِيَم**» هكذا تُضبط «القِيَم» بتخفيف الياء كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ [الأنعام: ١٦١]، والمراد بـ«القِيَم» أي المستقيم الَّذي لا اعوجاجَ فيه.

* **وقوله** رَحِمَهُ اللهُ:

**٨- وحَثَّ ربِّي وحَضَّ المؤمنينَ عَلى    تَفَقُّـهِ الـدِّينِ مَـعْ إنْـذارِ قَـوْمِهِمِ**

«حضَّ» بمعنى حثَّ، أي حثَّهم على أن يتفقَّهوا في الدِّين، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ**﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد جمعت الآية أمرين أشار إليهما النَّاظم:

الأول: الحثُّ على الفقه في الدِّين في قوله: ﴿**لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ**﴾.

---

(١) قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٣٠٧): «ويسمِّيها بعضهم «الفقه الأكبر». وهذا نظير تسمية سائر المصنِّفين في هذا الباب «كتاب السُّنَّة»؛ كـ«السُّنَّة» لعبد الله بن أحمد، والخلَّال، والطَّبراني، و«السُّنَّة» للجعفي، وللأثرم، ولخلقٍ كثيرٍ صنَّفوا في هذه الأبواب، وسمَّوا ذلك كتب السُّنَّة؛ ليميِّزوا بين عقيدةِ أهل السُّنَّة وعقيدةِ أهلِ البدعة». اهـ

وقد ألَّف الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ كتابًا في هذا الباب سمَّاه «الفقه الأكبر».

الثاني: الحثُّ على إنذار القوم في قوله: ﴿**وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ**﴾.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٩- وامْتَنَّ رَبِّي عَلى كلِّ العِبادِ وكُلْـ ... لِ الرُّسْلِ بالعِلْمِ فاذْكُرْ أكْبَرَ النِّعَمِ**

«**وامْتَنَّ رَبِّي**»؛ أي منَّ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ على العباد وتفضَّل ـ ومن أسمائه «المنَّان» ـ «**بالعلم**»؛ فالعلم منَّته ـ جلَّ وعلا ـ على عباده.

وقوله: «**عَلى كلِّ العِبادِ**» دليله قوله تعالى: ﴿**عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ٥].

وقوله: «**وكلِّ الرُّسْل**» دليله قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣].

وقوله: «**فاذْكرْ أكبَرَ النِّعَمِ**»؛ أي كُنْ على ذكر لأكبر نعمةٍ أنعمَ الله بها على عباده أن فقَّههم ورزقَهم البصيرةَ في دينهم.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٠- يَكفِيكَ في ذاكَ أُولَى سُورَةٍ نَزَلَتْ ... عَلى نَبِيِّكَ أعْني سورَةَ القَلَمِ**

«**يكفيكَ في ذاكَ**»؛ أي في بيان شرَف العلمِ وفضلِه، وأنَّه من أعظم منن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده به «**أولى سُورةٍ نزلَتْ**»؛ يعني «سورة العلق» ﴿**ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، فهي أوَّل سورة في القرآن نزولًا على نبيِّنا ﷺ(١).

---

(١) وذلك في حديث «بدء الوحي» الَّذي رواه البخاري برقم (٤٩٥٣)، ومسلم برقم (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وقوله: «**أعْني سورَة القَلَمِ**» أي: السُّورة الَّتي ذُكر فيها القلم، وإلَّا فإنَّ السُّورة الَّتي تُعرف بـ القلم هي سورة ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ .

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١١- كَذاكَ فِي عِدَّةِ الآلاءِ قدَّمَهُ ذِكْرًا وقَدَّمَهُ في سُورَةِ النِّعَمِ**

«**كذاك**»؛ أي إضافةً إلى ما سبق؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قدَّم العلمَ والمنَّةَ به «**في عِدَّةِ الآلاء**»؛ مشيرًا إلى سورة الرَّحمن الَّتي عدَّد ـ سبحانه وتعالى ـ فيها على عباده آلاءَه ونعمَه، وقد تكرَّر فيها قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرَّة.

وبدأ سبحانه ذكر النِّعم في هذه السُّورة بنعمة العلم فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

«**وقدَّمَهُ في سُورة النِّعَم**»؛ أي «سورة النَّحل»، ويسمِّيها أهلُ العلم: «سورة النِّعم»؛ لكثرة ما عدَّد الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها مِنْ نعمه على عباده إلى أن ختم ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل: ٨١][1].

(١) أورد ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٧٠٦) عن قتادة قولَه في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾: «هذه السُّورة تسمَّى سورة النِّعم»؛ وعن عليِّ بن زيد قال: كان يُقال لسورة النَّحل: «سورة النِّعم»؛ لكثرة تَعداد النِّعم فيها»، انظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦)، و«الدُّرّ المنثور» (٥/ ١٠٧).

وتقديمه سبحانه العلم في هذه السُّورة هو قوله في أوَّلها: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ١ ـ ٢]، والمراد بـ«الرُّوح» هو الوحيُ، و«الوحيُ» هو العلمُ النَّافعُ الَّذي فيه بيان دين الله عَزَّوَجَلَّ أصولِه وفروعِه، وجاء ـ أيضًا ـ ذكر نعمة العلم في مواضع من هذه السُّورة؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النَّحل: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٢- ومَيَّزَ اللهُ حَتَّى في الجـوارِحِ مَـا     مِنْهـا يُعَلَّـمُ عـنْ بـاغٍ ومُغْتَـشِمِ**

«**وميَّز الله**» أي: بالعلم. «**حتَّى في الجوارح**» فليست سواء، بل بينها تمايزٌ.

والمراد بـ«**الجوارح**»: الكلاب والصُّقور ونحوهما ممَّا يصيد بنابه أو بمخلبه، فالله ـ جلَّ وعلا ـ ميَّز في القرآن ما كان منها معلَّمًا، وما كان منها غير معلَّم، كما في قوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ٤]، فالكلبُ المعلَّم إذا صادَ جاز أكل ما أمسكَ علينا من الصَّيد، وغيرُ المعلَّم إذا صاد لا يحلُّ صيْدُه.

وقوله: «**ما منها يُعلَّم عن باغٍ ومغتَشِم**»؛ أي مُيِّز الَّذي يُعلَّم منها عن

الباغي والمغتشِم، و«الباغي» أي المعتدي، و«المغتشم» هو الَّذي يأتي بالأمور خبطًا من غير فِكْرٍ ولا نَظَرٍ.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٣- وذمَّ ربِّي تعالَى الجاهِلِينَ بِهِ أَشَدَّ ذمٍّ فَهُمْ أدْنى مِنَ البَهَمِ**

وذمَّ الله تعالى الجاهلين بهذا الدِّين أشدَّ ذمٍّ، وجعل منزلتَهم أدنى من بهيمة الأنعام، و«**البَهَم**»: جمع بهيمة، يُشير بذلك إلى قوله جلَّ وعلا: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٩].

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٤- وليْسَ غِبْطَةٌ الا في اثْنَتَيْنِ هُما الْـ إحْسانُ في المالِ أو في العِلْمِ والحِكَمِ**

أي لا يُغْبَط النَّاس إلَّا على أمرين: الإحسان ببذل المال، والإحسان ببذل العلم، كما في «الصَّحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**»[1].

والمراد بالحسد في الحديث «**الغِبْطَة**» وهي أن تتمنَّى أن يكونَ لك مثلُ ما

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣)، ومسلم برقم (٨١٦).

عند الغير من النِّعم[1]، أمَّا كره النِّعمة الَّتي أنعم الله بها على الغير أو تمنِّي زوالها أو السعي في زوالها؛ فهذا حسدٌ مذموم، وهو محرَّم.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٥- ومِنْ صِفاتِ أُولِي الإيمانِ نَهْمَتُهُمْ فِي العِلْمِ حتى اللَّقَى أَغْبِطْ بِذِي النَّهَمِ**

أي من أوصاف وزينة وحِلية أهل الإيمان شدَّة حرصِهم على العلم وطلبِه وتحصيلِه؛ لأنَّهم هم الَّذين عرفوا قدر العلم ومكانته وفضله، فنَهمَتُم في العلم شديدةٌ، ورغبتهم فيه قويَّةٌ أكيدةٌ.

«**حتَّى اللِّقى**»؛ أي نهمتم فيه مستمرَّةٌ ودائمةٌ إلى الموت، وَرُئِيَ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر حياته ومعه المحابر والأقلام! قيل: إلى متى تطلب العلمَ؟! قال: «معي المحبَرة إلى المقبرَة»[2].

«**أَغْبِط**»؛ أي اجعل هذا الأمر أعظم ما يغبط النَّاس عليه، ونظير ذلك ما رُوي في الحديث عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: «**المُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ**»[3].

---

(١) يقال: غَبَطْتُ الرَّجل أَغْبِطُه غَبْطًا؛ إِذا اشتهيْتَ أَن يكون لك مثلُ ما لَه وأَن لا يَزول عنه ما هو فيه. «لسان العرب» (٧/ ٣٨٥).

(٢) انظر: «الآداب الشَّرعيَّة» (٢/ ٥٤) لابن مفلح.

(٣) رواه التِّرمذي (٢٣٩٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصحَّحه الشَّيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٧٧٦١) وغيره.

«**بذي النَّهَمِ**»؛ أي أصحاب النَّهمة الشَّديدة والحرص على العلم وتحصيله، وفي الحديث «**مَنْهُومَان لا يشبَعَان: طالب علمٍ، وطالب دنيَا**»[1]

* **قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٦- العِلْمُ أعْلَى وأحْلى ما لَـهُ اسْـتَمَعَتْ أُذْنٌ وأعْـرَبَ عنـهُ نـاطِقٌ بِفَـمِ**

يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى علوِّ شأن العلم، وحلاوة طعمِه ومذاقِه، وأنَّه أعلى شيءٍ اعتنى به العبدُ وأحلى شيءٍ استمعتْ له أذنٌ، ولكنَّ هذه الحلاوةَ لا يحظى بها قلبٌ مريض، فالقلب المريض لا يذوق هذه الحلاوة، ولا يشعُر بطعمِها، بل ينفر قلبُه من العلم الَّذي هو أحلى شيء، وأطيب شيء، وأجمل شيء.

«**وأعربَ عنه ناطقٌ بفَمِ**» أي: وهو أرفعُ شيء وأحلى شيء نطق به المرء بفمِه.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٧- العِلْمُ غايَتُهُ القُصْوَى ورُتْبَتُهُ الْـ عَلْياءُ فاسْعَوا إليهِ يَـا أُولِي الهِمَـمِ**

في هذا إشارةٌ إلى غاية العلم الشَّرعي الشَّريفة، وأنَّه يبحث في أعظم غايةٍ، وأجلِّ مقصودٍ، وأشرفِ مرادٍ، ألا وهو ما خُلق العباد لأجله وأوجدوا

(١) رواه البزَّار (٤٨٨٠)، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (١١٩٠٥)، و«الأوسط» (٥٦٧٠) من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. ولكن له شواهد كثيرة أورد بعضها السَّخاويُّ في «المقاصد الحسنة» (١٢٠٦) وقال: «وإن كانت مفرداتها ضعيفة بمجموعها تقوى»؛ ولذلك صحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٠٠).

لتحقيقه، وهذا هو أعلى الأمور وأرفعها، فله ولأهله العلوُّ والرِّفعة، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله: «**فاسعوا**»؛ لَمَّا ذكر هذه الفضائل للعلم حثَّ على السَّعي إليه بالاجتهاد في طلبه وتحصيلِه ونيلِه.

وقوله: «**يا أولي الهمم**» أي: العالية؛ أمَّا من كانت همَّته دَنِيَّة، فهو عن ذاك بعيد، وعنه بمعزَل.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٨- العِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلوبٍ وَطالِبُهُ ... للهِ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلى قَدَمِ**

«**العِلمُ أَشْرَفُ مَطْلُوب**»؛ المراد بـ«العلم»: العلم الشَّرعي، وهو أشرف مطلوبٍ يسعى الإنسان في نيله وطلبه وتحصيله.

فبالعلم يُعرَفُ التَّوحيد والإيمان، وبه تُعرف أصولُ الإيمان وشرائعُ الإسلام، وبه تُعرف الأخلاقُ الفاضلة والآدابُ الكاملة، وبه يتمايز النَّاسُ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال أيضًا: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: «**وَطَالِبُهُ لله أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلى قَدَم**»؛ أي الَّذي يطلبُ العلمَ مخلصًا لله يبتغي به وجهَ الله أكرم من يمشي على قَدم، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

وهذا فيه شرف أهل العلم وفضلهم وعلوُّ مكانتهم.

وأمَّا الَّذي يطلبه لِيُقَال عالمٌ أو لِيُمَارِيَ به السُّفهاء أو ليصرف به وجوه النَّاس إليه أو غيرِ ذلك؛ فإنَّه من أوَّل من تُسَعَّر بهم النَّار يوم القيامة[1].

والعلمُ عبادةٌ، والعبادة شرطُ قَبولها الإخلاص لله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فمن طلبَ العلمَ يبتغي وجهَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قبل منه طلبه للعلم وأثابه عليه عظيم الثَّواب، ولهذا ذكر الشَّيخُ هذا القيدَ فقال: «لله» أي مخلِصًا له، ومن طلبه لغير ذلك لم يقبل منه، وفي الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[2].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٩- العِلْمُ نورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِـهِ ... أهْـلُ الـسَّعادَةِ والجُهَّـالُ فِي الظُّلَـمِ**

**٢٠- الْعِلْـمُ أعْـلَى حَيـاةٍ للعِبـادِ كَـما ... أهْــلُ الجَهالَــةِ أمْــواتٌ بِجَهْلِهِــمِ**

ذكر النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ في هذين البيتين فضلَ العلم من جهتين: من جهةِ أنَّه نورٌ مبين، ومن جهة أنَّه حياةٌ للقلوب.

فالبيت الأوَّل ذكَر فيه فضلَ العلم من جهة أنَّه نور، قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢]، فالعلم نورٌ لصاحبه، وضياءٌ له، يمشي به

(١) وسيأتي بيان هذا المعنى في كلام النَّاظم قريبًا إن شاء الله.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

في الظُّلمات؛ ولهذا فإنَّ مكانة العالم في النَّاس مكانةٌ عَلِيَّةٌ.

وقد ضرب الإمام الآجُري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «أخلاق العلماء» مثلًا عجيبًا يبيِّن فيه مكانةَ العالم في مجتمعه وبين النَّاس، قال ما نصُّه: «فما ظنُّكم ـ رحمكم الله ـ بطريقٍ فيه آفاتٌ كثيرة، ويحتاج النَّاس إلى سلوكه في ليلةٍ ظَلْمَاء، فإنْ لم يكن فيه مصباح وإلَّا تحيَّروا، فقيَّض الله لهم فيه مصابيح تُضيء لهم؛ فسلكوه على السَّلامة والعافية، ثمَّ جاءت طبقات من النَّاس لابدَّ لهم من السُّلوك فيه فسلكوا، فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح، فبقوا في الظُّلمة، فما ظنُّكم بهم؟!

هكذا العلماء في النَّاس، لا يعلم كثيرٌ من النَّاس كيف أداء الفرائض وكيف اجتناب المحارم، ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبده به خلقُه إلَّا ببقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحيَّر النَّاس، ودَرَسَ العلمُ بموتهم، وظهر الجهلُ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون؛ مصيبة ما أعظمها على المسلمين»[١] انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لولا العلماء لصار النَّاسُ مثلَ البهائم»[٢]، كيف يعرف النَّاسُ الدِّينَ والأحكامَ والحلالَ والحرامَ والسُّنَّةَ والبدعةَ والإيمانَ والكفرَ لولا أن قيَّض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم علماءَ يبيِّنون لهم دينَ الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «**أهل السَّعادة**»؛ فيه أنَّ السَّعادة مرتبطةٌ بالعلم، فأهل السَّعادة يستضيء لهم الطَّريق بنور العلم وضيائه.

---

(١) «أخلاق العلماء» (ص٢٨).

(٢) انظر: «التَّبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٢٠٣).

وقوله: «**والجُهَّالُ فِي الظُّلَمِ**» أي أنَّ الجهَّال الَّذين لا علم لهم يمشون في حُلْكَة الجهل وظلمائه.

وفرقٌ بين من يمشي في نور وضياء، وبين من يمشي في ظلمة ظلماء، فقد جاء في «الجامع لأخلاق الرَّاوي»[1] للخطيب بسنده عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: «إنَّ العلمَ ليس بكثرة الرِّواية، إنَّما العلم نورٌ يجعله الله في القلوب».

ولمَّا جلس الإمام الشَّافعي بين يدي مالك وقرأ عليه؛ أعجبه ما رأى من وُفُور فطنتِهِ وتوقُّد ذكائه وكمال فهمِهِ، فقال: «إنِّي أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظُلمة المعصية»[2].

وجاء في «ديوان[3] الإمام الشَّافعي» رَحِمَهُ اللَّهُ قوله:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأنَّ العلمَ نورٌ ... ونور الله لا يُهدى لعاصي

ولابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ كلام عظيم في هذا الباب في مقدِّمة كتابه «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة»، منه قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ القلبَ الحيَّ المستنيرَ هو الَّذي عقل عن الله وفهِمَ عنه وأذعَن وانقادَ لتوحيده، ومتابعة ما بعث به رسولُه ﷺ، والقلب الميِّت المظلمُ الَّذي لم يُعقل عن الله ولا انقاد لما بُعث به رسول الله ﷺ؛

---

(١) (٢/ ١٧٤).

(٢) راجع «إعلام الموقِّعين» (٤/ ٢٨٤)، و«الجواب الكافي» (٣٤) لابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) (ص: ٧٠).

ولهذا يصفُ ـ سبحانه ـ هذا الضَّرب من النَّاس بأنَّهم أمواتٌ غير أحياء، وبأنَّهم في الظُّلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظُّلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم، فقلوبُهم مظلمةٌ ترى الحقَّ في صورة الباطل، والباطلَ في صورة الحقِّ، وأعمالُهم مظلمةٌ، وأقوالُهم مظلمةٌ، وأحوالُهم كلُّها مظلمةٌ، وقبورُهم ممتلئةٌ عليهم ظلمةً، وإذا قُسمت الأنوار دونَ الجسر للعبور عليه بقوْا في الظُّلمات» إلى آخر كلامه رَحِمَهُ اللهُ[1].

والبيت الثَّاني ذكر فيه فضل العلم من جهة أنَّه حياة القلوب؛ أي أنَّ حياةَ العبد الحقيقيَّة إنَّما تكون بالعلم، قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ** ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالعلم أعلى حياة للعباد؛ لأنَّها الحياة الحقيقيَّة.

وقال تعالى: ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي أحييناه بالعلم والإيمان والهدى، وطاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولهذا يُشَبَّه الوحيُ في إحيائه للقلوب بالماء في إحيائه للنَّبات والأرض؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾** ﴾ [الحديد: ١٦ ـ ١٧]، أي كما أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يحيي الأرضَ بعد موتها بالماء؛ فإنَّه ـ سبحانه

---

(١) «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» (٧).

وتعالى ـ يحيي القلوبَ بعد موتها بالوحي، فأهل العلم أحياءٌ بالعلم.

وقوله: «**وأهلُ الجَهَالة أَمْوَاتٌ بجَهْلِهِم**» هذا فيه أنَّ من أعرض عن الوحي ولم يرفع به رأسًا فهو في عِداد الأموات، قال تعالى: ﴿ **أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾ [النحل: ٢١]، قال تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ**﴾ [فاطر: ٢٢]، والحياة الَّتي يحيونها ليست حقيقيَّةً، بل هي حياة بهيميَّةٌ، فالأنعام تأكل وتشرب وتلعب وتذهب وتجيء وتنام وتقوم وتقعد.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢١- لا سَمْعَ لا عَقْلَ بَلْ لا يُبْصِرونَ وفِي السْـ ـسَـعِيرِ مُعْـتَرِفٌ كُـلٌّ بِـذَنْبِهِمِ**

وهذا حال ومآل من قال عنهم في البيت الَّذي قبله: «**أهل الجهالة أمواتٌ بجهلِهم**» أي لا سمع لهم يسمعون به، ولا عقل يعقلون به، ولا بصر يبصرون به، وسوف يعترفون بذلك يوم القيامة إذا دخلُوا نارَ جهنَّم اعترافًا لا يجدي ولا ينفع، يشير النَّاظم إلى قول الله سبحانه: ﴿**وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠ـ ١١]، وأيضًا في هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٧١].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٢- فالجَهْلُ أَصْلُ ضَـلالِ الخَلْـقِ قاطِبَـةً وأصْـلُ شِـقْوَتِهِمْ طُـرًّا وظُلْمِهِـمِ**

٢٣- والعِلْمُ أَصْلُ هُـداهُمْ مَـعْ سَـعادَتِهِمْ     فَـلا يَـضِلُّ ولا يَـشْقى ذَوُو الحِكَـمِ
٢٤- والخَوفُ بالجهْلِ والحُزْنُ الطّويـلُ بِـهِ     وعَـن أُولي العِلْـمِ مَنْفِيَّـانِ فَاعْتَـصِمِ

قوله: «**فالجهلُ أصْلُ ضَلالِ الخَلْقِ قاطِبَةً**»؛ وهذا أمرٌ واضح بيِّن، فأصلُ كلِّ ضلال وُجد في كلِّ إنسان هو الجهل بالله وبدينه ووعيده وعقابه والجنَّة والنَّار، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ**﴾ [النساء: ١٧]، قال قتادة: «أجمعَ أصحابُ رسول الله أنَّ كلَّ ما عُصي الله به فهو جهالةٌ».

نقله ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين»[١]، ثمَّ قال: «وسُمِّي عدمُ مراعاة العلم جهلًا إمَّا لأنَّه لم ينتفع به فنُزِّل منزلةَ الجاهل، وإمَّا لجهله بسُوء ما تجني عواقب فعله».

وقوله: «**وأصلُ شِقْوَتِهم طُرًّا وظُلْمِهِم**»؛ أي: والجهل أصل شِقوة وظلم جميع الخلق، وأساس كلِّ بليَّة وشرٍّ، وقوله: «**طُرًّا**»أي جيمعًا[٢].

وقوله: «**والعلمُ أصلُ هُداهُمْ مع سَعَادَتِهِم**»؛ فأصلُ الهدى وأصلُ السَّعادة: العلمُ.

وقوله: «**فلا يضلُّ ولا يشقَى ذَوُو الحِكَم**»؛ فقوله: «**فلا يضلُّ**» متعلِّقٌ بقوله: «**أصلُ هداهُم**»، وقوله: «**ولا يَشْقَى**» متعلِّق بقوله: «**مع سعادتهم**» أي أهلُ العلم بالله وبكتابه منفيٌّ عنهم الضَّلالُ والشَّقاءُ.

ونفيُ الضَّلال فيه ثبوتُ الهداية، ونفيُ الشَّقاء فيه ثبوتُ السَّعادة، فأصل

---

(١) (١/ ٤٧٠).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة (طرر).

الهدى والسَّعادة هو العلمُ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فنفى عن متَّبع هُداه أمرين: الضَّلال والشَّقاء، قال عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «تكفَّل الله لمن قرأ القرآنَ وعمل بما فيه أن لا يضِلَّ في الدُّنيا ولا يشقَى في الآخرة، ثمَّ قرأ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]»[(١)].

قال: «والآيةُ نفَت مسمَّى الضَّلال والشَّقاء عن متَّبعِ الهدى مطلقًا، فاقتضَت الآية أنَّه لا يضلُّ في الدُّنيا ولا يشقى، ولا يضلُّ في الآخرة ولا يشقى فيها؛ فإنَّ المراتب أربعةٌ: هدًى وشقاوةٌ في الدُّنيا، وهدًى وشقاوةٌ في الآخرة، لكن ذكر ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في كلِّ دار أظهرَ مرتَبتَيْها»[(٢)].

وقوله: «**ذَوو الحِكم**»؛ أي ذوو العلوم النَّافعة المستمَدَّة من كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ.

وقوله: «**والخوفُ بالجهل والحزنُ الطَّويل به**»؛ أي يحصُل الخوفُ والحزنُ بسبب الجهلِ؛ فممَّا يثمرُه الجهلُ في الجاهل وممَّا يترتَّب على وجود الجهلِ في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (٧/ ١٣٦) من طريق عكرمة عنه، لكن قال: «ضَمِن» بدل «تكفَّل»؛ وجاء من طرق أخرى عن ابن عبَّاس بنحوه. انظر: «الدُّرّ المنثور» (١٠/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

(٢) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٣٤ـ٣٥).

الإنسان الخوفَ والحزنَ الطَّويل؛ والخوفُ والحزنُ إذا اجتمعا في الذِّكر؛ فإنَّ الحزنَ يتعلَّق بما فات، والخوفَ يتعلَّق بما هو آت، فصاحب الجهل في أحزان دائمة على ما مضى؛ لأنَّها أيَّام وسنون متراكمة في الجهل والضَّلال، وهو كذلك في خوفٍ ممَّا هو آت.

وهذان منتفيان عن أولي العلم، يدلُّ لذلك نصوص؛ منها قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وهذه الآية صريحة في المعنى الَّذي قرَّره رَحِمَهُ اللَّهُ.

وممَّا هو مشتملٌ على تقرير هذا المعنى أيضًا قولُه تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

«**فاعتصِم**»؛ أي اعتصِم بالعلم واستمسِك به وحافِظ عليه؛ تَسْلَمْ من مَغَبَّة الجهل وسُوء عاقبته، وتظفر بثمرة العلم، وحُسن نتيجتِه.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٥- العِلْـمُ واللهِ مِـيراثُ النُّبُـوَّةِ لا     مــيراثَ يُـشْبِهُهُ طُـوبَى لِمُقْتَـسِمِ**

«**العلمُ والله**» هذا قَسَمٌ، وفيه الحلفُ على مكانة العلم اهتمامًا بالمقام وتأكيدًا.

«**ميراث النُّبوَّة**»؛ كما قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّما ورَّثُوا العِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

وقوله: «**لا مِيرَاثَ يُشْبِهُه**»؛ أي ليس هناك ميراثٌ ـ مهما كان من قُصُورٍ أو أموالٍ أو تجارات أومزارع أوغير ذلك ـ يشبهه.

«**طوبى لمقتسِمٍ**»؛ أي طوبى لمن أخذ قِسْمَه وحظَّه ونصيبَه من العلم: ﴿**طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ**﴾ [الرعد: ٢٩]، فـ«**طوبى**» قيل: هي الجنَّة، أو الثَّواب العظيم، وقيل: شجرة في الجنَّة يسير في ظلِّها الرَّاكب مئة عام(٢).

ومن لطائف ما يُذكَر هنا: ما رواه الطَّبراني في «الأوسط»(٣) بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه مرَّ بسوق المدينة فوقف عليها فقال: «يا أهل السُّوق! ما أعجزكم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟! قال: ذاك ميراثُ رسول الله يُقسَم وأنتم ها هنا لا تذهبون فتأخذون نصيبَكم منه! قالوا: وأينَ هو؟! قال: في المسجد، فخرجوا سِراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتَّى رجعوا؛ فقال

---

(١) رواه أحمد برقم (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والتِّرمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجة (٢٢٣)، وابن حبَّان في «صحيحه» (٨٨)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (١٦٩٧) من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» برقم: (٦٢٩٧).

(٢) وفي معناها أقوال كثيرة ذكرها ابن كثير في تفسيره لسورة الرَّعد؛ فلتنظر (٢/ ٦٢٣).

(٣) برقم (١٤٢٩) وحسَّنه الألباني رحمه الله في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» رقم (٨٣).

لهم: ما لكم؟! قالوا: يا أبا هريرة! فقد أتينا المسجدَ فدخلنا فلم نَرَ فيه شيئًا يُقسَم! فقال لهم أبو هريرة: أمَا رأيتم في المسجد أحدًا؟! قالوا: بلى رأينا قومًا يصلُّون، وقومًا يقرأون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلالَ والحرامَ، فقال لهم أبو هريرة: وَيْحَكُم فذاك ميراثُ محمَّد».

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٦- لأَنَّـهُ إرْثُ حَـقٍّ دائِـمٍ أبَـدًا   ومـا سِـواهُ إلى الإِفْنَـاءِ والعَـدَمِ**

هذا تعليلٌ لِما سبق، أي لكونه إرثَ حقٍّ دائم أبدًا، فلا شيء يشبهه من الأشياء الموروثة، فهو إرثُ حقٍّ، وأيضًا إرثٌ دائمٌ أبدًا، يبقى مع الإنسان في الدُّنيا والآخرة، وبه يدخل الجنَّة، بل بدون هذا الإرث وبانتفائه مطلقًا ليس هناك دخول للجنَّة.

«**وما سواه**»؛ أي من أنواع الإرث مآله ومصيرُه «**إلى الإِفْنَاءِ والعَدَمِ**»؛ فإنْ كان الإنسانُ قد ورث مالًا فكما أنَّه ورثه من غيره؛ فإنَّ غيره سيرثه منه، كما قال الشَّاعر:

أموالُنـا لِـذَوِي المـيرَاثِ نَجْمَعُهـا   ودُورُنَـا لِخَـرَابِ الـدَّهْرِ نَبْنِيهـا

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٧- ومنْه إرْثُ سُليْمانَ النُّبُـوَّةَ والْـ   ـفَضْلَ المُبِـينَ فـمَا أوْلاهُ بِـالنِّعَمِ**

«**ومنه**» أي من هذا الإرث «**إرثُ سليمانَ**» ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ «**النُّبوَّةَ والفضلَ المبينَ** »؛ يشير إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا**

ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النَّمل: ١٦]

أي ورث سليمانُ علمَ أبيه ونبوَّتِه، فانضمَّ علمُ أبيه إلى علمِه[1].

وقوله: «**فما أوْلاهُ بِالنِّعَمِ**» أي: أنَّ هذا أعظم النِّعم وأجلّ المننِ.

❊ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٨- كـذا دَعـا زَكَرِيَّـا ربَّـهُ بِـوَلِي ۝ أَلْآلِ[2] خَـوفَ المـوالِي مِـن وَرائِهِـمِ**

يشير إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾ [مريم: ٢ ـ ٦]، والمراد بـ«**الإرث**»: إرث العلمِ والنُّبوَّةِ.

قال ابنُ رجب: «إنَّما أُريدَ به ميراثُ العِلم والنُّبوَّة، لا المال؛ فإنَّ الأنبياء لا يجمعون مالًا يتركونَه»[3]، كما في «الصَّحيحين»[4] من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورَثُ، مَا تَرَكنا صَدَقَةٌ**».

وقوله: «**بولي الآلِ خَوفَ الموالِي مِن وَرائِهِمِ**» مقتبسٌ من قوله تعالى:

(١) انظر: «تفسير ابن سعدي» (ص٦٠٢).

(٢) بقطع الهمزة مراعاة للوزن العروضي.

(٣) «شرح حديث أبي الدَّرداء في فضل طلب العلم» (ص٥١).

(٤) البخاري (٤٢٤٠)، ومسلم (١٧٥٩).

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ قال ابن سعدي: «أي: وإنِّي خفتُ من يتولَّى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقومَ بدينِك حقَّ القيام، ولا يدعو عبادَك إليك، وظاهر هذا أنَّه لم ير فيهم أحدًا فيه لياقةٌ للإمامة في الدِّين، وهذا فيه شفقة زكريَّا عليه السَّلام ونصحه، وأنَّ طلبَه للولد ليس كطلب غيره، قصده مجرَّد المصلحة الدُّنيويَّة، وإنَّما قصده مصلحة الدِّين والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيتُه من البيوت المشهورة في الدِّين ومعدنَ الرِّسالة ومظنَّةً للخير، فدعا اللهَ أن يرزقَه ولدًا، يقوم بالدِّين من بعدِه»(١).

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٩- العِلْمُ مِيزانُ شَرْعِ اللهِ حيثُ بِهِ قِوامُـــهُ وبِـــدُونِ العِلْـــمِ لَمْ يَقُـــمِ**

أي بالعلم يوزنُ الشَّرع، ويُعرَفُ الحلالُ والحرامُ، وبه تُميَّز الأحكامُ، ويُعرف الحقُّ من الباطل، والهدى من الضَّلال؛ ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يقول كلَّ يوم بعد صلاة الصُّبح: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا صَالِحًا**»(٢)، وفي رواية: «**مُتَقَبَّلًا**».

فبدأ بالعلم النَّافع؛ لأنَّه الميزان الَّذي به يميِّز الإنسانُ بين الرِّزق الطَّيِّب والخبيث، وبين العمل الصَّالح والطَّالح، أمَّا إذا لم يكن مع الإنسان علمٌ نافعٌ؛

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٤٨٩ ـ ٤٩٠).

(٢) رواه أحمد برقم (٢٦٥٦٤)، وابن ماجة برقم (٩٢٥) من حديث أمِّ سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجة» (رقم:٧٥٣).

فكيف يميِّز بين الحلال والحرام، والطَّيِّب والخبيثِ؟!

ولهذا من لطيف ما يُذكر أنَّ محمَّد بن الحسن الشَّيباني ـ صاحب أبي حنيفة ـ رحمهما الله ـ قال له نَفَرٌ: ألِّف لنا كتابًا في الزُّهد، قال: قد ألَّفتُ كتابًا في البيوع[1].

يَقصِدُ إذا أردتَ أن تكون زاهدًا وَرِعًا؛ تعلَّمِ البيوعَ واعرف أحكامها، وميِّز بين ما أحلَّه الله وما حرَّمه، أمَّا من يشتري ويبيع ولا يسأل ولا يتعلَّم؛ من أين له الوَرَع؟! ومتى يكون ورعًا من لا علم له، ولا فقه له في دين الله سبحانه وتعالى.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٣٠- وكُلَّما ذُكِرَ السُّلطانُ في حُجَجٍ　　فالعِلْمُ لا سُلْطَةُ الأيْدِي لـمُحْتَكِمِ**

**٣١- فسُلطَةُ اليَدِ بالأبْدانِ قاصِرَةٌ　　تَكونُ بالعَدْلِ أوْ بالظُّلْمِ والغَشَمِ**

**٣٢- وسُلْطَةُ العِلْمِ تَنْقادُ القُلوبُ لَها　　إلَى الهُدَى وإلَى مَرْضاةِ رَبِّهِمِ**

جاء في آياتٍ عديدةٍ في القرآن ذكرُ السُّلطان، منها قوله تعالى: ﴿ **قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۢ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ** ﴾ [يونس: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ **مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ** ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ **أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ١٥٦**

(١) انظر: «المبسوط» للسَّرخسي (١٢/ ١٩٤).

﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦ ـ ١٥٧] والمراد به في جميع المواضع الحجَّة القائمة على العلم.

ولهذا روى عبد الرَّزَّاق، وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «كلُّ سلطانٍ في القرآن فهو حجَّة»[1]، يعني المراد به الحجَّة.

وتُسمَّى الحجَّةُ: سلطانًا؛ لأنَّ لها سلطةً على القلب، فلا يستطيع أحدٌ ردَّها، بخلاف المغالطات والأباطيل وطُرق أهل الدَّجل، فإنَّها لا سُلطان لها على القلوب.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «إنَّ الله ـ سبحانه ـ سمَّى علم الحجَّة سلطانًا؛ لأنَّها توجب تسلُّطَ صاحبها واقتدارَه، فله بها سلطانٌ على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد النَّاسُ للحجَّة ما لا ينقادون لليد، فإنَّ الحجَّة تنقاد لها القلوبُ؛ وأمَّا اليد، فإنَّما ينقاد لها البدنُ، فالحجَّة تأسِر القلبَ وتقوده وتذلُّ المخالفَ، وإن أظهر العنادَ والمكابرةَ، فقلبه خاضعٌ لها، ذليلٌ مقهورٌ تحت سلطانِها، بل سلطانُ الجاه إن لم يكن معه علمٌ يُساسُ به؛ فهو بمنزلة سلطان السِّباع والأُسُود ونحوها، قدرةٌ بلا علمٍ ولا رحمةٍ، بخلاف سلطانِ الحجَّة؛ فإنَّه قدرةٌ بعلمٍ ورحمةٍ وحكمةٍ، ومن لم يكن له اقتدارٌ في علمه؛ فهو إمَّا لضَعف حجَّته وسلطانِه، وإمَّا لقهر سلطانِ اليدِ والسَّيفِ له، وإلَّا

(١) «تفسير عبد الرَّزَّاق» (٢/ ٣٩٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٠٩٧)، وانظر: «تفسير الطَّبري» (١٩/ ٤٤٤).

فالحجَّة ناصرةٌ نفسَها، ظاهرةٌ على الباطل، قاهرةٌ له» انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

ومن لطيف ما يُروى هنا ما جاء في كتاب الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أشعَث بن شُعبة المَصِّيصي قال: «قدم هارون الرَّشيد أمير المؤمنين الرَّقَّة؛ فانجفَل النَّاس خلفَ عبدِ الله بن المبارك، وتقطَّعت النِّعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفتْ أمُّ ولدٍ لأمير المؤمنين من بُرج من قصر الخشب، فلمَّا رأت النَّاس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالمٌ من أهل خُراسان قدم الرَّقَّة يقال له: «عبد الله ابن المبارَك»، فقالت: هذا ـ والله! ـ المُلْكُ! لا مُلك هارون الَّذي لا يجمع النَّاسَ إلَّا بشُرَطٍ وأعوانٍ»[2].

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٣١- فسُلطَةُ اليَدِ بالأبْدانِ قاصِرَةٌ تَكـونُ بالعَدْلِ أوْ بالظُّلْمِ والغَشَمِ**

«**فسُلطة اليد**»؛ يعني سلطة الحاكم أو الأمير أو نحوهما باليد، «**بالأبدان قاصرة**»؛ أي لا تؤثِّرُ في القلوبِ؛ وإنَّما على الأبدان فقط فتَنقاد وتُطاوع، وهي تارةً تكون بالعدل، وتارةً تكون بالظُّلم والغَشَم.

**٣٢- وسُلْطَةُ العِلْمِ تَنْقادُ القُلوبُ لَهَا إلَى الهُـدَى وإلَى مَرْضـاةِ رَبِّهِـم**

بينما إذا جاءت سُلطةُ العلمِ انقادت القلوبُ إلى هدى الله ونيل رضاه، والقصص في التَّاريخ والشَّواهد على ذلك كثيرة جدًّا، ومن الشَّواهد القديمة:

---

(١) «مفتاح دار السَّعادة» لابن القيِّم (١/ ٥٩).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٥٦).

الخوارج الَّذين خرجوا على عليٍّ رضي الله عنه أرسل إليهم ابنَ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ومعه حُجَجُ العلم فرجع منهم ألفان، وفي رواية: أربعة آلاف[1]، انقادت قلوبهم لسُلطة العلم لا أبدانهم فقط.

وفي زماننا هذا في الجزائر لَّما تحصَّن أعدادٌ كبيرةٌ من الخوارج في الجبال وتسلَّطوا على النَّاس وحاولت معهم الدَّولة محاولاتٍ عديدةٍ وهم معتصمون في الجبال؛ كتبَ لهم الشَّيخُ ابنُ عثيمين رحمه الله فتوى عظيمة، ونصيحةً ثمينة أُرسلت إليهم؛ فنزل أعدادٌ منهم، وانقادت قلوبُهم للحقِّ؛ ولهذا سلطة العلم سلطةٌ على القلوب، وأمَّا سلطة الحكَّام فهي على الأبدان.

* **قال** رحمه الله:

**٣٣- ويَذْهَبُ الدِّينُ والدُّنْيا إذَا ذَهَبَ الْـ ـعِلْمُ الَّـذِي فيـهِ مَنْجـاةٌ لُمِعْتَـصِمِ**

إذا ذهب العلم فإنَّ الدِّين والدُّنيا يذهبان بذهابه، ولهذا جاء في «الصَّحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ**»[2].

وجاء فيهما عنه ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا العِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرجُ**»، و«الهرج»: القتل[3].

وذهابُ العِلْمِ بذهاب أهله كما في «الصَّحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال:

---

(١) راجع «البداية والنِّهاية» لابن كثير (١٠/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٨٠)، ومسلم برقم (٢٦٧١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري برقم (٧٠٦٤)، ومسلم (٢٦٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما.

«إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

وفي آخر الزَّمان يُرفَع القرآنُ من المصاحف وصدورِ الرِّجال، فلا تبقى منه آيةٌ على وجه الأرض؛ لما رواه ابن أبي شيبة وغيره من طريق شدَّاد ابن معقل، أنَّه سمع ابنَ مسعود يقول: «إنَّ أوَّل ما تفقِدون من دينِكم الأمانةَ، وآخرَ ما تفقِدون الصَّلاة، وإنَّ هذا القرآن الَّذي بين أظهركم يوشِكُ أن يُرفع»، قال: قلتُ لعبد الله: كيف يُرفع وقد أثبتَه الله في صدورنا وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يُسرى عليه ليلًا فلا يُتركُ منه شيءٌ في صدر رجلٍ ولا مصحفٍ؛ ثمَّ قرأ: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٦] إلى آخر الآية[2].

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٣٤- العِلْمُ يا صَاحِ يَسْتَغْفِرْ[3] لِصاحِبِهِ أهلُ السَّماوَاتِ والأرْضِينَ مِنْ لَمَمِ**
**٣٥- كَذَاكَ تَسْتَغْفِرُ الحِيتانُ في لُجَجٍ مِن البِحارِ لَه فِي الضَّوْءِ والظُّلَمِ**

---

(١) رواه البخاري برقم (١٠٠)، ومسلم برقم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» برقم (٣٥٨٧٨)، وعبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (٥٩٨١)، والحاكم في «المستدرك» (٨٥٣٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

(٣) بإسكان الرَّاء مراعاة للوزن العروضي.

هذان البيتان بيَّن فيهما رَحِمَهُ ٱللَّهُ فضيلةً عظيمةً لأهل العلم، وهي أنَّ أهل السَّموات والأرض يستغفرون له حتَّى الحيتان في الماء، كما جاء في حديث أبي الدَّرداء، وفيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ**»(١).

وجاء في حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان؛ أحدهما عابدٌ، والآخر عالمٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**»، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ**» رواه التِّرمذيُّ(٢) وصحَّحه، وحسَّنه لغيره الألباني في «صحيح التَّرغيب»(٣).

«**العلمُ يا صَاحِ**»؛ ترخيم يا صاحب، «**لصَاحِبِهِ أهلُ السَّماواتِ والأرْضِينَ**»؛ أي مَنْ في السَّموات ومَنْ في الأرضين يستغفرون لطالب العلم؛ أهل السَّموات: الملائكة، وجاء ذكر استغفار الملائكة لعموم المؤمنين في القرآن: ﴿**ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ**

---

(١) رواه أحمد برقم (٢١٧١٥)، وأبو داود برقم (٣٦٤١)، والتِّرمذي برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه برقم (٢٢٣)، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (١/ ٦٣ و٦٨)، وينظر في شرح حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى رسالة نافعة لابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مطبوعة بعنوان: «شرح حديث أبي الدَّرداء في فضل طلب العلم»، وهو شرح حافل بفوائد عظيمة في هذا الباب.

(٢) رواه التِّرمذي برقم (٢٦٨٥).

(٣) «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» رقم (٨١).

﴿ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، لكن هذا الاستغفار لأهل العلم فيه خصوصيَّة.

«من لَمم»؛ اللَّمم: مقاربة المعصية من غير مواقعة، ويعبَّر به عن صغار الذُّنوب[(١)]، وفي هذا تنبيهٌ إلى فضيلةٍ لأهل العلم، وهي بُعْدُهم عن الكبائر والمعاصي والآثام بما آتاهم الله من بصيرةٍ بدينه وبأسمائه وصفاته، وإذا وقعوا في الذُّنوب يقعُون في أمورٍ هي من اللَّمم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

قال: «**كذاكَ تَسْتَغفرُ الحِيتَانُ في لُجَجِ مِنَ البِحَار**»؛ أيضًا إضافةً إلى استغفار الملائكة لمن في الأرض، فالحيتانُ الَّتي في البحار تستغفِرُ لأهل العلم، ومرَّ معنا في الحديث: «**حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا**»، وبعض أهل العلم تلمَّس في هذا بعض الحكم فقالوا: نَفع العالم لا يختصُّ بالنَّاس، بل يشمل الحيوانات وما في البحار والنَّمل ونحوه؛ لأنَّ العالم أوَّلًا يبصِّر النَّاسَ بالدِّين فإذا استقاموا حصَلَت الخيراتُ والبركاتُ، بينما إذا بقي النَّاس على ضلالهم وانحرافِهم فسَدَت السَّموات والأرض، فتضرَّر الحيتانُ والهوامُّ والدَّوابُّ.

ومِن جانب آخر؛ فإنَّ العالم ـ أيضًا ـ يبيِّن للنَّاس الرِّفقَ مع بهيمة الأنعام وحُسنَ التَّعامل، فهذه الأشياء مِنْ خيرِ العالم وبركتِه تصل إليها بما آتاه الله عَزَّوَجَلَّ من علمٍ، وبذلٍ له، ونصحٍ للنَّاس، وتوجيهٍ وإرشادٍ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فِي الضَّوْءِ والظُّلَمِ**»؛ أي في اللَّيل والنَّهار مستغفرةً له، مستمرَّة في الاستغفار.

---

(١) راجع «تاج العروس» (٣٣/ ٤٣٥) باب: «لمم».

٣٦- **وخارِجٌ فِي طِلابِ العِلـمِ مُحْتَسِبًا مُجاهِــدٌ في سَـــبيلِ اللهِ أيُّ كَمِـــي**

«**طِلاب**» بكسر الطَّاء، يقال: طالبَه مطالبةً وطِلابًا، أي طلبه بحقٍّ، «**محتسبًا**»؛ أي يحتسب في خروجه في طلب العلم أجرَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ وثوابَه، ويطلبُ رضاه ـ جلَّ وعلا ـ.

«**مجاهدٌ**» خبر «**خارجٌ**» أي أنَّ الَّذي يخرج في طلب العلم محتسبًا الأجر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بمنزلة المجاهد في سبيل الله، جاء في «جامع التِّرمذيّ»(١) وغيره، وحسَّنه عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ**».

وجاء في «سنن ابن ماجه»(٢) من حديث أبي هريرة ﵁ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ، أَوْ يُعَلِّمُه فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ المجاهدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ جَاءَ لغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعِ غَيْرِهِ**»؛ أي أنَّ الفائدةَ والخيرَ بين يديه، وحَرَم نفسَه منه.

قال ابن القيِّم ﵀: «وإنَّما جُعل طلبُ العلم من سبيل الله؛ لأنَّ به قوامَ الإسلام، كما أنَّ قِوامه بالجهاد؛ فقِوام الدِّين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهادُ نوعين:

ـ جهادٌ باليد والسِّنان، وهذا المشارك فيه كثير.

---

(١) برقم (٢٦٤٧).

(٢) برقم (٢٢٧) وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب» (٨٧).

ـ والثَّاني: الجهادُ بالحجَّة والبيان، وهذا جهادُ الخاصَّة من أتباع الرُّسل، وهو جهادُ الأئمَّة، وهو أفضلُ الجهادين؛ لعِظم منفعتِه، وشدَّة مُؤْنَتِه، وكثرةِ أعدائه»[1] انتهى.

وقول النَّاظم: «**مُجاهِدٌ في سَبيلِ الله أيُّ كَمِي**»؛ قوله: «**أيُّ**» جاء في «مغني اللَّبيب»[2] لابن هشام أنَّ من استعمالات «أيّ» مشدَّدةً أن تكون دالَّةً على معنى الكمال؛ فتقع صفةً للنَّكرة، نحو: زَيْدٌ رَجُلٌ أَيُّ رَجُلٍ! أي كاملٌ في صفات الرِّجال.

وقوله هنا: «**مُجاهِدٌ في سَبيلِ الله أيُّ كَمِي**» جاءت صفةً للنَّكرة «**مجاهدٌ**» وهي تُعطي معنى الكمال، و«**كَمِي**» من أكمى نفسَه أي سترها بالدِّرع، و«الكَمي» لابس السِّلاح، وأيضًا يُطلق «الكمي» على الشُّجاع المِقدام الجريء، سواء كان عليه السِّلاح أو لم يكن[3].

والمعنى: مجاهدٌ في سبيل الله أيُّ مجاهد؛ بيانًا لكمال جهاده، وهذا جهادُ الخاصَّة من أتباع الرُّسل، وهو جهاد العلماء الأعلام الرَّاسخين.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٣٧- وإنَّ أَجْنِحَةَ الأمْلاكِ تَبْسُطُها لِطالِبِيـهِ رضًى مِـنْهُمْ بِـصُنْعِهِمِ**

---

(١) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٧٠).

(٢) (ص١٠٩).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٣٩/ ٤١٨).

يشير في هذا البيت إلى ما جاء في حديث أبي الدَّرداء[1]، وفيه قال ﷺ: «**وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ العِلْمِ بِمَا يَصْنَعُ**»، ومعنى «**تضع أجنحتَها**»: أي تبسُطها ـ كما قال النَّاظم ـ لطالبي العلم رضًى منهم بصنعهم، وطالب العلم إذا عرف هذه الفضيلة العظيمة الَّتي خصَّه الله ـ جلَّ وعلا ـ بها وهي أنَّ الملائكة تضع أجنحتها له رضًى بما يصنع، وأنَّها تحفُّ طلَّاب العلم بأجنحتها كما جاء في «الصَّحيح»: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[2] زاد حرصُه وإقبالُه على العلم.

ولئن كان طلَّاب العلم لا يرون الملائكة تحفُّهم إلَّا أنَّهم من ذلك على يقين؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ ـ الصَّادق المصدوق ـ أخبر بذلك، وقد ذكر ذلك ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في مقام الحضِّ على العلم والتَّرغيب فيه، وبيان فضيلة أهله.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٣٨- والسَّالِكونَ طريقَ العِلْمِ يَسْلُكُهُمْ    إِلَى الجِنانِ طريقًا بارِئُ النَّسَمِ**

هذه الجملة ـ أيضًا ـ جاء تقريرها في حديث أبي الدَّرداء قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»، وجاءت هذه اللَّفظة في «صحيح مسلم»[3] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سياق طويل، قال ـ عليه

(١) تقدَّم تخريجه ص (٦٠).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) برقم (٢٦٩٩).

الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ...**» الحديث.

وقد شرحه ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للأربعين النَّوويَّة[1].

قوله: «**والسَّالِكُونَ طَرِيق العِلْمِ**» أي السَّائرون في طلبه الماضون في تحصيله.

«**يَسْلُكُهم إلى الجِنَانِ طَرِيقًا بارِئُ النَّسَم**»؛ «**بارئ**» فاعلُ «**يسلك**» أي: يسلُكُهم بارئُ النَّسَم أي الله طريقًا يوصل إلى الجِنان والفوز برضى الرَّحمن.

والبارئ اسمٌ من أسماء الله كما في الآيات الأخيرة من سورة الحشر، وكما في قوله في سورة البقرة: ﴿**فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ**﴾ [البقرة: ٥٤].

وهذا من باب الجزاء من جنس العمل، فمن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنَّة، وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المتقدِّم مشتملٌ على أمور عديدة كلّها من هذا الباب.

والجنَّة لا تُدخَل ولا تُنال إلَّا بالإيمان وطاعة الله: ﴿**ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٣٢]؛ ولا سبيل إلى معرفة الإيمان والعمل الصَّالح إلَّا بالعلم النَّافع.

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» الحديث السَّادس والثَّلاثين (ص:٦٣٢)/ ط. دار ابن الجوزي.

* ثمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٩- والسَّامِعُ العِلْمَ والوَاعِي لِيَحْفَظَهُ مُؤَدِّيًا نَاشِرًا إيَّاهُ في الأُمَمِ
٤٠- فيَا نَضَارَتَهُ إذْ كَانَ مُتَّصِفًا بِذا بِدَعْوَةِ خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ

من فضائل طالبِ العلم، بل يكفيه فضلًا وشرفًا ونبلًا وخيريَّةً أنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا له دعوةً مباركةً ميمونةً فقال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**»، وهذا الحديث تواتر عن رسول الله ﷺ رواه عنه غير واحد من الصَّحابة؛ منهم زيد بن ثابت، كما في «السُّنن» و«المسند»، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»(١)، وورد لفظه من حديث ابن مسعود أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا**»(٢).

ومن يتأمَّل الحديث بألفاظه الواردة يجد أنَّ هذه الدَّعوة المباركة من النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بالنَّضارة ينالها العبد بمراتب أربعة يفعلُها:

**الأولى: السَّماع** بأن يحرصَ على الجلوس للعلم وسماعِه وتلَقِّيه.

(١) رواه أحمد برقم (٢١٦٣٠)، وأبو داود برقم (٣٦٦٠)، والتِّرمذي برقم (٢٦٥٦) وحسَّنه، وغيرهم، وللوالد ـ حفظه الله ـ دراسة موسَّعة في تخريج هذا الحديث وشرحه، وهي بعنوان: «دراسة حديث «نضَّر الله امرءًا سمع مقالتي...» روايةً ودرايةً»، مطبوعة في ضمن مؤلَّفاته (٣/ ٢٩٧).

(٢) رواه أحمد برقم (٤١٥٧)، والتِّرمذي برقم (٢٦٥٧).

**الثَّانية: الوعي** بأن يعقِل ما يسمَع، ويَعِي ما يُقال ويبيَّن له.

**الثَّالثة: الحفظ** بأن يتعاهد هذا الَّذي يسمعُه من العلم ويكرِّرُه حتَّى يثبتَ عنده.

**الرَّابعة: الإبلاغ** بنشر العلم وتعليمه للآخرين وبذلِه للنَّاس.

وبهذه المراتب الأربعة ينال العبدُ هذه الدَّعوة المبارَكة بقول نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً**».

و«النَّضارة»: هي البهجة والحُسن الَّذي يُكساه الوجه من أثر الإيمان والعلم النَّافع وابتهاج القلب بذلك، وإنَّما دعا ﷺ لسامع السُّنَّة ومبلِّغها بالنَّضارة جزاءً وفاقًا لما قام به من بثِّها وجعلها بذلك غضَّةً طريَّة في أوساط النَّاس؛ فجزاه الله من جنس عملِه بأن نضَّر وجهه؛ سعى في نضارة العلم وإحياء السُّنَّة فدعا له النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام بما يناسبُ حالَه، وقد جاء عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قال: «ما من أحدٍ يطلبُ الحديثَ إلَّا وفي وجهه نَضْرَةٌ»(١).

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٤١- كَفاكَ فِي فَضْلِ أهْلِ العِلْمِ أنْ رُفِعُوا    مِـنْ أجْلِـهِ دَرَجـاتٍ فـوْقَ غَـيْرِهِمِ**

يعني يكفي فضيلةً في العلم، وبيان شرفِه وشرفِ أهله أن رفعَهم الله ـ جلَّ وعلا ـ من أجل العلم درجات، وهو رَحِمَهُ اللهُ يشير إلى ما جاء في سورة المجادلة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ**﴾ [المجادلة: ١١].

(١) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (ص١١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني على الَّذين آمنوا ولم يؤتوا العلمَ، كذا قال ابن مسعود وغيره من السَّلف»[1].

أي يرفع الله الَّذين آمنوا وأوتُوا العلمَ على الَّذين آمنوا ولم يُؤْتَوا العلم درجات.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٤٢- وكانَ فضْلُ أبِينَا في القَدِيمِ عَلى الْـ    أمْـلاكِ بـالعِلْمِ مِـن تَعْلِـيمِ رَبِّهِـمِ**

«**وكانَ فضْلُ أبِينَا**»؛ أي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ «**فِي القَدِيمِ عَلى الأمْلاكِ**»؛ أي على الملائكة «**بالعِلْمِ**»؛ يعني أنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فُضِّل على الأملاك وشرِّف بالعلم الَّذي ميَّزه الله ـ سبحانه وتعالى ـ به كما جاء في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣].

فذكر ـ جلَّ وعلا ـ في هذا السِّياق شرف آدم على الملائكة بما اختصَّه به من علم أسماء كلِّ شيء دون الملائكة.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٤٣- كذاكَ يوسُفُ لَمْ تَظْهَرْ فَضِيلَتُهُ    لِلعـالَمِينَ بِغَـيْرِ العِلْـمِ والحِكَـمِ**

(١) «شرح حديث أبي الدَّرداء في فضل طلب العلم» (ص٣٤).

أي فضيلة يوسف ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ظهرت للعالمين بالعلم والحِكَم؛ كما قال الله تعالى في سورة يوسف وفيها ذكرت قصَّتُه العظيمة المباركة مفصَّلة، جاء في أوَّلها قوله جلَّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، وقال في أثنائها: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، وجاء في آخرها ذكر دعاء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وللشَّيخ العلَّامة عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة مستطابة بعنوان «الفوائد المستنبطة من قصَّة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ» وهي جديرة بأن تُقرأ.

❁ **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٤٤- وما اتِّباعُ كَليمِ اللهِ لِلْخَضِرِ الْـ ـمَعْـروفِ إلَّا لعِلْـمٍ عَنْـهُ مُنْـبَهِمِ**

هذا يشير إلى ما جاء في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٥ ـ ٦٦]، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه وواعده ربُّ العالمين وسمع كلامَ الله مِنَ الله، يرحَل إلى الخَضِر ويقول: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

قوله: «عَنْهُ» أي عن موسى، «مُنْبَهِمِ» أي لم يطَّلع عليه موسى وخفيَ

عليه؛ لكنَّ الله منَّ به على الخضر، ولَّما علم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنَّ عند الخَضِر علمًا خَفِيَ عليه؛ ذهب في طلبه ورحَل في تحصيله ـ وهي قصَّة مشهورة ورَدَ ذكرها في آواخر سورة الكهف، وكذلك جاء ذكرها في «الصَّحيحين»(١) من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ ولم يمنَعْه ما أتاه الله من علم غزير واصطفاء وتكليم إلى غير ذلك من الفضائل والخيراتِ والبركاتِ أن يرحَل في طلب العلم مع ما فيه من نصبٍ وتعبٍ ومشقَّةٍ.

* **ولهذا قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٤٥- مَعْ فَضْلِهِ بِرِسالاتِ الإلَـهِ لَـهُ     وَمَوْعِـدٍ وسَـماعٍ مِنْـهُ لِلْكَلِـمِ**

«**مع فَضْلِه بِرِسَالاتِ الإِلَهِ**»؛ يشير إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي**﴾ [الأعراف: ١٤٤].

«**وموعد**»؛ أي فضَّله بذلك: ﴿**وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ**﴾ [الأعراف: ١٤٢].

«**وسماعٍ منه للكلم**»؛ أي سماعه لكلام الله مِنَ الله: ﴿**وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا**﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿**وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ**﴾ [الأعراف: ١٤٣].

مع هذه الفضائل كلِّها رَحَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في طلب العلم؛ وفي هذا دلالةٌ على فضل العلم وفضل الرِّحلة في تحصيلِه.

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٠).

والشَّيخ عبد الرَّحمن بن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من عادته في «تفسيره» عندما يذكر قصص الأنبياء وغيرها من القصص الَّتي في القرآن يتبعها بذكر الفوائد المستنبَطة من القصَّة، ففي تفسيره لسورة الكهف لمَّا انتهى من قصَّة موسى مع الخضر أخذ يعدِّد الفوائد المستنبَطة من هذه القصَّة وبدأها بقوله: «فمنها فضيلة العلم والرِّحلة في طلبه، وأنَّه أهمُّ الأمور، فإنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رحل مسافةً طويلةً ولقي النَّصَب في طلبه، وترك القعودَ عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادِهم واختارَ السَّفرَ لزيادة العلم على ذلك».

* **ثمَّ قال النَّاظم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٤٦- وقَدَّمَ المصْطفى بـالعِلْمِ حامِلَـهُ ... أعْظِـمْ بِــذلِكَ تَقْـدِيمًا لِـذِي قَــدَمِ**

**٤٧- كفَاهُمُو أنْ غَدَوْا لِلْوَحْيِ أوْعِيَةً ... وأضْـحَتِ الآيُ مِنْـهُ فِي صُـدورِهِمِ**

**٤٨- وأَنْ غَدَوْا وُكَـلاءَ فِي القِيَـامِ بِـه ... قَــوْلًا وفِعْــلًا وتعلــيمًا لغــيرِهِمِ**

**٤٩- وخصَّهُمْ ربُّنـا قَـصْرًا بِخَـشْيَتِهِ ... وعَقْــلِ أمْثالِــهِ فِي أصْــدَقِ الكَلِــمِ**

هذه جملةٌ من الفضائل لطالب العلم؛ منها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قدَّم حامل العلم وحامل القرآن على غيره في مناسباتٍ عديدة.

**منها** التَّقديم في الإمامة، يؤمُّهم أقرؤهم لكتاب الله، كما جاء في حديث عمرو بن سَلِمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**صَلُّوا صَلاَةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا**»، قال عمرو بن سَلِمة: فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي، لِمَا

كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ[1].

ومنها التَّقديم في الدَّفن، كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ: «**أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟**»؛ فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ[2].

وقوله: «**لِذِي قَدَم**»؛ أي قَدَم في العلم والتَّعلُّم، أي: له فضلٌ في العلم وسابقة، ويقال: له قدمُ صِدق، وقدمُ فضل وكرم.

«**كفَاهُمُو**»؛ أي فضلًا وشرفًا يعني أهلَ العلم، «**أَنْ غَدَوْا للوَحْيِ أَوْعِيَةً**»؛ أي أصبحت قلوبهم أوعية تحمل العلم، والقلوب أوعية للعلم، منها ما يحمل علمًا كثيرًا، ومنها ما يحمل علمًا قليلًا، ومنها قلوب فارغة لا علمَ فيها.

ومعنى وعَت الوحي أي: حفظتْهُ، كما يوضِّح هذا المعنى الشَّطَر الَّذي يليه حيث قال: «**وأَضْحَتِ الآيُ مِنْه**» أي من الوحي «**في صُدُورِهم**» كما قال تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ**﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقوله: «**وأنْ غَدَوا وكلاءَ في القِيام به**»؛ هذه ـ أيضًا ـ فضيلة للعلم، وهي أنَّ أهل العلم أصبحوا وكلاء في القيام بالعلم في أنفسهم قولًا وفعلًا، وفي غيرهم تعليمًا ونصحًا.

ولهذا؛ فإنَّ العالم يوقِّع عن ربِّ العالمين، وينقل للنَّاس حكمَه ـ جلَّ وعلا ـ، وبهذا عَنْوَنَ ابنُ القيِّم أحدَ كتبه بقوله: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» يعني العلماء.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٣٠٢).

(٢) رواه البخاري برقم (١٣٤٣).

«**وخصَّهُمْ ربُّنا**»؛ أي خصَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ أهلَ العلم «**قَصْرًا**» «يُقال: قصَرتُ الشَّيءَ على كذا إذا لم تجاوز به غيره»(١) أي أنَّه سبحانه قصَر خشيتَه على أهل العلم، وفي هذا فضيلةٌ ظاهرةٌ للعلم، قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكلُّ مَن كان بالله أعلم، كان أكثر له خشيةً، وأوجبت له خشيةُ الله الانكفافَ عن المعاصي، والاستعدادَ للقاء من يخشاه، وهذا دليلٌ على فضيلة العلم، فإنَّه داعٍ إلى خشية الله، وأهلُ خشيتِه هم أهل كرامتِه، كما قال تعالى: ﴿**رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ**﴾ [البينة: ٨]»(٢).

«**وعَقْلِ أمْثالِهِ**»؛ وعقل معطوفٌ على خشية، أي خصَّهم بالخشية، وأيضًا خصَّهم بعَقْلِ «**أمثالِه**» أي الأمثال الَّتي في القرآن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره»(٣) عن عمرو بن مُرَّةَ، قَالَ: «مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ فِي كِتَابِ الله لا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنَنِي؛ لأَنِّي سَمِعْتُ اللهَ، يَقُولُ: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ**﴾.

وكان بعض السَّلف إذا قرأ مثلًا من القرآن لم يفهمْهُ يشتدُّ بكاؤه ويقول: لستُ منَ العالِمين(٤).

---

(١) «تاج العروس» (مادة قصر).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٨٩).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣٠٦٤).

(٤) انظر: «الكافية الشَّافية» لابن القيِّم (ص٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٩٤)، (٤/ ٣٦٩).

«**في أصدق الكَلِم**»؛ أي في القرآن، كما في الحديث: «**إِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كَلَامُ اللهِ**»، ويُنظر كتابُ «إعلام الموقِّعين» لابن القيِّم ففيه فصلٌ نافعٌ جدًّا في أمثال القرآن[1].

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٥٠- ومَعْ شَهادَتِهِ جاءَتْ شَـهادَتُهُمْ حَيْثُ اسْتَجابُوا وأهْـلُ الجَهْـلِ في صَـمَمِ**

«**ومع شهادته**»؛ أي مع شهادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنفسه بالوحدانيَّة بقوله سبحانه: ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: ١٨] جاءت شهادتُهم، أي قَرَن الله شهادتهم بشهادته، فهذه فضيلةٌ لأهل العلم، وتشريفٌ لهم، وتعليةٌ لمقامهم أنْ قرَنَ ـ جلَّ وعلا ـ شهادتَهم بشهادتِه في أعظم مشهودٍ به وهو توحيدُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استشهد الله عَزَّ وَجَلَّ بأهل العلم على أجلِّ مشهودٍ به، وهو التَّوحيد، وقرن شهادتهم بشهادتِه وشهادةِ ملائكتِه، وفي ضمن ذلك تعديلُهم؛ فإنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يستشهد بمجروح»[2] انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: «**حَيثُ استَجَابُوا**»؛ أي استجابوا لله وللرَّسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقوله: «**وأهلُ الجَهْلِ في صَمَم**»؛ أي عن الخير، وعن العلم، وعن

---

(١) «إعلام الموقِّعين» (١/ ١٥٠ ـ ١٩٣).

(٢) «مدارج السَّالكين» (٢/ ٤٧٠).

الفضل، وعن الهدى.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٥١- وَيَشْهدُونَ عَلى أَهْلِ الجَهالَةِ بالْـ مَوْلَى إذا اجتَمَعُـوا فِي يَـوْمِ حَـشْرِهِمِ**

يشير إلى قول الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والجار والمجرور في قوله: «**بالمولى**» متعلِّقٌ بقوله: «**إذا اجتَمَعُوا**» أي: إنَّ من فضائل أهل العلم أنَّهم يشهَدون على أهل الجهالة إذا اجتمَعوا بالله يوم القيامة.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٥٢- والعَالِمُونَ عَـلى العُبَّـادِ فَـضْلُهُمُ كالبَدْرِ فَضْلًا عَلى الدُّرِّيِّ فَـاغْتَنِمِ**

في هذا البيت بيان فضيلة العالم على العابد، وأنَّ العلماءَ أفضل من العُبَّاد، وأنَّ فضلَ العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، و«البدرُ» هو القمر ليلةَ التَّمام والكمال في منتصف الشَّهر.

«**كالبَدْرِ فَضْلًا عَلى الدُّرِّيِّ**»؛ يعني على الكوكب، يدلُّ لذلك حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**»[(١)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا المثل تشبيهٌ للعالم بالقمر ليلةَ البدر، وهو

---

(١) تقدَّم ص (٦٠).

نهاية كماله وتمام نوره، وتشبيهٌ للعابد بالكواكب، وأنَّ بين العالم والعابد منَ التَّفاوت في الفضل ما بين القمر ليلة البدر والكواكب، والسِّرُّ في ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّ الكوكبَ ضوؤه لا يعدو نفسَه، وأمَّا القمر ليلة البدر؛ فإنَّ نورَه يشرقُ على أهل الأرض جميعًا، فيعمُّهم نوره فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في مَسيرهم»[1].

«**فَاغْتَنِمِ**»؛ أي اغتنم حياتَك في طلب العلم وتحصيلِه.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٥٣- وعَالِمٌ مِنْ أُولِي التَّقْوَى أشدُّ عَلى الـ ... شَّـيْطانِ مِـنْ أَلْـفِ عَبَّـادٍ بِجَمْعِهِـمِ**

قوله: «**عَبَّادٍ**» صيغة مبالغة من عَابِد، يعني لو اجتمع ألفُ عابد، فعالم واحد تقيٌّ لله ـ سبحانه وتعالى ـ أشدُّ على الشَّيطان من هؤلاء؛ لأنَّ هؤلاء نفعهم قاصرٌ عليهم، أمَّا العالم فنفعه يمضي إلى الدُّنيا ويسري في النَّاس، وهذا المعنى يُروى فيه حديثٌ أخرجه التِّرمذي وابن ماجه من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «**فَقِيهٌ أَشَدُّ على الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ**»[2]، وهو ضعيفٌ جدًّا كما في «ضعيف التَّرغيب»[3] للألباني رَحِمَهُ اللهُ.

وجاء عند الدَّارقطنيِّ من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**مَا عُبِدَ اللهُ بِشَيْءٍ**

---

(١) «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم» (ص٣٢ ـ ٣٣).

(٢) «جامع التِّرمذي» برقم (٢٦٨١)، و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٢٢).

(٣) برقم (٦٦).

أَفْضَل مِنْ فِقْهٍ فِي دِينٍ، وَلَفَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ، وَعِمَادُ هَذَا الدِّينِ الفِقْهُ**»، فقال أبو هريرة: لأن أجلسَ ساعة فأفقه أحبُّ إليَّ من أن أحيي ليلةً إلى الغداة؛ والحديث حكم عليه الألبانيُّ في «الضَّعيفة»[1] بالوضع.

وأخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان»[2] الشَّطر الأوَّل منه من حديث ابن عمر، وقال: «والمحفوظ في هذا اللَّفظ من قول الزُّهريِّ».

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٥٤- ومَوْتُ قَوْمٍ كَثِيرُو الْعَدِّ أَيْسَرُ مِنْ حَبْرٍ يَمُوتُ مُصَابٌ واسِعُ الأَلَمِ**

أي عندما يموت الحَبْر ـ وهو العالم ـ يكون موتُه أعظمَ من موت أقوام؛ ولهذا يموت أقوامٌ وأعدادٌ كثيرة من البشر وما يشعُر بهم النَّاس كثيرًا، ويموت العالم فتشعُر به الدُّنيا كلُّها، ويتألَّم أهلُ الإيمان وأهلُ الإسلام وأهل الفضل لموته.

«**مُصَابٌ واسِعُ الأَلَمِ**»؛ أي موت العالم مصابٌ ألمه واسع، بينما موتُ غير العالم مصابُه ليس واسعًا، وإنَّما في محيط أولاده وقرابته ومعارفِه ومَن لهم به صلة خاصَّةٌ.

كما قال الشَّاعر:

يموتُ قومٌ ولا يَأْسَى لهم أحدٌ ... وواحدٌ موتُه هَمٌّ لأقوام

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٥٥- كَمَا مَنافِعُهُ فِي العَالَمِ اتَّسَعَتْ وَلِلشَّيَاطِينِ أَفْراحٌ بِمَوْتِهِمِ**

---

(١) برقم (٤٤٦١).

(٢) (٢/ ٢٦٥).

«**كَمَا مَنافِعُهُ فِي العالَمِ اتَّسَعَتْ**»؛ أي: أنَّ المصابَ فيه واسع؛ لأنَّ منافعَه اتَّسعت في العالم، وهذا كالتَّعليل لما قبله.

«**وَلِلشَّيَاطِينِ أفْراحٌ بِمَوْتِهِمِ**»؛ شياطين الإنس والجنِّ يفرحون بموت العالم، كما جاء عن أبي جعفر محمَّد بن عليٍّ أنَّه قال: «والله! لموت عالمٍ أحبُّ إلى إبليس من موت سبعين عابدًا» رواه البيهقيُّ في «شعب الإيمان»[1].

* ثم قال النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ مستدركًا:

**٥٦- تَاللهِ لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا لَمَا فَرِحُوا     لأنَّ ذَلِكَ مِنْ أعْلامِ حَتْفِهِمِ**

«**تالله**»؛ يقسم بالله، «**لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا**»؛ يعني ولو يسيرًا وقليلًا عن العلم وفضلِه ومكانةِ حمَلَته، «**لما فرحُوا**» بموت أهل العلم؛ لكن بلاؤهم ومصيبتُهم من جهة الجهل الَّذي هو أساس كلِّ شرٍّ وبلاء.

«**لأنَّ ذَلِكَ مِن أعْلامِ حَتْفِهِمِ**»؛ أي إذا خلت الأرضُ من العلم ونوره ونور العلماء قامت السَّاعة.

* **ثم قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٥٧- همُ الرُّجُومُ بِحَقٍّ كُلَّ مُسْتَرِقٍ     سَمْعًا كَشُهْبِ السَّمَا أعْظِمْ بِشُهْبِهِمِ**

**٥٨- لأنَّهَا لِكِلا الجِنْسَيْنِ صائِبَةٌ     شيطانَ إنْسٍ وجِنٍّ دونَ بَعْضِهِمِ**

هنا يبيِّن فضيلةً أخرى لأهل العلم، وهي أنَّهم مثل النُّجوم رجومًا للشَّياطين.

---

(١) برقم (١٧١٤).

«**أَعْظِمْ بِشُهْبِهِمِ**»؛ أي أعظم بشُهب أهل العلم، ومراده أنَّ أهل العلم يتصدَّون لكلِّ مُبْطِلٍ بالرَّدِّ والتَّفنيد وإبطال الشُّبهات وكشفِ الزَّيغ، ولهذا سمَّى بعض أهل العلم كتبَهم في الرُّدود بـ«الشُّهب المرسلة»، «الصَّواعق المحرقة» إلى آخره؛ لأنَّ ردود أهل العلم بالحجج البيِّنات بمثابة الشُّهب الَّتي تدمِّر باطل أهل الباطل وتكشف زيغَ أهل الضَّلال.

«**أَعْظِمْ بِشُهْبِهِمِ**» أي: أنَّها عظيمة جدًّا؛ «**لأنَّها**»؛ أي شُهب أهل العلم، «**لكِلا الجِنْسَين**»؛ يعني الجنِّ والإنس، «**صائِبَةٌ، شيطانِ إنْسٍ وجِنٍّ دونَ بَعْضِهِمِ**».

يقول ابنُ رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد شبَّه العلماءَ بالنُّجوم، والنُّجوم فيها ثلاث فوائد: يُهتدى بها في الظُّلمات، وهي زينة للسَّماء، ورجوم للشَّياطين الَّذين يَسْتَرِقُونَ السَّمع منها، والعلماء في الأرض تجتمع فيهم هذه الأوصاف الثَّلاثة: بهم يُهتدى في الظُّلمات، وهم زينة للأرض، وهم رجوم للشَّياطين الَّذين يخلطون الحقَّ بالباطل، ويُدخلون في الدِّين ما ليس منه؛ من أهل الأهواء»[(١)].

* **ثم قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٥٩- هُمُ الهُداةُ إلى أهْدَى السَّبيلِ وأهْـ ـلُ الجَهْلِ عنْ هَدْيِهِمْ ضَلُّوا لِجَهْلِهِمِ**

قال: «**هُمُ الهُداةُ**»؛ وهذا من فضائل أهل العلم أنَّهم هداة لأهدى السَّبيل، وهو سبيل النَّبيِّ ﷺ، «**وأهلُ الجَهْلِ عنْ هَدْيِهِمْ ضَلُّوا لِجَهْلِهِمِ**»؛ الجهَّال ضلُّوا

(١) «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» (ص ١٦ ـ١٧)، وانظر هذه الفوائد في «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٦٥ ـ ٦٦).

عن السَّبيل وعن الهدى بسبب تماديهم في الجهل.

* **ثمَّ ختم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الفصل بقوله:**

**٦٠- وفَضْلُهُمْ جاءَ في نصِّ الكِتابِ وفِي الْـ حَـديثِ أشْـهَرُ مِـنْ نـارٍ عَـلى عَلَـمِ**

لَمَّا ذكر هذه الفضائل الكثيرة؛ ختم رَحِمَهُ اللَّهُ بالإشارة بأنَّ فضلَهم جاء في نصِّ الكتاب، يعني في مواضع كثيرة جدًّا من القرآن، وكذلك في السُّنَّة ففضائل أهل العلم «**أشْهَرُ مِنْ نارٍ عَلى عَلَمِ**» والعَلَم هو الجبل الطَّويل وإذا كان في أعلاه نارٌ زاد وضوحًا، وهذا من الأمثال السَّائرة الَّتي تضرب لما كان مشهورًا شهرة واسعة.

وقد أفرد أهل العلم النُّصوص الواردة في فضل العلم وفضل طلَّابه في كتب كثيرة، مثل «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البرِّ، و«الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب؛ ليكون فيها شحذٌ للهمم، وطالب العلم بَيْنَ وقت وآخر يحتاج إلى أن يقرأ في فضل طلب العلم وفضل العلماء؛ لأنَّ هذه الفضائل إذا حضرت في ذهنِه زاد حرصُه على الطَّلب والتَّحصيل، وكذلك ـ أيضًا ـ يقرأ في سِيَرِ أهل العلم الأفاضل النُّبلاء الَّذين عرفوا فضل العلم ومكانته فصرفوا فيه أوقاتهم وبذلوا فيه جهودهم؛ فانتفعوا ونفعوا، والموفِّق ربُّ العرش لا شريكَ له.

* * *

## نبذة في وصيَّة طالب العلم

بدأ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر هذه النُّبذة الطَّيِّبة المشتملة على جملةٍ من الوصايا لطالب العلم، فقال: «**نبذة في وصيَّة طالب العلم**»؛ أي ما يُوصَى به طالب العلم من الآداب والأخلاق الَّتي هي عنوان فلاحه وسعادته، وإذا لم يكن طالبُ العلم متحلِّيًا بهذه الأخلاق الفاضلة والآداب الرَّفيعة لا ينال ثمرةَ العلم.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٦١- يا طالِبَ العِلمِ لا تَبْغِي[١] به بَـدَلًا فقَـدْ ظَفِـرْتَ ورَبِّ اللَّـوْحِ والْقَلَـمِ**

بدأ هذه النُّبذة الطَّيِّبة بهذا النِّداء اللَّطيف: «**يا طالبَ العِلم**»؛ أي يا مَنْ أكرمَك الله عَزَّوَجَلَّ ومنَّ عليك باللَّحاق بهذا الرَّكب الطَّيِّب المبارك، ويسَّر لك أن تكونَ من أهل العلم وطلَّابه، قاصدًا بهذا النِّداء التَّنبيه إلى ما يقتَضيه هذا الانتساب من حقوقٍ وآدابٍ وواجباتٍ تلزم كلَّ سالك هذا المسلَك المبارك.

وقوله: «**لا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا**»؛ أي: لا تبغِ بالعلم بدلًا آخر، فالعلم أفضلُ مطلوب، وأشرفُ أمر تُشغل فيه الأنفاس، وتُمضى فيه الأوقات، فأنت في خيرٍ عظيم، وفضلٍ عميم.

---

(١) لم تحذف الياء لضرورة الوزن.

ويُلمِح بهذا إلى أنَّ طالب العلم لابدَّ أن يمرَّ عليه في حياته الدُّنيا ما يَشْغَلُه عن طلب العلم، ويصرفُه عن تحصيله، فالصَّوارف كثيرةٌ، والصَّوادُّ عديدة، ولا بدَّ من مجاهدة النَّفس والاستمرار في طلب العلم والمداومَة على تحصيلِه كلَّما ورد صارفٌ أو عرض صادٌّ «**فَقَدْ ظَفَرْتَ ورَبِّ اللَّوْحِ والقَلَمِ**»؛ أي: إن مضيتَ صابرًا محتسبًا جادًّا مجتهدًا في العلم وتحصيله فُزْتَ بأعظم ربحٍ وأكبر غنيمةٍ.

«**وربِّ اللَّوح والقلَم**»؛ يُقسِم بالله ـ جلَّ وعلا ـ، وخصَّ اللَّوح والقلم بالذِّكر في هذا القسم؛ لأنَّهما زادُ طالب العلم، ولا غنى لطالب العلم عن اللَّوح والقلم، وذكر ربوبيَّة الله ـ جلَّ وعلا ـ للَّوح والقلم يتضمَّن تذكير طالب العلم باستشعار منَّة الله عليه أن يسَّر له أن يُمسك الأوراق والأقلام، ويسطِّر بها خير الكلام وخير الهدى، وإلَّا كم من النَّاس من يحملون الأقلامَ والأوراقَ ويكتبون بها الباطلَ والضَّلالَ والكفر، والصَّدَّ عن دين الله.

**٦٢- وقَدِّسِ العِلمَ واعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِـهِ فِي القَـوْلِ والفِعْـلِ والآدابَ فَـالْتَزِمِ**

«**وقَدِّسِ العِلمَ**»؛ «التَّقديس»: التَّنزيه أي نزِّه العلمَ عن كلِّ ما لا يليق به وما لا يليق بطلَّابه؛ ولهذا ينبغي على طالب العلم أن يحترمَ العلم وأن يحترم كتبَ العلم وأن يحترمَ حملةَ العلم، ولهذا جاء في الحديث: «**لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ**»[1].

---

(١) رواه أحمد برقم (٢٢٧٥٥) والحاكم (١/ ٢١١) من حديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، وحسَّنه الشَّيخ الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» برقم (١٠١).

وقوله: «**فِي القَوْلِ والفِعْلِ**»؛ أي ليكن تقديسك للعلم ومعرفتُك بقدره في أقوالك وأفعالك، مشيرًا بذلك إلى أنَّ الآداب الَّتي تُراعى في حقِّ العلم منها آدابٌ قوليَّة، ومنها آدابٌ فعليَّة، وسيأتي عند النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر شيءٍ منها.

قال: «**والآدابَ فالتَزِمِ**»؛ «الآداب» مفعول به مقدَّم، أي التزم بآداب طلب العلم.

وهذا بابٌ عظيم، أفرده أهل العلم بكتابات نافعة، ومصنَّفات مفيدة.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٦٣- واجْهَدْ بِعَزْمٍ قَوِيٍّ لا انْثِنَاءَ لَـهُ لَـوْ يَعْلَـمُ الْمَـرْءُ قَـدْرَ العِلْـمِ لَمْ يَـنَمِ**

«**واجْهَدْ بِعَزْمٍ قَوِيٍّ**»؛ أي ابذل جُهدَك في طلب العلم بعزيمةٍ قويَّةٍ، وفي الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أسأَلُكَ الثَّبَاتَ في الأَمْرِ، والعَزِيمَةَ عَلى الرُّشْدِ**»[1].

«**لا انْثِنَاءَ لَهُ**»؛ أي لا يكون مع هذا العزم القويِّ والجدِّ والاجتهاد ما يُثنيه أو يُضعفه ويجعله يتوانى ويكسل ويَفْتُرُ.

«**لَوْ يَعْلَم المَرْءُ قَدْرَ العِلْمِ لَمْ يَنَمِ**»؛ لو أنَّ المرء يعرف قدر العلم ومكانتَه وآثارَه وثمارَه عليه في الدُّنيا والآخرة؛ لم يَنَمْ، وليس المراد بعدم النَّوم أن لا ينامَ مطلقًا إذ هذا غير ممكن، وإنَّما المراد أنَّه لا ينام إلَّا عند غلبة النَّوم عليه وشدَّة احتياجه له، لا أنَّه ينام النَّوم المتواصل الطَّويل الَّذي يجلب له الفتورَ والكسلَ والخمولَ وضعفَ الذِّهن،

(١) رواه الطَّبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٣٣٥) من حديث شدَّاد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإسناده جيِّد، كما في «السِّلسلة الصَّحيحة» رقم (٣٢٢٨).

ولهذا كان العلم الَّذي هو الشُّغل الشَّاغل للسَّلف يقطع عليهم نومَهم كلَّما استذكروا شيئًا من مسائله.

جاء في ترجمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه كان يستيقظ في اللَّيلة الواحدة أكثر من مرَّة، فيوقدُ السِّراجَ، ويكتبُ الفائدةَ تمرُّ على خاطره، ثمَّ ينام، قال محمَّد بن حاتم الورَّاق: «كان أبو عبد الله إذا كنتُ معه في سفر يجمعنا بيتٌ واحدٌ إلَّا في القَيظ، فكنت أراه يقومُ في اللَّيلة الواحدة خمس عشرة مرَّة إلى عشرين مرَّة، في كلِّ ذلك يأخذ القَدَّاحة فيُورِي نارًا بيده ويُسرج، ويُخَرِّج أحاديثَ فيُعَلِّمُ عليها ثمَّ يضع رأسَه»[1]، وقد قال الله في وصف أهل الإيمان: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦].

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٦٤- والنُّصْحَ فابْذُلْهُ لِلطُّلابِ مُحْتَسِبًا     في السِّرِّ والجُهْرِ والأُسْتاذَ فَاحْتَرِمِ**

«**والنُّصْحَ فابْذُلْهُ لِلطُّلابِ**»؛ أي كُن ناصحًا لهم، كما قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في حديث تميم بن أَوْس الدَّاري: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[2].

و«**النُّصح**» هو إرادةُ الخير للغير، وأنْ تحبَّ لهم ما تحبُّ لنفسك، كما أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أكرمَك بحظٍّ من العلم ونصيبٍ منه؛ فأوصلْ هذا الخيرَ الَّذي أكرمَك الله به إلى الآخرين؛ لينتفعوا به كما انتفعت، وليُفيدوا منه كما استفَدت.

---

(١) «هدي السَّاري» (ص٤٨١).

(٢) رواه مسلم برقم (٥٥).

«**فابْذُلْهُ**»؛ أي قدِّمه للآخرين بقلبٍ شفيق، ووجهٍ طليق، ومعاملةٍ حسنة.

«**محتسبًا**»؛ أي الأجر والثَّواب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ في بذل العلم لطلَّابه، لا ترجو منهم شيئًا، وإنَّما ترجو من الله وتحتسبُ ذلك ثوابًا وأجرًا عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وتجعل ذلك من جملة قُرباتك وطاعاتك الَّتي تتقرَّب بها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

«**في السِّرِّ**»؛ أي ابذُل لهم النُّصح سرًّا بينك وبين آحاد الطُّلَّاب، ولا سيما عند إرادة نصحه وتنبيهه على بعض الأخطاء والمخالفات؛ فإنَّ النَّصيحة إذا أُسديت سرًّا كانت أبلغَ في التَّأثير والفائدة، ذكر الحافظُ ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ أنَّ السَّلف كانوا يكرهون الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر إن كان على وجه التَّشهير بالمخطِئ على رؤوس الملأ، ثمَّ قال: «ويحبُّون أن يكونَ سرًّا فيما بين الآمر والمأمور، فإنَّ هذا من علاماتِ النُّصح، فإنَّ النَّاصح ليس له غرَضٌ في إشاعة عيوب مَن ينصح له، وإنَّما غرضُه إزالةُ المفسدة الَّتي وقع فيها؛ وأمَّا الإشاعة وإظهار العُيوب فهو ممَّا حرَّمه الله ورسولُه، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ الآيتين [النور: ١٩، ٢٠]، والأحاديث في فضل السِّرِّ كثيرةٌ جدًّا»(١).

قوله: «**والجهْرِ**»؛ أي الجهر في الدُّروس العامَّة كالخطابة والمحاضرات والكلمات الَّتي تشمل الجميع والنَّفع العامِّ في المجالس وإفادة النَّاس، فتكون دائمًا حريصًا على بذل الخير بجميع الوسائل، وفي عصرنا استجدَّت بعض الوسائل يمكن الاستفادة منها في بثِّ العلم ونشره كـ«الانترنت» و«الجوَّالات».

---

(١) «الفرق بين النَّصيحة والتَّعيير» (ص١٧).

وهذا البذل يزيدُ العلم، كما قال الإلبيريُّ في وصيَّته لابنه[1]:

**وكنــز لا تخــاف عليــه لــصًّا　　خفيف الحمل يوجد حيـث كنتَـا**

**يزيــد بكثــرةِ الإنفــاقِ منــه　　ويَــنقُص إن بــه كفًّــا شَــددتَا**

فالعلم إذا أمسكه صاحبُه ولم يُفِد به الآخرين نقَصَ، كما قال عبد الله ابن المبارك: «من بَخل بالعلم ابْتُلي بثلاث: إمَّا موتٌ يُذهب علمَه، وإمَّا ينسى، وإمَّا يلزَمُ السُّلطانَ، فيذهب علمُه»[2].

ولكن إذا بذلتَ العلم وقدَّمت النَّصيحة إلى الآخرين زاد علمُك ونمى، وهذا من جزاء الحسنة بالحسنة، فمن أحبَّ الخير لعباد الله وفَّقه الله للخير، كما قال تعالى: ﴿ **هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ** ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وجرى لك ثوابه بعد موتك للحديث: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثلاثةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[3].

وقوله: «**والأستاذَ فَاحْتَرِمِ**»؛ وهذا مهمٌّ جدًّا في الطَّلب: أن يكون طالب العلم على قدر عال من الاحترام لمعلِّمه.

وعلى قدر هذا الاحترام تتحقَّق الفائدة ويعظُم الخير، والعكس بالعكس.

قال الشَّيخ محمَّد بن مانع رَحِمَهُ اللهُ: «ولا ينبغي له أن يكون لئيمًا يغتاب معلِّمه ومن يشاركه في الدَّرس من الطَّلبة، ويقابل الحسنة بالسَّيِّئة، كما شاهدنا

(١) «ديوان أبي إسحاق الإلبيري» (ص ٢٦).

(٢) «سير أعلام النُّبلاء» (٨/ ٣٩٨).

(٣) رواه مسلم برقم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ذلك من كثير من الطُّلاب، حتَّى حُرموا العلمَ بسبب ذلك، بل الواجبُ عليه الاعتراف بفضله، والدُّعاء له، ونشر محاسنه، والكفُّ عن مساوئه»[1].

ولهذا يخصِّص أهل العلم في كُتُب الآداب فصولًا في أدب طالب العلم مع شيخه، وحديثُ جبريل فيه جملةٌ من هذه الآداب.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٦٥- ومَرْحَبًا قُلْ لِمَنْ يَأتِيكَ يَطْلُبُهُ     وفِيهِمُ احْفَظْ وَصايَا المُصْطَفَى بِهِمِ**

أي إذا أصبحت مؤهَّلًا للتَّعليم، وأتاك طلَّاب العلم يتلقَّون العلمَ على يديك؛ فعليك أن تُقابلهم بصدرٍ رَحِبٍ، ولتكن نفسك معهم طيِّبةً، ومعاملتك معهم حسنةً، تتلقَّاهم بالبِشْرِ والحفاوة والتَّرحيب؛ لأنَّهم تغرَّبوا عن أوطانهم وتركوا ديارهم، وعطَّلوا كثيرًا من مصالحهم رغبةً في هذا العلم، فهم جاؤوا لأمرٍ شريف، ومقصدٍ نبيل، فأمثال هؤلاء حقُّهم أن يُتلقَّوْا بالتَّرحيب وحسن المعاملة؛ ولهذا في تراجم أهل العلم يذكر في أوصاف بعضهم أنَّه كان حَسَن التَّودُّد، وهذه خصلة طيِّبةٌ مهمَّةٌ في العالم والأستاذ؛ أن يكون حسن التَّودُّد بالبشاشة والطَّلاقة والابتسامة وحسن المعاملة.

روى الإمام أحمد بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم قال: نزل علينا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالكوفة، قال: فكان بينه وبين مولانا قَرابة (وهو مولى الأَحْمَس)، فاجتمعت أَحمس، قال قيس: فأتينا نسلِّم عليه، فقال له أبي: يا أبا هريرة! هؤلاء أنسباؤك أَتَوْكَ يسلِّمون عليك، وتحدِّثُهم عن رسول الله ﷺ،

(١) «إرشاد الطُّلَّاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب» (ص٨٢).

قال: «مرحبًا بهم وأهلًا»[1].

فهذا التَّرحيب الرَّفيع يزيد من همَّة الطَّالب ويقوِّي رغبتَه، ولهذا أوصى النَّبيُّ ﷺ بأن يُتلقَّى طلَّاب العلم بالتَّرحيب، وكان هذا من هديه إذا أتته الوفود لطلب العلم والأخذ عنه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، فلمَّا جاءه وفد عبد القَيس ـ والحديث في «الصَّحيحين» ـ قال: «**مَرْحَبًا بِالقَوْمِ غَيْر خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»[2].

و«مرحبًا»؛ هي كلمة ترحيب، أي حَلَلْتَ في مكان رَحب وبين إخوة يحبُّونك.

«**وفِيهِمُ احْفَظْ وَصَايَا المُصْطَفَى بِهِم**»؛ أي كلُّ ما أوصى به النَّبيُّ ﷺ في حقِّ طالب العلم فاحفَظه، ومن ذلك التَّرحيب بطالب العلم، وأن يتلقَّى بهذه الكلمة الطَّيِّبة: «مرحبًا».

والنَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ يشير إلى ما رواه التِّرمذي وابن ماجه من طريق أبي هارون العبدي، قال: كنَّا نأتي أبا سعيد فيقول: «مرحبًا بوصيَّة رسول الله ﷺ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ، وَإِنَّ رِجَالًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرَضِينَ؛ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا**»[3].

---

(١) «المسند» (٧٩٨٦).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٣)، ومسلم برقم (١٧) من حديث أبي جمرة عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه التِّرمذي برقم (٢٦٥٠)، وابن ماجه برقم (٢٤٧).

وفي إسناده أبو هارون العبدي وهو ضعيف؛ ولكن له طريق آخر عند الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٦٤) عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري أنَّه قال: مرحبًا بوصيَّة رسول الله ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يوصينا بكم»، وصحَّحه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذَّهبيُّ. =

فهذه وصيَّة ثابتة عن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بطلَّاب العلم، ولم يحدِّد شيئًا معيَّنًا يوصي نحوهم به وهذا يفيد العموم يفيده تنكير «خَيْرًا»، فشمل ذلك كلَّ ما يمكن أن يقدِّمه العالم من خير قوليٍّ أو فعليٍّ لطلَّاب العلم.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٦٦- والنِّيَّةَ اجْعَلْ لِوَجْهِ اللهِ خالـصَةً     إنَّ البِنـاءَ بـدونِ الأصْـلِ لَمْ يَقُـمِ**

أي: اجعل نيَّتك خالصةً لوجه الله، وفي الحديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[1].

وطلب العلم عبادةٌ، كما قال الإمام الزُّهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عُبد الله بمثل العلم»[2]، والعبادة لا تُقبل إلَّا بالإخلاص لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فعلى طالب العلم أن يصحِّح نيَّته في كلِّ وقت وحين بمجاهدة مستمرَّة للنَّفس، يقول سفيان الثَّوري: «ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نيَّتي؛ لأنَّها تنقلب عليَّ»[3]، فالشَّيطان يأتي طالبَ العلم إذا جلس في مجالس العلم يقول: اجتَهد حتَّى يقال:

---

= وقال العلائيُّ في «بغية الملتمس»: «إسناده لا بأس به»، وللحديث طرق أخرى ذكرها الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» برقم (٢٨٠).

(١) رواه البخاري برقم (١)، ومسلم برقم (١٩٠٧).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٤٦٩٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٠).

(٣) «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب البغدادي (٦٩٢).

عالم! حتَّى يكون لك شهرةٌ! حتَّى يكون لك صيتٌ! وينفخ فيه ليفسد عليه نيَّته، ولهذا فالنِّيَّة تحتاج إلى معالجة، والطَّالب يحتاج أن يصحِّح نيَّته دائمًا، وأن يبعِدَ نفسَه عن الرِّياء والسُّمعة وحبِّ الظُّهور وحبِّ الشُّهرة وما إلى ذلك، ويجعل طلبه للعلم من جملة أعمالِه الصَّالحة الَّتي يتقرَّب بها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «العلمُ لا يعدلُه شيءٌ»[1]. وقال مهنا: «قلتُ لأحمد: حدِّثنا ما أفضلُ الأعمال؟ قال: طلبُ العلم، قلت: لمن؟ قال: لمن صحَّت نيَّتُه. قلتُ: وأيُّ شيءٍ يصحِّح النِّيَّة؟ قال: ينوي؛ يتواضعُ فيه ويَنفي عنه الجهلَ »[2].

«**إنَّ البِنَاءَ بدُونِ الأصْلِ لمْ يَقُمِ**»؛ أي لا يقوم البناء إلَّا على أصوله وأعمدتِه، فكذلك الدِّين لا يقومُ إلَّا على أصله وعماده، ألا وهو الإخلاص لله ـ جلَّ وعلا ـ وابتغاء وجهه ـ تبارك وتعالى ـ.

و«الإخلاص»: هو قصد وجه الله ـ تعالى ـ وحده، وهو التَّوحيد.

وفي هذا إشارةٌ إلى أهمِّيَّة علم التَّوحيد، فكما أنَّ البيت لا يقوم إلَّا على عماده، والشَّجرة لا تقوم إلَّا على أصلها؛ فكذلك بناء الدِّين لا يقوم إلَّا على أصله وأساسه وهو التَّوحيد، فإذا لم يكن العلمُ قائمًا على التَّوحيد فلا نفع فيه.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ محذِّرًا من بعض الأمور الَّتي تخرم النِّيَّة الصَّالحة:

**٦٧- وَمَن يَكُنْ لِيَقُولَ الناسُ يَطْلُبُهُ ... أخْسِرْ بِصَفْقَتِهِ فِي مَوْقِفِ النَّدَمِ**

(١) انظر: «الآداب الشَّرعيَّة» لابن مفلح (٢/ ٣٥).

(٢) نفسه (٢/ ٣٧).

قوله: «**ومَنْ يكُن ليقولَ النَّاسُ يَطْلُبُهُ**»؛ أي: من يطلب العلم؛ لأجل أن يقول النَّاس عنه طالب علم أو عالم أو فقيه، أو يقال عنه كذا وكذا من الأوصاف والألقاب، فإنَّ صفقتَه خاسرةٌ يوم القيامة، وإن حصَّل شيئًا من حطام الدُّنيا.

«**أَخْسِر بصَفْقَتِه**»؛ أي قُلْ ما أخسَر صفقتَه يومَ القيامة عندما يحصِّل النَّاس الأجور على الجدِّ والاجتهاد، وأمَّا هو لا يحصِّل شيئًا على جدِّه واجتهاده؛ لأنَّه لم يطلب العلم لوجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وإنَّما طلبه ليقال عالم، ولهذا جاء في الحديث الَّذي يرويه الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأتى بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أمرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّه فَأتى بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِر بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»[1].

(١) رواه مسلم برقم (١٩٠٥).

فهذا اجتهد في الحياة الدُّنيا حفظًا وتعلُّمًا وتفقُّهًا ومجالسةً لأهل العلم وكتابةً للعلم، وبذل في ذلك جهودًا كثيرة ثمَّ يأتي يوم القيامة ويُسحب إلى النَّار، بل يكون من أوَّل من تُسَعَّرُ بهم النَّار؛ لفساد نيَّتِه.

قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لهذا الحديث: «فيه دليلٌ على تغليظ تحريم الرِّياء، وشدَّة عقوبته، والحثِّ على وجوب الإخلاص في الأعمال كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ**﴾ [البينة: ٥]، وفيه أنَّ العمومات الواردة في فضل الجهاد إنَّما هي لمن أراد الله ـ تعالى ـ بذلك مخلصًا، وكذلك الثَّناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات كلُّه محمولٌ على من فعل ذلك لله تعالى مخلصًا»[(١)] انتهى.

وقوله في تمام البيت «**في مَوْقِفِ النَّدَم**»؛ أي يوم القيامة، حيث يندم أكثر الخلق، ولا ينفعهم يومئذٍ ندمهم.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٦٨- ومَنْ بهِ يَبْتَغِي الدُّنْيا فَلَيْسَ لَهُ ... يَومَ القِيامَةِ مِن حَظٍّ ولا قَسَمِ**

«**ومَنْ بهِ يَبتَغِي الدُّنْيَا**»؛ أي يطلب العلم للدُّنيا؛ كالرِّئاسة والزَّعامة والمال والجاه والمناصب إلى غير ذلك.

«**فليسَ له يومَ القيامَةِ مِنْ حَظٍّ وَلا قَسَمِ**»؛ أي ليس له يوم القيامة حظٌّ ولا نصيب من ثواب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأجرِه؛ لأنَّه كان يريد به الدُّنيا،

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (٣/ ١٥١٣).

وسيشير النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى بعض الأدَّلة في هذا الباب، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، أي ريحَها، رواه أبو داود وابن ماجه، وصحَّحه ابن حبَّان والحاكم(١).

ثمَّ ذكر النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ الأدلَّة على ذلك، فقال:

**٦٩- كَفَى بِـ(مَن كانَ) فِي شورَى وهُـودٍ وفِي الـ ... إسْراءِ مَوْعِظَـةً لِلحَـاذِقِ الفَهِـمِ**

أي يكفي دليلًا على ما قرَّر في البيت السَّابق قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ**﴾ في هذه السُّور الثَّلاث في سورة الشُّورى، وفي سورة هود، وفي سورة الإسراء.

في سورة الشُّورى قال جلَّ وعلا: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾ [الشورى: ٢٠]، وفي سورة هود قال الله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [هود: ١٥-١٦]، وفي سورة الإسراء قال جلَّ وعلا: ﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا**﴾ [الإسراء: ١٨]، فهذه ثلاثة مواضع في القرآن كلُّها صُدِّرت بقوله: ﴿**مَن كَانَ**﴾، وكلُّها تبيِّن أنَّ من يبتغي

---

(١) «سنن أبي داود» برقم (٣٦٦٤)، و«ابن ماجه» برقم (٢٥٢)، و«صحيح ابن حبَّان» برقم (٧٨)، و«المستدرك» (١/ ١٦٠).

بالعلم الدُّنيا فليس له يوم القيامة من حظٍّ ولا نصيب.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٧٠- إِيَّاكَ واحْذَرْ مُمَارَاةَ السَّفِيهِ بِـهِ    كَـذا مُباهـاةَ أَهْـلِ العِلْـمِ لا تَـرُمِ**

جاء في «جامع» التِّرمذي عن كعب بن مالك، عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ**»[1] ؛ ولهذا قال النَّاظم: «**إِيَّاكَ واحْذَرْ مُمَارَاةَ السَّفِيهِ بِهِ**»؛ أي لا يكن مِن مسلَكِك في العلم أن تحصِّله وتطلبه من أجل مماراة السُّفهاء أو من أجل مباهاة العلماء، يتباهى بعلمه في مجالس أهل العلم أو يبرز نفسَه ليُقال هو أعلم من العالم الفلاني وأدرى منه، فإنَّ هذا ممَّا يخرمُ النِّيَّة، وبعض المبتلين بهذا ربَّما أنَّه يبحث مسألة من الدَّقائق، ويحرصُ على إتقانها ثمَّ يثيرها في بعض المجالس وليس له همٌّ في تدقيق هذه المسألة وبحثها، والتَّوسُّع فيها إلَّا أن يبرز من أجل المباهاة، وآخر يبحث في المسائل من أجل مماراة السُّفهاء والخصومات والجدل.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٧١- فإنَّ أَبْغَضَ كلِّ الخَلْقِ أَجْمَعِهِـمْ    إلى الإلَـهِ أَلَـدُّ النَّـاسِ فِي الخِـصَمِ**

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٤) وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم تُكلِّم فيه من قبل حفظه».
وحسَّنه الشَّيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» برقم (٦٢٥٩).

كما في حديث عائشة رضي الله عنها المتَّفق على صحَّته أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ**»[1].

«**الألدُّ**»: مأخوذٌ من لَديدَي الوادي وهما جانباه؛ لأنَّه كلَّما احتجَّ عليه بحجَّة أخذ في جانب آخر، وقيل: مشتقٌّ مِن لَديدَيِ العنق وهما صَفحتاه؛ و«**الخصم**»: المولَع بالخصومة، والماهر بها[2].

فمن كان بهذه الصِّفة صاحبَ لَدَدٍ في الخصومة، يتفنَّن، وعنده مهارة يذهب بخصمه هنا وهناك، همُّه أن يظهَر ويغلبَ ويُفحِمَ خصمَه، فمن كان بهذه الصِّفة فهو أبغض الرِّجال إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد قال الله في القرآن في سورة البقرة: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٧٢- والعُجْبَ فاحْذَرْهُ إنَّ العُجْبَ مُجْتَرِفٌ    أعْمالَ صاحِبِهِ في سَيْلِهِ العَرِمِ**

«**والعُجْبَ فاحْذَرْهُ**»؛ هذا ـ أيضًا ـ من الأمور الَّتي تخلُّ بالنِّيَّة، والعُجب: رؤية النَّفس والتَّعالي على النَّاس والتَّرفُّع عليهم، وهو خلقٌ ذميمٌ لا يليق بآحاد النَّاس من المسلمين؛ فكيف بطالب العلم الَّذي أكرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعلم ومَنَّ عليه بالفهم والفقه، وطالب العلم كلَّما كان مستشعرًا منَّة الله عليه

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٥٧)، ومسلم برقم (٢٦٦٨).

(٢) راجع «شرح النَّووي على مسلم» (١٦/ ٢١٩).

وتفضُّله عليه بالعلم، وأنَّه لولا فضلُ الله عليه ورحمتُه ما حصَّل من العلم شيئًا؛ ذهب عنه العُجب، وعُمِر قلبه بالإخلاص.

ولهذا؛ فإنَّ دواء العُجب كما في القرآن أن تقول: «ما شاء الله لا قوَّة إلَّا بالله»: ﴿ **وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا** ﴾ [الكهف: ٣٩]، أن تذكر نعمة الله عليك، وأنَّ الأمور كلَّها بمشيئته، وأنَّه لا قوَّة لك إلَّا بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ المعطي المانع الرَّافع الخافض القابض الباسِط، والأمر كلُّه بتدبيره ومنِّه وفضله جلَّ وعلا.

ثمَّ بيَّن ـ رحمة الله عليه ـ خطورةَ العُجبِ الشَّديدةَ على الإنسان بقوله: «**إنَّ العُجْبَ مُجْتَرِفٌ أعْمالَ صاحِبِهِ في سَيْلِهِ العَرِمِ**»

فشبَّه العُجب بالسَّيل الجارف العَرِم الَّذي يدمِّر ما أمامه، فالإنسانُ عندما يُصاب بداء العُجب؛ يجترفُ أعمالَه الصَّالحةَ كلَّها فلا يبقي منها شيئًا.

أورد الحافظ المنذري في كتابه «التَّرغيب والتَّرهيب» تحت باب «التَّرهيب من الدَّعوى في العلم والقرآن»، أورد فيه أحاديث؛ منها حديث عمر ابن الخطَّاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَظْهَرُ الإِسْلَامُ حَتَّى تَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي البَحْرِ، وَحَتَّى تَخُوضَ الخَيْلُ فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَؤُنَ القُرْآنَ يَقُولُون: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟! مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟! مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟!**» **ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: «هَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قال: «أُولَئِكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**».

قال المنذري: «رواه الطَّبراني في «الأوسط»، والبزَّار بإسناد لا بأس به»، وحسَّنه الألبانيُّ لغيره رَحِمَهُ اللهُ[1].

والعُجب عندما يُصاب به طالبُ العلم يجرُّه إلى الكِبْر، وإلى التَّعالي على النَّاس، والتَّرفُّع على عباد الله، والعلوِّ في الأرض، وقد جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[2].

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٧٣- وبِالمُهِمِّ المُهِمِّ ابْدَأْ لِتُدْرِكَهُ ... وَقَدِّمِ النَّصَّ والآرَاءَ فَاتَّهِمِ**

هذه وصيَّةٌ عظيمةٌ جدًّا، ما أحوج طالبَ العلم المبتدئ لمعرفتِها.

وكثيرًا ما يتخبَّط المبتدئون في هذا الأمر، وربَّما تسبَّب لهم ذلك بعدم المواصلة والمضيِّ في طلب العلم، بينما إذا أخذ الأمور مأخذًا صحيحًا، وأتى الأمور من أبوابها الصَّحيحة؛ أدرك بإذن الله ـ جلَّ وعلا ـ مع الأيَّام والوقت خيرًا عظيمًا.

«**وبِالمُهِمِّ المُهِمِّ ابْدَأْ لِتُدْرِكَهُ**»؛ أي العلم وتحصِّل منه خيرًا كثيرًا، تدرَّج في طلبه، وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ لطالب العلم وهي مستفادةٌ من قوله تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا**﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقول الله جلَّ وعلا: ﴿**ٱلَّذِينَ**

(١) «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» رقم (١٣٥).

(٢) رواه مسلم برقم (٩١).

يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨].

وفي هذا المعنى يقول الشَّاعر:

مـا أكثـرَ العلـمَ ومـا أوسـعَهُ    مَـنْ ذا الَّـذي يَقـدِرُ أن يجمَعَـه
إن كنـتَ لا بـدَّ لَـهُ طالِبًـا    محُـاولا فَـالْتَمِس أنفَعَـه

ولهذا؛ فإنَّ طالب العلم ينبغي له أن يتدرَّج في أخذ العلم، لا أن يروم أخذه جملةً واحدةً، وحفظَه في مرَّة واحدة أو في جلسات قلائل، بل يتدرَّج في مسائل العلم شيئًا فشيئًا حتَّى يحصِّلَ مع مرِّ الأيَّام منه خيرًا كثيرًا.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، نُقل عن بعض السَّلف أنَّه قال في معنى الرَّبَّاني، قال: «الَّذي يربِّي النَّاس بصغار العلمِ قبل كِبَاره»، ذكره البخاريُّ في «صححيه»(١)، قال الحافظ في «مقدِّمة الفتح»(٢): «أي بالتَّدريج».

وهذا أمر يحتاج إليه المبتدئ حاجةً شديدة، وإذا وفِّق لعالم يتدرَّج به في طلب العلم؛ يحصِّل ـ بإذن الله ـ مع الأيَّام خيرًا كثيرًا.

قد يسأل بعض المبتدئين بعض طلَّاب العلم عمَّا يبدأ به في الطَّلب، فيُملي

---

(١) تحت باب: العلم قبل القول والعمل (ص١٦)/ ط. دار السَّلام.

(٢) (ص١٢١).

عليه كتبًا كثيرةً! ومثل هذا لا يصلُح أن يُملى عليه قائمةٌ من الكتب، بل يُعطى كتابًا واحدًا فيه أمَّهات مسائل الدِّين وأصوله وقواعد الشَّريعة، ويوصى بحفظه وتكراره حتَّى يكون له كالقاعدة، ثمَّ بعد ذلك يدخل شيئًا فشيئًا بالتَّدريج، ولهذا أحسنُ ما يوصى به المبتدئ «الأربعين النَّوويَّة»، ولا يعطى غيرها، ثمَّ بعد ذلك يُتدرَّج معه في الكتب: في التَّوحيد، وفي العبادات، وفي الآداب، وفي التَّفسير، وفي الفقه، وغير ذلك.

جاء عن الإمام الزُّهري ـ رحمة الله عليه ـ أنَّه قال: «مَن طلبَ العلمَ جملةً فاتَه جملةً، وإنَّما يُدرك العلم حديث وحديثان»[(١)].

أي يمضي به بالتَّدريج شيئًا فشيئًا، وهذا المعنى مستفادٌ من قول النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**» متَّفق عليه[(٢)].

تَحفظُ في اليوم حديثًا واحدًا، وتستمرُّ على هذا، خيرٌ من أن تحفَظ في اليوم الواحد مائة حديث وتقف، فالشَّيءُ الَّذي يأتي بالتَّدريج، بالصَّبر والأناة والإتقان، هو الَّذي يكون له بإذن الله عَزَّوَجَلَّ الثَّمرة النَّافعة والعاقبة الطَّيِّبة، يقول الشَّاعر:

اليــــومَ شيءٌ وغـــــدًا مثلُـــــه ... مــن نُخَــب العلــم الَّتــي تُلـتَقط
يحـــصِّل المـــرءُ بهـــا حكمـــةً ... وإنَّـــما الـــسَّيلُ اجـــتماعُ الـــنُّقط

---

(١) «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب البغدادي (٤٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٢)، و«صحيح مسلم» برقم (٧٨٣) ـ واللفظ له ـ عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا.

ثمَّ قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَقَدِّمِ النَّصَّ والآرَاءَ فَاتَّهِمِ**»؛ وهذا فيه الحثُّ على تقديم الكتاب والسُّنَّة على الآراء، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّهموا الرَّأي على الدِّين»[1]، وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو كان الدِّينُ بالرَّأي لكان باطن الخفِّ أحقَّ بالمسح من أعلاه»، وأثر عليٍّ في «مسند أحمد» و«سنن أبي داود»[2]، وقال عنه الحافظ في «الفتح»[3]: «رجال إسناده ثقاتٌ»، وحسَّن إسناده في «بلوغ المرام»[4]، وأيضًا: جوَّد إسناده ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «إعلام الموقِّعين»[5] في أوائل الكتاب، وله كلامٌ عظيم جدًّا وتقسيمٌ مفيد حول الرَّأي المذموم.

والواجب على طالب العلم أن يقدِّم النَّصَّ (كلام الله وكلام رسوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ)، وأن يتَّهم الرَّأي في الدِّين، والأمر كما قيل: «إذا جاء الأثر بطل النَّظر، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل».

ومن أراد الاعتبار في هذا الباب؛ فلينظر إلى قصَّة الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع النَّبيِّ ﷺ يوم صلح الحديبية، يقول سهل بن حُنَيْف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أيُّها النَّاس! اتَّهموا أنفسكم، فإنَّا كنَّا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نَرى قتالًا لقاتلنا،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصَّحابة» برقم (٥٥٨)، واللَّالكائي في «أصول الاعتقاد» برقم (٢٠٨).

(٢) «المسند» برقم (٧٣٧) ، و«سنن أبي داود» برقم (١٦٢)، وصحَّحه الشَّيخ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «إرواء الغليل» برقم (١٠٣).

(٣) (٤/ ١٩٢).

(٤) رقم (٥٧).

(٥) (١/ ٦٠).

فجاء عمر بن الخطَّاب فقال: يا رسول الله! ألسنا على الحقِّ وهم على الباطل؟! فقال: «بَلَى»، فقال: أليس قتلانا في الجنَّة وقتلاهم في النَّار؟! قال: «بَلَى»، قال: فَعَلَامَ نُعطي الدَّنِيَّة في ديننا، أنرجع ولَمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟! فقال: «**يَا ابْنَ الخَطَّابِ! إِنِّي رَسُولُ الله وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا**»، فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنَّبيِّ ﷺ فقال: إنَّه رسولُ الله، ولن يضيِّعه الله أبدًا، فنزلت سورة الفَتح، فقَرأها رسول الله ﷺ على عمرَ إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله! أوَ فتحٌ هو؟ قال: «**نَعَمْ**»، والحديث متَّفق عليه[1].

فطالبُ العلم واجبه تقديم النُّصوص، وأن يتَّهم الرَّأي في الدِّين، وأن يقدِّم كلامَ ربِّه وكلامَ رسولِه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ [النساء: ٥٩].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٧٤- قَدِّمْ وُجوبًا عُلومَ الدِّينِ إنَّ بِها     يَبِينُ نَهجُ الهُدَى مِن مُوجِبِ النِّقَمِ**

أي: عندما تشرع في الطَّلب والتَّحصيل؛ قدِّم علوم الدِّين على العلوم الدُّنيويَّة، وخاصَّة ضروريَّات الدِّين، وما لا يتمُّ الواجب إلَّا به، فهذه كلُّها مقدَّمة، وبها يبدأ قبل تعلُّم أيِّ أمر آخر.

«**وجوبًا**»؛ أي ليس استحبابًا، وإنَّما هو واجب.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣١٨٢)، ومسلم برقم (١٧٨٥).

«**إنَّ بها يَبِينُ نَهجُ الهُدَى مِن مُوجِبِ النِّقَمِ**»؛ أي إنَّ علوم الدِّين هي الَّتي يميِّز بها طالبُ العلم بين الحقِّ والباطل، والهدى والضَّلال، والسُّنَّة والبدعة، والطَّيِّب والخبيث.

**٧٥- وكلُّ كَسْرِ الفَتَى فالدِّينُ جابِرُهُ وَالكَسْرُ فِي الدِّينِ صَعْبٌ غَيْرُ مُلْتَئِمِ**

يقول: انتبه يا طالب العلم! «**كلُّ كَسْرِ**» وكلُّ مصيبة يُصاب بها الإنسان في غير الدِّين يجبرها الدِّين، كما يوضِّح ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّه خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[(١)].

بينما إذا كان كُسِر الإنسانُ ـ والعياذ بالله ـ في دينه؛ فهذا أمر صعبٌ جدًّا، وهو غير ملتئِم إلَّا إنْ مَنَّ الله عليه بالتَّوبة وهداه للأوبة.

فقوله: «**وَالكَسْرُ فِي الدِّينِ صَعْبٌ غَيْرُ مُلْتَئِمِ**»؛ فيه أنَّ المصائب متفاوتة، وأنَّ أعظمَ المصائب المصيبةُ في الدِّين، وقد جاء في الدُّعاء عن نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**» رواه التِّرمذيُّ[(٢)] وحسَّنه.

ومعنى قوله: «**وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا**»؛ أي لا تصبنا بما ينقص ديننا ويذهبه؛ من اعتقادٍ سيِّءٍ أو تقصيرٍ في الطَّاعة أو فعلِ محرَّمٍ، وذلك لأنَّ المصيبة

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٩٩).

(٢) في «الجامع» برقم (٣٥٠٢).

في الدِّين أعظمُ المصائب وليس عنها عوضٌ، بخلاف المصيبة في الدُّنيا كما قيل:

من كـلِّ شيءٍ إذا ضـيَّعتَه عِـوَض ... وليس في الله إن ضيَّعتَ من عِـوَض

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٧٦- دَعْ عَنْكَ ما قالَهُ العَصْرِيُّ مُنْتَحِلًا ... وبـالعَتِيقِ تَمَـسَّكْ قـطُّ واعْتَـصِمِ**

«**دَعْ**»؛ أي احذرْ وتجنَّب «**ما قالَه العَصْريُّ**»؛ أي: أهل العصر وأهل الزَّمان، والمراد بالعصريِّ الَّذي ليس له ارتباطٌ بعلوم السَّلف، وأمَّا العالم مِن أهل العصر المتمسِّك بنهج السَّلف والماضي على جادَّتهم، فيحرصُ على الأخذ عنه والتَّلقي منه.

وقوله: «**منتحلًا**»؛ يعني ينتحلُ العلمَ وينتسبُ إلى السُّنَّة، وليس واقعُه كذلك، وإنَّما يدَّعي ذلك ادِّعاءً.

قال: «**وبالعَتِيقِ تَمَسَّكْ قطُّ واعْتَصِمِ**»؛ يعني كُنْ دائمًا متمسِّكًا بالعتيق، جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال: «مَنْ كان مُسْتَنًّا فليستنَّ بِمَنْ قد مات؛ فإنَّ الحيَّ لا تؤمَنُ عليه الفتنة، أولئك أصحابُ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا أفضلَ هذه الأمَّة أبرَّها قلوبًا وأعمقَها علمًا وأقلَّها تكلُّفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولإقامة دينِه فاعرفُوا لهم فضلَهم واتَّبعوهم في آثارهم، وتمسَّكوا بما استطعتُم من أخلاقِهم وسِيَرهم؛ فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم»[1]، وجاء عنه ـ أيضًا ـ أنَّه قال: «عليكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضُه أن يُذهَب بأصحابه، عليكم

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٥)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١٨١٠).

بالعلم فإنَّ أحدَكم لا يدري متى يُفتقَر إليه أو يُفتقر إلى ما عنده، إنَّكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنَّهم يَدعونكم إلى كتاب الله وقد نبَذوه وراء ظهورهم! فعليكم بالعلم، وإيَّاكم والتَّبدُّع! وإيَّاكم والتَّنطُّع! وإيَّاكم والتَّعمُّق! وعليكم بالعَتيق» رواه الدَّارميُّ[1].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٧٧- ما العِلْمُ إلَّا كِتابُ اللهِ أو أثَـرٌ   يَجْلـو بِنُـورِ هُـداهُ كُـلَّ مُنْـبَهِمِ**

حقيقة العلم الَّذي ينبغي أن يُقْبِلَ عليه الطَّالب، ويسعى في تحصيله الرَّاغب لزوم الكتاب والسُّنَّة، جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «العلم ثلاثة: كتابٌ ناطق، وسُنَّة ماضية، ولا أدري» رواه الطَّبرانيُّ[2].

وقد أنشد بعضُهم:

العلـمُ قـال الله قـال رسـولُه   قـال الـصَّحابةُ لـيس خُلْـفٌ فيـه
ما العلمُ نصبك للخـلاف سـفاهةً   بـين النُّـصوص وبـين رأي سَـفيه
كـلاَّ ولا نـصبَ الخـلاف جهالـةً   بـين الرَّسـول وبـين رأي فقِيـه

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٧٨- مَا ثَمَّ عِلْمٌ سِوى الوَحْيِ المُبِينِ ومَـا   مِنْـهُ اسْـتُمِدَّ ألا طُـوبَى لِمُغْتَـنِمِ**

---

(١) برقم (١٤٢)، وفي إسناده انقطاع.

(٢) في «المعجم الكبير» برقم (٢٥١)، وقوَّاه الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (٨/ ٤١١).

«**مَا ثَمَّ عِلْمٌ سِوى الوَحْيِ المُبينِ**»؛ أي كتاب الله وسنَّة نبيِّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، «**وما منه استمدَّ**»؛ أي ما كان مستمدًّا من الوحي، متلقًّى منه، «**ألا طوبَى لمغْتَنِمِ**»؛ أي مغتنمٍ أوقاته في تحصيل هذا العلم المبارك والخير العظيم.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٧٩- والكَتْمَ لِلعِلْمِ فاحْذَرْ إنَّ كاتِمَـهُ فِي لَعْنَـــةِ اللهِ والأقْـــوامِ كلِّهِـــمِ**

أي: احذر أن تكتُم العلمَ عن أهله والمحتاجين إليه والرَّاغبين في تحصيله، ثمَّ بيَّن العقوبة: «**إنَّ كاتِمَهُ فِي لَعْنَةِ اللهِ والأقْوامِ كلِّهِم**»؛ يشير إلى قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة البقرة: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩]، وجاء في «الصَّحيحين»(١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه كان يقول: «إنَّ النَّاس يقولون: أكثرَ أبو هريرة! ولولا آيتان في كتاب الله ما حدَّثتُ حديثًا، ثمَّ يتلو هذه الآية: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩]، والآية الَّتي تليها: ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٦٠].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٨٠- ومِـن عُقوبَتِـهِ أنْ فِي المَعـادِ لَـهُ مِـنَ الجَحـيمِ لِجَامًـا لَـيْسَ كَـاللُّجُمِ**

---

(١) رواه البخاري برقم (١١٨)، ومسلم برقم (٢٤٩٣).

«**ومِن عُقُوبَتِه**»؛ يعني كتم العلم: «**أَنْ في المَعَاد لَهُ مِنَ الجَحِيمِ لجامًا ليْسَ كاللُّجُم**»؛ أي أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أعدَّ لكاتم العلم يوم القيامة لجامًا؛ لكن ليس كاللُّجم المعروفة الَّتي تكون من الجلد ونحو ذلك؛ لكنَّه لجامٌ من النَّار، يشير بذلك إلى ما رواه أبو داود والتِّرمذي وحسَّنه، وصحَّحه ابن حبَّان والحاكم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**» رواه ابن حبَّان والحاكم(٢).

فواجبُ مَن أكرمه الله ـ تعالى ـ بالعلم إذا سُئل عنه؛ أن يبيِّنه وأن لا يكتمه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثمَّ ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ احترازًا في هذا الباب حتَّى لا يُظَنَّ أنَّ هذا داخلٌ في كِتمان العلم قال:

**٨١- وصائِنُ العِلْمِ عمَّنْ لَيْسَ يَحْمِلُهُ ... ما ذا بِكِتْمانِ(٣) بلْ صَوْنٌ فَلا تَلُمِ**

إذا كان الغرض صيانة العلم بأن يُسأل فلا يجيب، فليس هذا من باب

---

(١) «سنن أبي داود» برقم (٣٦٦٠)، و«التِّرمذي» برقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه برقم (٢٦٦)، و«صحيح ابن حبَّان» برقم (٩٥)، و«المستدرك» (١/ ١٨٢).

(٢) «صحيح ابن حبَّان» برقم (٩٦)، و«المستدرك» (١/ ١٨٢).

(٣) لم تصرف مراعاة للوزن العروضي.

الكتمان، وإنَّما هو من باب صيانة العلم، فمثل هذا لا يعدُّ كتمانًا له.

مثل من يَسأل لا للفائدة؛ وإنَّما يسأل للوقيعة أو يسأل لأمور أخرى ومآرب دنيئة وإشاعة للباطل، فهذا لا يُجاب ولا يعدُّ ذلك من كتمان العلم.

«**فَلا تَلُمِ**»؛ أي لا تلم العالم إذا صان العلمَ ولم يبيِّنه لهذا الغرض، ولهذا المقصَد.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٨٢- وإنَّمَا الكَتْمُ مَنْعُ العِلْمِ طالِبَهُ مِن مُستَحِقٍّ لَهُ فَافْهَمْ ولا تَهِمِ**

هذا القيد: «**مِن مُسْتَحِقٍّ لَهُ**» يوضِّح أنَّ كَتم العلم يذمُّ إذا كان بهذه الصِّفة، أمَّا كتمُه عن غير المستحقِّ فلا يعدُّ كتمانًا، ولا يذمُّ.

«**ولا تَهِم**»؛ أي لا تقع في الوهم في هذا الباب، وتخلط الأمورَ، وتجعل صيانةَ العلم نوعًا من كتمان العلم.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٨٣- وأتْبِعِ العِلمَ بالأعْمالِ وادْعُ إلَى سَبيلِ ربِّكَ بالتِّبْيانِ والحِكَمِ**

«**وأتبع العلم بالأعمال**»؛ أي عليك بالعناية بالعمَل، ومقصود العلم العمل، وهذا باب عظيم ومهمٌّ للغاية، قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَهتفُ العلمُ بالعمل، فإن أجابَه وإلَّا ارتَحل»(١).

وللخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ مؤلَّف عظيمٌ في هذا الباب سمَّاه «اقتضاء العلم العمل»، أورد فيه نصوصًا كثيرة من السُّنَّة، وأثارًا عن السَّلف، جديرٌ

---

(١) رواه ابن عساكر في «ذمّ من لم يعمل بعلمه» (ص٣٨).

بطالب العلم أن يقفَ عليه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «اقتضاء العلم العمل»:

«إنِّي موصيك ـ يا طالبَ العلم ـ بإخلاص النِّيَّة في طلبه، وإجهاد النَّفس على العمل بموجبه، فإنَّ العلم شجرةٌ، والعمل ثَمَرة، وليس يُعدُّ عالمًا من لم يكن بعلمِه عاملًا.

**فلا تأنَس بالعمل ما دمتَ مستوحشًا من العلم، ولا تأنَس بالعلم ما كنت مقصِّرًا في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قلَّ نصيبُك منهما.**

وما شيءٌ أضعف من عالم ترك النَّاسُ علمَه لفساد طريقتِه، وجاهلٍ أخذ النَّاس بجهلِه لنظرهم إلى عبادتِه.

والقليلُ من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة، إذا تفضَّل الله بالرَّحمة، وتمَّم على عبده النِّعمة، فأمَّا المدافعةُ والإهمال، وحبُّ الهوينى والاسترسال، وإيثارُ الخفضِ والدَّعةِ، والميلُ مع الرَّاحة والسَّعة، فإنَّ خواتيم هذه الخصال ذميمة، وعُقباها كريهة وخيمةٌ.

والعلم يُراد للعمل كما العمل يُراد للنَّجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كَلًّا على العالم، ونعوذُ بالله من علم عاد كَلًّا وأورث ذُلًّا، وصار في رقبة صاحبه غلًّا.

وَهَلْ جَامِعُ كُتُبِ العِلْمِ إِلَّا كَجَامِعِ الفِضَّةِ وَالذَّهَبِ؟ وَهَلِ المَنْهُومُ بِهَا إِلَّا كَالحَرِيصِ الجَشِعِ عَلَيْهِمَا؟ وَهَلِ المُغْرَمُ بِحُبِّهَا إِلَّا كَكَانِزِهِمَا؟ وَكَمَا لَا تَنْفَعُ الأَمْوَالُ إِلَّا بِإِنْفَاقِهَا، كَذَلِكَ لَا تَنْفَعُ العُلُومُ إِلَّا لِمَنْ عَمِلَ بِهَا، وَرَاعَى وَاجِبَاتِهَا».

يقول: ما فائدة الذَّهب والفضَّة إذا كان يكنز الإنسان ولا يستفيد منه ولا يُنفقه؟! والعلم ما فائدتُه إذا كان يجمعُه الإنسانُ ولا يعملُ به ولا يبذُله؟!

قال: «كَذَلِكَ لَا تَنْفَعُ العُلُومُ إِلَّا لِمَنْ عَمِلَ بِهَا، وَرَاعَى وَاجِبَاتِهَا فَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ لِنَفْسِهِ، وَلْيَغْتَنِمْ وَقْتَهُ، فَإِنَّ الثَّوَاءَ قَلِيلٌ، وَالرَّحِيلَ قَرِيبٌ، وَالطَّرِيقَ مَخُوفٌ، وَالاِغْتِرَارَ غَالِبٌ، وَالخَطَرَ عَظِيمٌ، وَالنَّاقِدَ بَصِيرٌ، وَاللهُ ـ تَعَالَى ـ بِالمِرْصَادِ، وَإِلَيْهِ المَرْجِعُ وَالمَعَادُ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ[1].

وقد جاء في الحديث الصَّحيح في «التِّرمذي»[2] وغيره، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**».

وجاءت نصوص كثيرة في التَّرهيب ممَّن لا يعمل بعلمه، ومَن يقول ما لا يفعل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

وجاء في «الصَّحيحين»[3] عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي**

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص١٨).

(٢) «جامع التِّرمذي» برقم (٢٤١٦) من حديث أبي برزة رضي الله عنه؛ وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري برقم (٣٢٦٧)، ومسلم برقم (٢٩٨٩).

**النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ! مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تأمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنهَى عَنِ المُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ».**

ولهذا كان من شأن السَّلف ـ رحمهم الله ـ عند سماعهم للحديث؛ المبادرة إلى العمل به.

جاء عن سفيان الثَّوري أنَّه قال: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قطُّ إلَّا عملتُ به ولو مرَّة»[(١)].

وقوله: «ولو مرَّة» يقصد أحاديث الفضائل والرَّغائب، أمَّا أحاديث الفرائض والواجبات لا يكفي فيها إلَّا المحافظة والمداومة.

ومثله قول عمرو بن قيس الملائي: «إذا بلغَك شيءٌ من الخير فاعمَل به ولو مرَّةً، تكن من أهلِه»[(٢)].

وكان الإمام أحمد يقول: «ما كتبتُ حديثًا إلَّا وقد عملتُ به، حتَّى مرَّ بي أنَّ النَّبيَّ ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيتُ الحجَّام دينارًا حين احتجمتُ»[(٣)].

ولهذا كان من شأن السَّلف ـ رحمهم الله ـ أنَّ العلم يظهر عليهم في أخلاقهم، وفي آدابهم، وفي معاملاتهم، كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان الرَّجل إذا طلب العلم لم يَلبَثْ أن يُرى ذلك في بصره وتخشُّعه ولسانِه ويدِه

---

(١) «سير أعلام النُّبلاء» (١٣/ ٢٧٩).

(٢) «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب البغدادي (١/ ١٤٤).

(٣) المصدر السَّابق.

وصلاتِه وصلتِه وزهدِه»[1].

قال: «**وادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالتِّبْيَانِ وَالحِكَم**»؛ أي هذا العلم الَّذي أكرمَك الله به ومنَّ عليك به أبلِغْه الآخَرين، وادعُ إليه كما قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ [فصلت: ٣٣].

فحثَّ النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ على الدَّعوة إلى سَبيل الله ـ جلَّ وعلا ـ بالتِّبيان والحكم، وهذا فيه التَّنبيه على أنَّ الدَّعوة إلى الله تكون بالتِّبيان والحكم، أي بالعلم المبنيِّ على كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، ويدلُّ لذلك الآية: ﴿**أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾، أمَّا من دعا بدون بصيرة فإنَّ ما يُفسد أكثر ممَّا يُصلِح.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٨٤- واصْبِرْ عَلى لاحِقٍ مِنْ فِتْنَـةٍ وأذَى    فِيهِ وفِي الرُّسْـلِ ذِكْـرَى فاقْتَـدِهْ بِهِـمِ**

يعني اصبر على ما يلحقُك إثر الدَّعوة إلى الله من فتنة وأذى.

«**وفي الرُّسْلِ ذِكْرَى فاقْتَدِه بهِم**»: ﴿**فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ولك في الرُّسل والأنبياء أسوةٌ حسنةٌ، فقد نالهم ـ وهم خيار الخلق وأفضل النَّاس ـ من الأذى ما نالهم، فتلقَّوْا ذلك ـ عليهم السَّلام ـ بالصَّبر، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ **وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا**

---

(١) رواه الدَّارمي في «سننه » برقم (٣٨٥)، وأورده المِزِّي في «تهذيب الكمال» (٦/ ١١١) في ضمن ترجمة الحسن.

سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

ولا شكَّ أنَّ الَّذي يشتغل بالدَّعوة لابدَّ أن يعرض له شيءٌ من الأذى من المدعوِّين، وهذا يتطلَّب من الدَّاعية أن يوطِّن نفسه على الصَّبر وتحمُّل المشاقِّ في سبيل تبليغ دين الله عَزَّوَجَلَّ وإقامة الحجَّة على الخلق، اقتداءً بالأنبياء والمرسَلين، وائْتِساءً بسيِّد الخلق أجمعين الَّذي أمره ربُّه ـ جلَّ وعلا ـ بالصَّبر على أذى قومه، ومقابلة حمقِهم بالحِلم والرِّفق، كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومراعاة الصَّبر والرِّفق في الدَّعوة إلى الله له الأثر البالغ في نفُوس المدعوِّين ولاسيما في عصرنا هذا، قال الشَّيخ عبد العزيز بن بَاز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا العصر عصر الرِّفق والصَّبر والحكمة، وليس عصر الشِّدة، النَّاس أكثرهم في جهل، في غفلة وإيثارٍ للدُّنيا، فلابدَّ من الصَّبر، ولابدَّ من الرِّفق».

وإذا تأمَّلنا الأبيات المتقدِّمة نجدُ أنَّ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع فيها أمورًا أربعة على التَّرتيب:

الأوَّل: طلب العلم وتحصيله.

والأمر الثَّاني: العمل به.

والأمر الثَّالث: الدَّعوة إليه.

والأمر الرَّابع: الصَّبر على الأذى فيه.

وقد جُمعت هذه الأمور الأربعة في سورة العصر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ

لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

وجعلها شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة بعنوان «المسائل الأربعة»، واستدلَّ لها بسورة العصر، وقد جاء عن الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: «لو فكَّر النَّاس كلُّهم في سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ لكفَتْهُم»[1].

*** ثمَّ قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ:**

**٨٥- لَواحِـدٌ بِـكَ يَهْدِيـهِ الإلَـهُ لَـذَا    خَيْرٌ غَدًا لـكَ مِـنْ حُمْـرٍ مِـن الـنَّعَمِ**

جاء في «الصَّحيحين»[2] عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**فَواللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أنْ يكونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم**».

أي: خيرٌ لك من الإبل الحُمْر، وهي أنفَسُ أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسَة الشَّيء.

وفي الحديث فضيلة الدَّعوة إلى الله، وفضيلة من اهتدى على يديه رجلٌ واحدٌ.

*** ثمَّ ختم هذه النُّبذة بقوله:**

**٨٦- واسْلُكْ سَواءَ الصِّراطِ المسْتَقِيمِ ولا    تَعْـدِلْ وقُـلْ ربِّيَ الـرَّحْمَنُ واسْـتَقِمِ**

---

(١) أورده ابن القيِّم في كتابه «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٥٦) وله تعليق نفيس عليه، فليراجع.

(٢) رواه البخاري برقم (٢٩٤٢)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).

«**واسلكْ سَواءَ الصِّرَاط**»؛ أي الزَم صراط الله المستقيم، ولا تمِلْ عنه يمينًا ولا شمالًا، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وفي سورة الفاتحة: ﴿**ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾**﴾.

«**وقُلْ ربِّيَ الرَّحْمَنُ واسْتَقِمِ**»؛ قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢]، وفي وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لسفيان بن عبد الله الثَّقَفي رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله**!** حدِّثني بأمر أعتصمُ به، قال: «**قُلْ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ**» رواه التِّرمذي وصحَّحه، وابن ماجه، وصحَّحه ـ أيضًا ـ ابن حبَّان والحاكم[1].

وهي وصيَّةٌ عظيمةٌ جامعةٌ، جمعَت الدِّين كلَّه والخيرَ أجمعَه، بها ختم النَّاظمُ رحمه الله هذه النُّبذة الطيِّبة المباركة في الوصيَّة لطالب العلم.

* * *

---

(١) «جامع التِّرمذي» برقم (٢٤١٠)، و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٩٧٢)، و«صحيح ابن حبَّان» برقم (٥٦٩٨)، و«المستدرك» (٤/ ٣٤٩).

## الوصيَّة بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ

عقد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا العنوان لبيان مكانة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وعظيم شأنه، وعلوِّ منزلته، ومكانة تدبُّره، ومعرفة أحكامه، والعمل بمُحكمِه، والإيمان بمُتشابهه، وذكر ـ أيضًا ـ فضائل كثيرة لتلاوته وتدبُّره إلى غير ذلك من الوصايا العظيمة المتعلِّقة بكتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ.

* **وبدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بقوله:**

**٨٧- وَبِالتَّدَبُّرِ والتَّرتِيلِ فَاتْـلُ كِتَـا ... بَ اللهِ لاسِـيَّما في حِنْـدِسِ الظُّلَـمِ**

الجارُّ والمجرور في قوله: «**وبالتَّدبُّر والتَّرتِيلِ**» متعلِّقٌ بقوله: « **فاتْلُ كِتَابَ الله**»؛ أي اتْلُ كتابَ الله بالتَّدبُّر والتَّرتيل؛ والله ـ جلَّ وعلا ـ أمر بتدبُّر كتابه في مواضع من القرآن، فقال تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿**كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ** ﴾ [ص: ٢٩].

فهذه آيات فيها الحثُّ على تدبُّر كتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ، والتَّدبُّر يكون بالتَّأمُّل للمعاني والتَّفكُّر في الدِّلالات وعقلِ مراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحيث يكون حظُّ العبد من القرآن التِّلاوة للحروف والفهم للمعاني والدِّلالات ولا يكون حظُّه منه مجرَّد إقامة حروفه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والتَّرتيل**»؛ التَّرتيل: هو القراءة بتمهُّل، كما قال تعالى: ﴿**وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا**﴾ [المزمل: ٤]، أي اقرأه بتمهُّل؛ فإنَّه يكون عونًا لك على فهمه وتدبُّره.

وهناك فرقٌ بين من يقرأ السُّورةَ وهو يريد أن يعقل خطابَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ له فيها، وبين مَن يقرأها وهو يريد أن ينتهيَ منها وأن يفرغَ مِن قراءتها.

وبدأ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالحثِّ على تلاوة القرآن بالتَّدبُّر والتَّرتيل موافقةً للآيات الكثيرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ والأحاديث العديدة في سنَّة النَّبيِّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الَّتي جاء فيها الحثُّ على العناية بالقرآن قراءةً وترتيلًا وتدبُّرًا كقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ **وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ** ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ**﴾ [البقرة: ١٢١]، وقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ** ﴾ [فاطر: ٢٩].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وجاء في السُّنَّة أحاديث عديدة في الحثِّ على قراءة القرآن وتلاوته وترتيله وتدبُّره وفضل ذلك، منها قوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ**» متَّفق عليه[1].

وقوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ للصَّحابة: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ ـ أَوْ إِلَى العَقِيقِ ـ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ** (الكَوْماء: النَّاقة العظيمة السَّنام) **فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»، فقالوا: يا رسول الله**!** نحبُّ ذلك، قال: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثلاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَربعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ؟**» رواه مسلم من حديث عقبة بن عامر[2].

وقوله ﷺ: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**» رواه مسلم من حديث أبي هريرة[3].

وقوله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حرفٌ، ولكنْ «ألفٌ» حرفٌ، و«لامٌ» حَرفٌ، و«ميمٌ» حَرفٌ**»، رواه التِّرمذيُّ[4] من حديث ابن مسعود، وصحَّحه.

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٤٢٧)، ومسلم برقم (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٩).

(٤) برقم (٢٩١٠).

وقول النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لاسِيَّما في حِنْدسِ الظُّلَمِ**»؛ «حِنْدس» ـ بالكسر ـ: اللَّيل المظلِم، أي خاصَّة في هذا الوقت المبارك.

يقول النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «التِّبيان في آداب حملة القرآن»[1]: «فصل: في الأوقات المختارة للقراءة، اعلَمْ أنَّ أفضلَ القراءة ما كان في الصَّلاة، وأمَّا القراءةُ في غير الصَّلاة فأفضلُها قراءة اللَّيل، والنِّصف الأخير من اللَّيل أفضل من النِّصف الأوَّل».

* **ثمَّ قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٨٨- حَكِّمْ بَراهِينَـهُ واعْمَـلْ بِمُحْكَمِـهِ    حِـلًّا وحَظْـرًا ومَـا قَـدْ حَـدَّهُ أقِـمِ**

«**حَكِّمْ بَراهِينَهُ**»؛ أي حُجَجه وبيِّناته، والمعنى: احتكِم إليه وليكُن المعوَّل عليه، فيما تأتي وتَذَرُ وفي جميع شؤونك.

«**واعمَلْ بمُحْكَمِه**»؛ المراد بـ«المحكم»؛ أي البيِّن الواضح الدَّلالة، قال تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ** ﴾ [آل عمران: ٧].

«**حِلًّا وحَظْرًا**»؛ أي في الحلال والحرام؛ لأنَّ «الحظر»: المنع، فكن عاملًا بمحكم القرآن في الحلال والحرام، وفي الإباحة والمنع.

«**وما قد حدَّهُ أقِم**»؛ أي أقِم حدود القرآن، لا تكن إقامةُ القرآن للحروف فقط، بل أقِم حروفَه، وأقمْ ـ أيضًا ـ حدودَه؛ بالائتمار بما في القرآن والانتهاء عمَّا نهى عنه.

(١) ص (٧٥).

روى عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه»[1] عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، قال: «وما تدبُّر آياته إلَّا اتِّباعُه بعمله، والله! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده؛ حتَّى إنَّ أحدَهم ليقول: والله! لقد قرأتُ القرآن كلَّه وما أُسقطُ منه حرفًا واحدًا، وقد أسقَطَه كلَّه؛ ما ترى له في القرآن من خُلق ولا عمل، وحتَّى إنَّ أحدهم ليقول: والله! إنِّي لأقرأُ السُّورة في نَفَسٍ واحدٍ، والله! ما هؤلاء بالقرَّاء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرَعة، ومتى كان القرَّاء يقولون مثل هذا؟! لا كثَّر الله في المسلمين من هؤلاء». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٨٩- واطْلُبْ مَعانِيْهِ[2] بالنَّقْلِ الصَّريحِ ولا تَخُضْ بِرَأْيِكَ واحْذَرْ بَطْشَ مُنْتَقِمِ**

أي: ابحث عن معاني القرآن ودلالاته بالنَّقل الصَّريح، والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضًا، والسُّنَّة شارحةٌ للقرآن ومفسِّرةٌ له.

وهذه طريقةُ أهل العلم في تفسير القرآن؛ يفسِّرون القرآن بالقرآن، ويفسِّرون القرآن بالأحاديث الصِّحاح عن رسول الله ﷺ، ويفسِّرون القرآن بالمنقول عن الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم الَّذين شَهِدُوا التَّنزيل، وأكرمَهم الله عَزَّ وَجَلَّ بالتَّلقِّي والأخذ مباشرة عن رسول الله ﷺ.

---

(١) (٣/ ٣٦٣).

(٢) بإسكان الياء مراعاة للوزن العروضي.

«**ولا تَخُض برَأْيك**»؛ أي لا تُعمل رأيَكَ المجرَّد في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تقل فيه بالرَّأي، وإنَّما يكون رأيُك مبنيًّا على النَّقل الصَّريح.

وحذَّر رَحِمَهُ اللَّهُ من الخوض في القرآن بالرَّأي أشدَّ التَّحذير؛ فقال: «**واحذَرْ بَطْشَ مُنتقِمِ**»؛ أي احذر بطشَ الله عَزَّوَجَلَّ وعقوبتَه من أن تقول في كتابه ـ سبحانه وتعالى ـ بغير علم، قال الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ**﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ولهذا كان الصَّحابة، ومن اتَّبعهم بإحسان في تمام الورع وكماله من الخوض في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بالرَّأي المجرَّد أو بالظُّنون.

روى ابن أبي شيبة في «المصنَّف»(١) عن أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه سُئل عن قوله تعالى: ﴿**وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس: ٣١]، فقال: «أيُّ سماءٍ تظلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني؟! إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلَم».

والنُّقول عنهم في هذا المعنى كثيرة.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٩٠- فَمَا عَلِمْتَ بِمَحْضِ النَّقْلِ مِنْهُ فَقُلْ　　وَكِلْ إِلَى اللهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْبَهِمِ**

---

(١) (٦/ ١٣٦).

أي: ما اتَّضح لك معناه، واتَّضح لك مقصودُه، ومرادُه بـ«النَّقل»؛ أي باعتمادك في ذلك على النَّقل وتعويلك عليه؛ فقُل المعنى كذا وكذا استنادًا إلى النَّقل الَّذي أبان لك المراد ووضَّح لك المقصود، وهذه طريقة أهل العلم في ما يشتبه عليهم من آي القرآن، يردُّون المشتبهات إلى الآيات المحكمات، والله أمر بذلك فقال: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ** ﴾ [آل عمران: ٧]، وصف المحكمات بأنَّهنَّ أمُّ الكتاب.

«**وكِلْ إلى الله مَعْنَى كُلِّ مُنْبَهِمِ**»؛ أي الَّذي يكون معناه منبهمًا، أي خفيًّا ومشتبهًا عليك، فَكِلْ معناه إلى الله، أي فوِّض معناه إلى الله، قائلًا: الله أعلم بمعناه.

وجاء في «الصَّحيحين»(١) عن مسروق قال: كنَّا عند عبد الله بن مسعود جلوسًا وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرَّحمن! إنَّ قاصًّا عند أبواب كِنْدَة يقصُّ ويزعُم أنَّ آية الدُّخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفَّار، ويأخذ المؤمنين منه كهَيئة الزُّكام؟ فقال عبد الله ـ وجلس وهو غضبان ـ: يا أيُّها النَّاس! اتَّقوا الله؛ من عَلِمَ منكم شيئًا فليقُل بما يعلَم، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنَّه أعلَمُ لأحدِكُم أن يقولَ لما لا يعلم: الله أعلم، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال لنبيِّه ﷺ: ﴿ **قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ [ص: ٨٦].

وقد مرَّ معنا قول ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «العلم ثلاثة: كتاب ناطقٌ، وسنَّةٌ ماضية، ولا أدري»(٢).

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٧٧٤)، ومسلم برقم (٢٧٩٨).

(٢) ص (١٠٤).

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٩١- ثُمَّ المِرَا فيه كُفْـرٌ فاحْذَرَنْـهُ ولا يَـسْتَهْوِيَنَّكَ أقـوامٌ بِـزَيْغِهِمِ**

«**ثمَّ المرا فِيه**»؛ أي في القرآن، والمراد بـ«المراء»؛ أي الجدال والخصومة المفضية إلى الشَّكِّ والتَّكذيب، واعتقاد الباطل.

«**كفرٌ**»؛ يشير إلى ما رواه الإمام أحمد ـ وصحَّحه ابن حبَّان ـ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**نَزَلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، المِرَاءُ فِي القُرْآنِ كُفْرٌ ـ ثلاث مرَّات ـ فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»[1].

وقوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»، فيه شاهدٌ لقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الَّذي مرَّ آنفًا: «**وَكِلْ إلى الله مَعْنَى كُلِّ مُنْبَهِمِ**».

وروى أبو داود الطَّيالسيُّ عن ابن عمر أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا تُجَادِلُوا فِي القُرْآنِ؛ فَإِنَّ جِدَالًا فِيه كُفْرٌ**»[2].

«**فاحْذَرَنْهُ**»؛ أي كن من ذلك على حَذَرٍ، وإيَّاك أن تقع في شيء من المراء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ! لأنَّ ذلك يُفضي إلى التَّكذيب والشَّكِّ والكفر بالله عَزَّوَجَلَّ وبكتابه.

---

(١) «المسند» برقم (٧٩٨٩)، و«صحيح ابن حبَّان» برقم (٧٤)؛ وصحَّح إسناده الألباني في «الصَّحيحة» (٤/ ٢٦).

(٢) «مسند الطَّيالسي» برقم (٢٢٨٦)؛ وصحَّح إسناده الألبانيُّ في «الصَّحيحة» برقم (٢٤١٩).

«**ولا يَسْتَهوينَّك أقْوامٌ بزَيْغِهِم**»؛ كثيرًا ما يعملُ أهلُ الزَّيغ على فَتْنِ النَّاس؛ بتَزيين ما عندهم من زيغ وضَلال بزَخْرفة القول، فيَفتنون ضِعاف الإيمان وقليلي العلم، ولهذا حذَّر من أن يُفتن العبدُ بما عند هؤلاء.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٩٢- وعنْ مَناهِيهِ كُنْ يا صاحِ مُنْزَجِرًا والأمْرَ منهُ بلا تَردادِ[(١)] فالْتَزِمِ**

أي: كن كافًّا وممتنعًا عن جميع ما نهاك الله عنه في القرآن الكريم، «**والأمرَ منه بلا تَرداد فالْتزم**»؛ أي افعَل ذلك وحافِظ عليه ولازمْهُ، «**والأمر**» مفعول «**فالتزم**».

فجمع في هذا البيت بين الحثِّ على فعل الأوامر وترك النَّواهي، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟**﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يأمُر به، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ»[(٢)].

---

(١) لم تصرف مراعاة للوزن العروضي.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٦).

بهذه المناسبة أذكر شابًّا صغيرًا درَّسته قبل قرابة عشرين سنة، لَمَّا كان في المرحلة المتوسِّطة، وكان حافظًا لكتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ فجاءني يومًا بأوراق مكتوب عليها الأوامر والنَّواهي في القرآن فقال لي: هذه أشياء جمعتها أرغب أن تطَّلع عليها وهو في الصَّفِّ الثَّاني متوسِّط، فقلت له: ما زلت صغيرًا الآن على التَّأليف، قال: لا، أنا لا أؤلِّف، ولكنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أكرمني بحفظ القرآن، ويمرُّ عليَّ في القرآن أوامر كثيرة ونواهي كثيرة، الله يخاطبني بها فأردتُ أن أعقل عن الله عَزَّ وَجَلَّ ما يأمرني به وما ينهاني عنه، فكان كلَّما مرَّ عليه أمرٌ أو نهيٌ في القرآن قيَّده، ثمَّ يرجع إلى «تفسير ابن كثير» و«تفسير ابن السَّعدي»، وينقل المعنى حتَّى اجتمع له ملزمة كبيرة جدًّا في فقه الأوامر والنَّواهي في كتاب الله جلَّ وعلا.

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٩٣- وما تَشابَهَ فَوِّضْ لِلإلهِ وَلا تَخُضْ فَخَوْضُكَ فيه مُوجِبُ النِّقَمِ**

هنا يبيِّن المنهج السَّديد فيما تشابه من آي القرآن، والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿**مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ**﴾ [آل عمران: ٧]، فالقرآن فيه آيات متشابهات، والمتشابه هنا يُقابل المحكم، والمحكَم: هو الواضح المعنى، الظَّاهر الدَّلالة، والمتشابه: هو الَّذي يشتبه المعنى فيه، ولا تظهر الدَّلالة.

وهذا التَّشابه هو في الحقيقة تشابهٌ نسبيٌّ وليس مطلقًا؛ لأنَّه ليس في القرآن آيات لا يُفهم معناها مطلقًا، فالله خاطبنا بكلام عربيٍّ مبين، ليس فيه آيات متشابهة تشابهًا مطلقًا، أي يخفى معناها وفهمها على كلِّ أحد.

يقول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عرضتُ المصحفَ على ابن عبَّاس ثلاث عَرَضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كلِّ آية وأسأله عنها»[(١)].

وجاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «التَّفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يُعذر أحدٌ في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الرَّاسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلَّا الله».

ذكره ابن كثير في «تفسيره»[(٢)]، ثمَّ قال: ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشَّعثاء وأبي نهيك وغيرهم.

ومراد ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بـ«التَّفسير الَّذي يعلمه الرَّاسخون»؛ هو تفسير

---

(١) رواه ابن جرير الطَّبري في «تفسيره» برقم (٤٣٣٧)، والدَّارمي برقم (١١٢٠)، وغيرهما.
(٢) (٢/ ١٠).

المتشابه، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧].

فالرَّاسخون في العلم يعلمون معنى المتشابه الَّذي يخفى معناه على كثير من النَّاس بما آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ من بصيرة وفهم لكلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وردٍّ للمتشابه منه إلى المحكم.

وأمَّا التَّفسير الَّذي لا يعلمه إلَّا الله هو حقائق صفات الله عَزَّوَجَلَّ وحقائق اليوم الآخر وغير ذلك ممَّا ذُكر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وذُكر في سنَّة نبيِّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وعُرف معناه ودلالته وخَفي كنهُه وحقيقتُه، كما قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الدُّنيا من الجنَّة شيءٌ إلَّا الأسماء»[1]، فنعقِل المعاني ونفهَم الدَّلالات؛ لكن الكُنْه والحقيقة اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم به.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٩٤- ولا تُطِعْ قولَ ذِي زيْغ يُزَخْرِفُهُ مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ في الدِّين مُتَّهَمِ**

**٩٥- حَيْرانَ ضلَّ عنِ الحقِّ المُبِينِ فَلا يَنْفَكُّ مُنْحَرِفًا مُعْوَجَّ[2] لَمْ يَقُمِ**

يحذِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في هذين البيتين من سُبل أهل الأهواء وطرائق الهالكين وأهل الزَّيغ والضَّلال، ويحذِّر من الإصغاء والسَّماع إليهم، فقال:

(١) رواه ابن جرير الطَّبري في «تفسيره» برقم (٥٣٥ ـ ط. أحمد شاكر).

(٢) لم تصرف مراعاة للوزن.

«ولا تُطِعْ قولَ ذي زيْغٍ يُزَخْرِفُهُ»؛ فمن عادة أهل الزَّيغ زخرفة ما عندهم من باطل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] ، وجاء في «الصَّحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»(١).

وقوله: «مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ في الدِّين مُتَّهَمِ»؛ أي احذر صاحبَ الزَّيغ من أهل البدع والأهواء مَنْ هو متَّهم في دينِه بفسادٍ في العقيدة أو انحلالٍ في الفكر.

«حَيْرانَ ضلَّ عنِ الحقِّ المُبينِ»؛ يصفُ حال هؤلاء الزَّائغين المبتدعة المتَّهَمين في الدِّين، وما أكثر ما تستولي هذه الحيرةُ على أهل الباطل، وسيأتي لاحقًا ذكر شيء من شهادة هؤلاء على أنفسهم بالحيرة والشَّكِّ(٢).

قال: «فلا يَنْفَكُّ مُنْحَرِفًا مُعْوَجّ»؛ أي يكون بهذه الحال دائمًا وأبدًا منحرفًا عن صراط الله المستقيم، معوجًّا عن الجادَّة السَّويَّة.

وقوله: «مُعْوَجَّ» خبر كان، وحذف التَّنوين لضرورة الشِّعر.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٥٤٧)، ومسلم برقم (٢٦٦٥).

(٢) انظر: (ص١٩٥ـ١٩٦).

«لَمْ يَقُمِ»؛ أي لم يستقم على صراط الله ـ جلَّ وعلا ـ، بل ينحرف عنه يمينًا وشمالًا.

ثمَّ ساق أبياتا في فضل كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وبيان عظم شأنه، قال:

**٩٦- هُوَ الكِتابُ الَّذي مَن قامَ يَقْرَؤُهُ كَأَنَّما خاطَبَ الرَّحْمَنَ بالكَلِمِ**

أي كأنَّ الَّذي يقرأ كلامَ الله ويرتِّله خاطب الرَّحمن بالكلِم؛ لأنَّ القرآن كلَّه تعظيم لله ومناجاة له، وثناء عليه وتمجيد، واعتبر هذا في أمِّ القرآن فاتحة الكتاب المشتملة إجمالًا على ما اشتمل عليه القرآن تفصيلًا، وما تضمَّنته من مناجاة وثناء على الله سبحانه وتعالى؛ روى مسلم في «صحيحه»(١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **قَالَ اللهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بيني وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ قَالَ الله تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِى، وَإِذَا قَال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ قَال: مَجَّدَنِي عَبْدِي ـ وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي ـ، فَإِذَا قَال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ قَال: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ قَال: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»**.

**٩٧- هُوَ الصِّراطُ هُو الحَبْلُ المَتِينُ هُوَ الْـ مِيزَانُ والعُـرْوَةُ الـوُثْقَى لِـمُـعْتَـصِمِ**

---

(١) رقم (٣٩٥).

«**هو الصِّراط**»؛ أي الصِّراط المستقيم الَّذي يُفضي بصاحبه إلى جنَّات النَّعيم: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

«**هو الحبل المتين**»؛ الَّذي من تمسَّك به واعتصم به نجَا وهُدِيَ إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿**وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

«**هو الميزان**»؛ أي الَّذي عليه المعوَّل وإليه الاحتكام: ﴿**فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ**﴾ [النساء: ٥٩]، والرَّدُّ إلى الله: الرَّدُّ إلى كتابه، والرَّدُّ إلى الرَّسول ﷺ: الرَّدُّ إلى سُنَّته.

«**والعُرْوَةُ الوثْقَى**»؛ كما قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا**﴾ [البقرة: ٢٥٦].

«**لمعتصم**»؛ فمن أراد لنفسه خيرَ مُعتصم وخيرَ مُتمسَّك؛ فليتمسَّك بكتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ، فهو الصِّراط المستقيم، والحبل المتين، والميزان القويم، والعروة الوثقى.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٩٨- هُو البَيانُ هُو الذِّكْرُ الحَكِيمُ هُوَ التـ ـتَفْـصِيلُ فـاقْنَعْ بِـهِ فِي كُـلِّ مُنْـبَهِمِ**

«**هو البيانُ**»؛ أي الإيضاح، قال تعالى: ﴿**هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٣٨].

«**هو الذِّكر الحكيم**»؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿**ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ**﴾ [آل عمران: ٥٨].

«هو التَّفصيل»؛ قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [يونس: ٣٧]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

«فاقْنَعْ بِهِ فِي كُلِّ مُنْبَهِمٍ»؛ أي كلِّ أمرٍ خفيَ عليك من المعاني.

٩٩- هُو البَصائِرُ والذِّكرَى لِمُدَّكِرٍ    هو المَواعِظُ والبُشْرى لِغَيرِ عَمِي

«هو البصائرُ»؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

«والذكرَى لِمُدَّكِرٍ»؛ كما قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

«هو المواعظ» كما قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

«والبُشْرى لِغَيْرِ عَمِي»؛ قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقوله: «لِغَيْرِ عَمِي»؛ أي لغير عمِيٍّ عن الحقِّ؛ لأنَّه لا ينتفع من بصائر القرآن وما فيه من الذِّكرى والمواعظ وما فيه من البشارات، فمَن كان عن الحقِّ عميًّا؛ فإنَّه لا ينتفع من ذلك ولا يستفيد.

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٠٠- هُو المُنَزَّلُ نُـورًا بَيِّنًـا وهُـدًى    وَهْوَ الـشِّفاءُ لِما فِي القَلْـبِ مِـن سَـقَمِ

«هو المنَزَّل نورًا بيِّنًا»؛ وصف القرآن بأنَّه نورٌ مبين، أي نورٌ بيِّن واضح، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

«وهُدًى»؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقوله: «وهُوَ الشِّفَاءُ لما في القَلْبِ مِنْ سَقَمِ»؛ أي أنَّه شفاءٌ لأمراض القُلوب، قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا

﴿فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٠١- لَكِنَّهُ لِأُولِي الإِيمانِ إِذْ عَمِلُوا بِما أَتَى فِيهِ مِنْ عِلْمٍ ومِنْ حِكَمِ**

«**لكِنَّهُ لِأُولِي الإِيمانِ إِذْ عَمِلُوا**»؛ أي أنَّ القرآن شفاءٌ لأولي الإيمان إذا عملوا بما أتى فيه من علمٍ، ومن حِكَم، وهذا فيه التَّنبيه أنَّ الاستشفاء بالقرآن، وتحصيلَ بركاتِ القرآن وخيراتِه لا ينالُه كلُّ أحد، وإنَّما يناله أولوا الإيمان الَّذين عملوا بالقرآن، فهؤلاء الَّذين يفوزون ببركات القرآن وخيراته وما فيه من الشِّفاء، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٠٢- أَمَّا عَلى مَن تَوَلَّى عَنه فَهْوَ عَمًى لِكَوْنِهِ عَنْ هُداهُ الْمُسْتَنِيرِ عَمِي**

«**أَمَّا عَلى مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ فَهُو عَمًى**»؛ يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

«**لِكَوْنِهِ عَنْ هُداهُ الْمُسْتَنِيرِ عَمِي**»؛ أي عن الحقِّ البيِّن الواضح عَمِيَ، فلم

يُبصر ما في القرآن من حقٍّ وهدى، فهذا لا يستفيدُ ولا ينتفعُ بما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من شفاء وخير وبركة.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٠٣- فمَنْ يُقِمْهُ يَكُنْ يومَ المَعادِ لَـهُ    خَـيرَ الإِمـامِ إلَى الفِـرْدَوسِ والـنِّعَمِ**

أي: مَنْ يُقِم القرآنَ علمًا وعملًا؛ يرفعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالقرآن، ويكون له يوم المعاد إمامًا وقائدًا له إلى جنَّات النَّعيم.

**١٠٤- كما يَسُوقُ أولِي الإِعْراضِ عَنْهُ إلَى    دارِ المَقَـــامِعِ والأَنْكَـــالِ والأَلَمِ**

كما قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا**﴾ [الزُّمر: ٧١]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ**﴾ [طه: ١٢٤]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ**﴾ [السجدة: ٢٢].

وجاء عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**القُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ**»، رواه ابن حبَّان بإسناد جيِّد[١]، ويروى مثله من قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[١].

(١) «صحيح ابن حبَّان» برقم (١٢٤)، وانظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» رقم (٢٠١٩).

ويروى بمعناه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «إنَّ هذا القرآن كائنٌ لكم ذكرى، وكائنٌ لكم أجرًا، أو كائنٌ عليكم وزرًا؛ فاتَّبعوا القرآنَ ولا يتَّبعكم القرآنُ، فإنَّه من يتَّبع القرآنَ يَهبط به على رياض الجنَّة، ومَن يتبعه القرآن يَزُخُّ في قفاه فيقذفه في جهنَّم»[٢]، وقوله: «يزخُّ» أي يدفع.

* **قال** رحمه الله:

**١٠٥- وقَدْ أَتَى النَّصُّ في الطُّولَيْنِ أَنَّهُما ظِـلَّا[٣] لِتـالِيهِما فِي مَوْقِـفِ الغُمَـمِ**

قوله: «**أَنَّهُما**»؛ أي البقرة وآل عمران، وقوله: «**الغُمَمِ**»؛ من الغُمَّة وهي الشِّدَّة.

يشير إلى ما في «صحيح مسلم»[٤] عن النَّوَّاس بن سَمْعان الكلابي رضي الله عنه قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُه سُورَةُ البَقَرَةِ وَآل عِمْرَانَ**»، وضربَ لهما رسولُ الله ﷺ ثلاثةَ أمثالٍ ما نسيتُهنَّ بعدُ، قال: «**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ** (أي ضياء ونور)، **أو كأنَّهما حِزْقان** (الحزق: الجماعة) **مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ** (أي بَاسِطَاتٍ أَجْنِحَتَهَا في الطَّيَران)، **تُحاجَّان عَنْ صَاحِبِهما**».

---

(١) أخرجه عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (٣/ ٣٧٢)، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٦/ ١٣١) من طريقين عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦)، والدَّارميُّ برقم (٣٣٢٨)، وفي إسناده أبو كنانة هو القرشي، وهو مجهول كما في «التَّقريب».

(٣) مثنَّى ظِل، والأصل ظِلَّان وحُذفت النُّون للضَّرورة، ولهذا نظائر. انظر: «مغني اللَّبيب» (ص ٩١٧)، و«خزانة الأدب» (٣/ ٣٥٦).

(٤) برقم (٨٠٥).

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٠٦- وأَنَّــه فِي غَــدٍ يَــأتِي لِـصاحِبِهِ ... مُبَـشِّرًا وحَجِيجًـا عَنْـهُ إنْ يَقُـمِ**

**١٠٧- والمُلْـكَ والخُلْـدَ يُعْطِيـهِ ويُلْبِسُهُ ... تـاجَ الوَقـارِ الإِلـهُ الحَـقُّ ذو الكَـرَمِ**

**١٠٨- يُقالُ اقْرَأْ ورَتِّلْ وارْقَ فِي غُـرَفِ الْـ ... جَنَّاتِ كيْ تَنْتَهِي[1] لِلْمَنْـزِلِ الـنَّعِمِ**

**١٠٩- وحُلَّتانِ مِن الفِرْدَوسِ قَـدْ كُسِيَتْ ... لِوالِدَيْــهِ لَهَــا الأكْــوانُ لَمْ تَقُــمِ**

**١١٠- قــالا بِــماذا كُــسِيناهَا فقيــلَ بِــما ... أَقْرَأْتُمَـا ابْـنكُما فاشْـكُرْ لِـذِي الـنِّعَمِ**

قوله: «**إنْ يَقُمِ**»؛ أي إن يَقُم بالقرآن العظيم علمًا وعملًا.

وقوله: «**والمُلْكَ والخُلْدَ يُعْطِيهِ**» أي: يعطيه المُلك بيمينه والخُلد بشماله، وهاتان النِّعمتان هما جماع نعيم الآخرة.

وقوله: «**ويُلْبِسُهُ تاجَ الوَقارِ**» في «النِّهاية»: التَّاج ما يُصاغ للمُلوك من الذَّهب والجواهر.

وهذه الأبيات الخمسة يشير فيها النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ما جاء عن بريدة ابن الحصيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: كنت جالسًا عند النَّبيِّ ﷺ فسمعته يقول: «**تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَها حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا البَطَلَة**»، قال: ثمَّ مكث ساعةً، ثمَّ قال: «**تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَان مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، وَإِنَّ القُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ**

(١) بإسكان الياء مراعاة للوزن العروضي.

لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ! فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ! فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ القُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى المُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا؛ قَالَ: فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذِهِ؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجَةِ الجَنَّةِ، وَغُرَفِهَا فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا»، رواه الإمام أحمد[1]، وحسَّنه البغويُّ في «شرح السُّنَّة»[2]، وابن كثير في تفسير سورة البقرة، وفي سنده مقالٌ؛ لكن له شاهد من حديث أبي أمامة، وآخر من حديث أبي هريرة، ولذلك أورده الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة»[3].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١١١- كَفَى وحَسْبُكَ بالقُرْآنِ مُعْجِزَةً   دامَتْ لَدَيْنَا دَوَامًا غيْرَ مُنْصَرِمِ**

**١١٢- لَمْ يَعْتَرِهْ قطُّ تَبْدِيلٌ ولا غِيَرٌ   وَجَلَّ فِي كَثْرَةِ التَّرْدادِ عنْ سَأَمِ**

قوله: «**وحسبُك**»؛ وهي بمعنى يكفيك، «**بالقرآن معجزةً**»؛ أي يكفيك معجزة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فهو أعظم معجزة، «**غيرَ منصَرِم**» أي غير منقطع، فهو معجزة دائمة مستمرة.

---

(١) «المسند» (٢٢٩٥٠).

(٢) (٤/ ٤٥٤) حديث رقم (١١٩٠).

(٣) رقم (٢٨٢٩).

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إغاثة اللَّهفان»[(١)]: «وإذا كان هذا شأن معجزات هذين الرَّسولين (يعني موسى وعيسى ـ عليهما السَّلام ـ) مع بُعْدِ العهد وتشتُّت شمل أمَّتيهما في الأرض وانقطاع معجزاتهما، فما الظَّنُّ بنبوَّة مَنْ معجزاته وآياته تزيد على الألف، والعهد بها قريب، وناقلوها أصدق الخلق وأبرُّهم، ونقلها ثابت بالتَّواتر قَرْنًا بعد قرن، وأعظمُها معجزةً كتابٌ باقٍ غضٌّ طَرِيٌّ لم يتغيَّر ولم يتبدَّل منه شيء، بل كأنَّه منزَّلٌ الآن، وهو القرآن العظيم، وما أخبر به يقع كلَّ وقت على الوجه الَّذي أخبر به كأنَّه كان يشاهده عيانًا».

قوله: «**ولا غِيَرٌ**»؛ أي تغيير قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «التِّبيان في أقسام القرآن»[(٢)]: «فالله ـ سبحانه ـ حفظه من الزِّيادة والنُّقصان والتَّبديل، وحفظ معانيه من التَّحريف كما حفظ ألفاظه من التَّبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزِّيادة والنُّقصان، ومعانيه من التَّحريف والتَّغيير».

وقوله: «**وَجَلَّ فِي كَثْرَةِ التَّرْدادِ عنْ سَأَمِ**»؛ أي أنَّ الَّذي يقرأ القرآن ويكرِّر تلاوته لا يسأم ولا يملُّ مع كثرة ترداده وتكراره.

وقد جاء في «جامع التِّرمذي»[(٣)] وغيره عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت

(١) (٢/ ٣٤٧).
(٢) «التِّبيان في أقسام القرآن» (٢/ ١٠٠).
(٣) برقم (٢٩٠٦).

رسول الله ﷺ يقول: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**»، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟! قال: «**كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾** [الجن: ١ ـ ٢]**، من قال به صُدِّقَ، ومن عَمِلَ به أُجِر، ومن حَكَم به عَدَل، ومَنْ دَعَا إِلَيه هُدِيَ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم**».

وضعَّفه التِّرمذي بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال»(١).

ومعناه صحيح وما ذكر فيه كلُّه حقٌّ، لكن لم يثبت عن نبيِّنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

وقوله: «**ولا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ**»؛ لَهُ شَاهد في «المستدرك»(٢) للحاكم وغيره عن ابن مسعود عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ هَذَا القُرْآنَ مَأْدبَةُ الله؛ فَاقْبَلُوا مِنْ مَأْدبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا القُرْآنَ حَبْلُ الله وَالنُّورُ المبِينُ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لَمِنْ تَبِعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، اتْلُوهُ فَإِنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ، كُلَّ**

(١) أورده الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «السِّلسلة الضَّعيفة» برقم (٦٣٩٣).
(٢) (١/ ٧٤١).

حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلَامٌ وَمِيمٌ».

وصحَّح إسناده الحاكم، لكن تعقَّبه الذَّهبيُّ بقوله: «إبراهيم ضعيف»؛ يعني إبراهيم بن مسلم الهَجَري، ولذلك أورده الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «السِّلسة الضَّعيفة»[1].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١١٣- مُهَيْمِنًا عَرَبِيًّا غَـيرَ ذِي عِـوَجٍ مُـصَدِّقًا جـاءَ فِي التَّنْزِيـلِ فِي القِـدَمِ**

قوله: «**مهيمنًا**»؛ أي له الهَيْمَنَة على الكتب الَّتي جاءت قبله، كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨]، قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿**وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾، قال سفيان الثَّوري وغيره عن أبي إسحاق عن التَّميمي عن ابن عبَّاس: أي مؤتمنًا عليه.

وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس: «المهيمن الأمين»، قال: «القرآن أمينٌ على كلِّ كتاب قبلَه»، ورواه عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمَّد ابن كعب وعطيَّة والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسّدِّي وابن زيد نحو ذلك.

وقال ابن جريج: «القرآنُ أمينٌ على الكتب المتقدِّمة قبله، فما وافقه منها فهو حقٌّ، وما خالفه منها فهو باطل».

وعن الوالبي عن ابن عبَّاس: ﴿**وَمُهَيْمِنًا**﴾ أي شهيدًا، وكذا قال مجاهد وقتادة والسُّدِّي، وقال العوفي عن ابن عبَّاس: ﴿**وَمُهَيْمِنًا**﴾؛ أي حاكمًا على ما قبله من الكتب.

---

(١) برقم (٦٨٤٢).

وهذه الأقوال كلُّها متقاربة المعنى؛ فإنَّ اسم «المهيمن» يتضمَّن هذا كلَّه، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كلِّ كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الَّذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملَها وأعظمَها وأكملَها، حيث جمع فيه محاسنَ ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلِّها». انتهى كلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

قوله: «**عَرَبِيًّا**»؛ أي كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [يوسف: ٢] ، وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** ﴾ [طه: ١١٣].

وقوله: «**غَيرَ ذِي عِوَجٍ**»؛ كما قال تعالى: ﴿ **قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا** ﴾ [الكهف: ١].

قوله: «**مُصَدِّقًا جاءَ فِي التَّنْزِيلِ**»؛ كما قال الله تعالى: ﴿ **وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ** ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ** ﴾ [البقرة: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ** ﴾ [آل عمران: ٣ ].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٨٢).

* قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١١٤- فيهِ التَّفَاصِيلُ للأحْكامِ مَعْ نَبَأٍ     عمَّا سَيأتِي وعَنْ ماضٍ مِـن الأُمَـمِ

قوله: «فيهِ التَّفاصِيلُ للأَحْكَامِ»؛ أي في القرآن الكريم تفاصيل أحكام الشَّريعة، وبيان الحلال والحرام، وبيان الأمر والنَّهي، والواجب والحرام والمستحبِّ والمكروه، كلُّ ذلك مبيَّنٌ مُفصَّلٌ في كتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ يعني تفاصيل الشَّرائع والأحكام حتَّى جاء تِبْيَانُها بهذا الوحي الكريم والذِّكر الحكيم.

قوله: «مع نبأ»؛ أي مع خبر.

قوله: «عمَّا سَيَأتي وَعَنْ مَاضٍ مِنَ الأُمَم»؛ أي أنَّ القرآن إضافةً إلى ما فيه من بيان الأحكام والشَّرائع؛ فإنَّ فيه أنباء الأوَّلين والآخرين، وفيه قصص الأوَّلين الماضين، وأيضًا قصص مَنْ سيأتي من الأمم ممَّا أخبر به الله ـ جلَّ وعلا ـ في كتابه.

وتقدَّم قريبًا حديث عليٍّ رضي الله عنه، وفيه: «**كتابُ الله فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكْمُ ما بينكم**»، وهذه الأمور الثَّلاثة جمعها النَّاظم في هذا البيت.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١١٥- فانْظُرْ قَوارِعَ آياتِ المَعـادِ بِـهِ    وانْظُرْ لِما قَـصَّ عَـنْ عـادٍ وعـنْ إرَمِ**

قوله: «**فَانْظُر قَوارِعَ آياتِ المعَادِ**»؛ أي فانظر، وتأمَّل في الآيات الَّتي تتحدَّث عن المعاد، وتفاصيل يوم القيامة، وما في ذاك اليوم من أهوال وشدَّة وكرب، وأيضًا ما يتعلَّق بالمعاد والبعث والنُّشور والجزاء والعقاب والجنَّة والنَّار.

وقوله: «**به**»؛ أي فيه؛ لأنَّ الباء ـ وهي حرف جرٍّ ـ تنوب عن «في» ومنه قوله تعالى: ﴿**فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ**﴾ [الصافات: ١٤٥] أي في العراء، ولهذا أمثلة أخرى في القرآن.

قوله: «**وانظُرْ لما قَصَّ عَنْ عَادٍ وَعَنْ إرَم**»؛ أي فانظر ـ أيضًا ـ في القرآن قصصَ الأمم العاتية كيف أحلَّ الله بهم أنواع العقوبات وصنوف المثُلات، فهذا كلُّه جاء مفصَّلًا في مواضع عديدة من كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ، كقوله: ﴿**أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ**﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤]، وعادٌ هي إرَم قبيلة معروفة كانت باليمن.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١١٦- وانْظُرْ بهِ شَرْحَ أحْكامِ الشَّريعَةِ هلْ    تَرى بِها مِـن عَـويصٍ غَـيرِ مُنْفَـصِمِ**

قوله: «**به**»؛ أي فيه ـ كما سبق ـ، والمعنى: انظر في القرآن شرح أحكام

الشَّريعة تجدها مبيَّنة ومفصَّلة على التَّمام والكمال.

«**هَلْ تَرَى بهَا**»؛ أي فيها «**مِنْ عَوِيصٍ**»؛ «العويص»: الأمر العسير، وكلامٌ عويص أي صعب، مأخوذ من العَوَص: وهو ضِدُّ الإِمكان واليُسْرِ.

«**غير منفَصِم**»؛ أي غير منقطع، و«الانفصامُ»: الانقطاع.

أي: يقول: تأمَّل أحكام الشَّريعة الواردة في القرآن؛ هل ترى فيها أحكامًا عويصة، أي صعبة عَسِرَة، سواء في فهمها أو في العمل بها وتطبيقها، هل تجد شيئًا من ذلك، ثمَّ لو قدِّر أنَّ شيئًا منها أشكل على بعض النَّاس أو على بعض الفهوم، فهل فيها شيءٌ من الأحكام يشكل بحيث لا ينفصم الأمر، ولا يستبين مطلقًا أم أنَّها أحكام واضحة وأمور ميسَّرة؟

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١١٧- أَمْ مِن صَلاحٍ ولَمْ يَهْدِ الأنامَ لَـهُ أَمْ بـابِ هُلْـكٍ ولَمْ يَزْجُـرْ ولَمْ يَلُـمِ**

«**أَمْ**» حرف عطف، «**من صلاح**» معطوفة على «**من عويص**».

قوله: «**ولَمْ يَهْدِ الأنامَ لَهُ**»؛ جاء في «القاموس»[1]: «الأَنامُ: الخَلْقُ أَو الجِنُّ والإِنْسُ أَو جميعُ ما على وجهِ الأرضِ».

والمراد بـ«الأنام» هنا: الجنُّ والإنس؛ لأنَّهم هم المعنيُّون بالخطاب في هدايات القرآن الكريم.

---

(١) «القاموس المحيط» للفيروز أبادي (ص١٣٩٣).

قوله: «**أمْ بابِ**» معطوفة على ما سبق، «**هُلْك**»؛ أي هلاك، في «القاموس»[(١)]: «هلكَ كضرَب ومنَع وعَلِم، هُلْكًا ـ بالضَّمِّ ـ، وهلاكًا».

«**ولم يزْجُر**»؛ أي لم يزجر الله عنه، «**ولم يَلُم**»؛ يعني فاعلَه، أو يزجُر عن فعله.

ومعنى البيت: أي عندما تتأمَّل في نصوص القرآن هل ترى شيئًا فيه مصالح للعباد ومنافع وفيه سعادتهم في الدُّنيا والآخرة ولم يهد الأنام له؟

أو هل هناك في القرآن شيء من الأمور الَّتي فيها هلاكٌ ومفسدةٌ ومضرَّةٌ على الأنام ولم يزجر عنها ويحذِّر منها؟

يقول شيخ الإسلام في بيان شمول الشَّريعة لكلِّ خير، وهدايتها لكلِّ صلاح وفلاح، ونهيها عن كلِّ شرٍّ وباطل كما في «مجموع الفتاوى»[(٢)]، قال رَحِمَهُ اللهُ: «وقد أمر اللهُ الرَّسولَ ﷺ بكلِّ معروف ونهى عن كلِّ منكر، وأحلَّ كلَّ طيِّب وحرَّم كلَّ خبيث، وثبت عنه ﷺ في «الصَّحيح» أنَّه قال: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ شَرِّ مَا يَعْلَمُهُ**»[(٣)]... وينبغي أن يُعلمَ أنَّ الأعمال الصَّالحة أمر اللهُ بها أمرَ إيجاب أو استحبابٍ، والأعمال الفاسدة نهى الله عنها، والعمل إذا اشتمل على مصلحة ومفسدة؛ فإنَّ الشَّارع حكيمٌ فإن غلبتْ مصلحتُه على مفسدته شرَعَه، وإن غلبتْ مفسدتُه على مصلحتِه لم يشرَعْه بل نهى عنه، كما قال تعالى: ﴿**كُتِبَ**

(١) (ص١٢٣٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٢٣ ـ ٦٢٤).

(٣) رواه مسلم برقم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ولهذا حرَّمهما الله تعالى بعد ذلك.

وهكذا ما يراه النَّاس من الأعمال مقرِّبًا إلى الله ولم يشرَعْه الله ورسوله؛ فإنَّه لابدَّ أن يكون ضررُه أعظمَ من نفعِه، وإلَّا فلو كان نفعُه أعظمَ غالبًا على ضرره لم يهمِلْه الشَّارع؛ فإنَّه ﷺ حكيمٌ لا يهمل مصالح الدِّين، ولا يفوِّت المؤمنين ما يقرِّبُهم إلى ربِّ العالمين».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر[1]: «الشَّريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلِها وتعطيلِ المفاسد وتقليلِها، وإلَّا فجميع المحرَّمات من الشِّرك والخمر والميسر والفواحش والظُّلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد؛ لكن لمَّا كانت مفاسدُها راجحةً على مصالحها نهى الله ورسوله عنها، كما أنَّ كثيرًا من الأمور كالعبادات والجهاد، وإنفاق الأموال قد تكون مضرَّة؛ لكن لمَّا كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشَّارع».

* **قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١١٨- أَمْ كانَ يُغْنِي نَقِيرًا عن هِدايَتِهِ ... جَميعُ ما عندَ أهلِ الأرضِ مِنْ نُظُمِ**

«**أَمْ كانَ يُغْنِي**»؛ أيضًا معطوفٌ على ما سبق، «**نقيرًا**»؛ «النَّقير»: هي

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٦٥).

النُّقطة الَّتي تكون على نواة التَّمر.

أي أنَّ هذا لا يكون؛ لأنَّ شريعة الإسلام جاءت شاملةً لكلِّ خيرٍ، دالَّةً على كلِّ صلاح وفلاح، ولا يمكن أن يُستغنى عن الشَّريعة بالنُّظم الَّتي يخترعها النَّاس ويؤسِّسونها من بنات عقولهم ونَسج أفكارهم.

ومعنى البيت: هل يُغني عن هداية القرآن ولو بمقدار نقطةٍ يسيرةٍ أو قدرٍ يسير جدًّا جميعُ ما عند أهل الأرض من النُّظُم الَّتي يخترعونها ويؤسِّسونها من بنات عقولهم ونسج أفكارهم؟! الجواب: لا؛ لأنَّ شريعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ جاءت شاملةً لكلِّ خيرٍ وفلاحٍ وسعادةٍ للنَّاس في الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في خواتيم كتابه «إعلام الموقِّعين»: «وهذا الأصل من أهمِّ الأصول وأنفعها، وهو مبنيٌّ على حرفٍ واحد، وهو عموم رسالته ﷺ بالنِّسبة إلى كلِّ ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنَّه لم يحوج أمَّته إلى أحدٍ بعده، وإنَّما حاجتهم إلى من يبلِّغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرَّق إليهما تخصيص: عمومٌ بالنِّسبة إلى المرسَل إليهم، وعمومٌ بالنِّسبة إلى كلِّ ما يَحتاج إليه من بُعِث إليه في أصول الدِّين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامَّة، لا تُحوِج إلى سواها، ولا يتمُّ الإيمان به إلَّا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحدٌ من المكلَّفين عن رسالته ولا يخرج نوعٌ من أنواع الحقِّ الَّذي تحتاج إليه الأمَّة في علومها وأعمالها عمَّا جاء به.

وقد توفِّي رسول الله ﷺ وما طائرٌ يقلِّب جناحَيه في السَّماء إلَّا ذكر للأمَّة منه علمًا، وعلَّمهم كلَّ شيء حتَّى آداب التَّخلي وآداب الجماع والنَّوم والقيام

والقعود، والأكل والشُّرب، والرُّكوب والنُّزول، والسَّفر والإقامة، والصَّمت والكلام، والعُزلة والخُلطة، والغِنى والفَقر، والصِّحَّة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت، ووصف لهم العرش والكرسيَّ والملائكة والجنَّ والنَّار والجنَّة ويوم القيامة، وما فيه حتَّى كأنَّه رأيَ عَيْنٍ، وعرَّفهم معبودهم وإلههم أتمَّ تعريفٍ حتَّى كأنَّهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعرَّفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتَّى كأنَّهم كانوا بينهم، وعرَّفهم من طرق الخير والشَّرِّ دقيقِها وجليلها ما لم يعرِّفه نبيٌّ لأمَّته قبله، وعرَّفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النَّعيم والعذاب للرُّوح والبدن ما لم يعرِّف به نبيٌّ غيره، وكذلك عرَّفهم ﷺ أدلَّة التَّوحيد والنُّبوَّة والمعاد والرَّدِّ على جميع فرق أهل الكفر والضَّلال ما ليس لمن عرَفه حاجة من بعده، اللَّهمَّ إلَّا إلى من يبلِّغه إيَّاه ويبيِّنه ويوضِّح منه ما خفي عليه، وكذلك عرَّفهم ﷺ من مكايد الحروب ولقاء العدوِّ وطرق النَّصر والظَّفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حقَّ رعايته لم يَقُمْ لهم عدوٌّ أبدًا، وكذلك عرَّفهم ﷺ من مكايد إبليس وطُرُقه الَّتي يأتيهم منها وما يتحرَّزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شرَّه ما لا مزيد عليه، وكذلك عرَّفهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه، وكذلك عرَّفهم ﷺ من أمور معايشهم ما لو عَلِمُوهُ وَعَمِلُوهُ لاستقامت لهم دنياهم أعظمَ استقامة.

وبالجملة؛ فجاءهم بخير الدُّنيا والآخرة برمَّته، ولم يحوجهم الله إلى أحد

سواه، فكيف يظنُّ أنَّ شريعته الكاملة الَّتي ما طرَقَ العالمَ شريعةٌ أكمل منها ناقصةٌ تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكمِّلها أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟! ومن ظنَّ ذلك فهو كمن ظنَّ أنَّ بالنَّاس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كلِّه خفاء ما جاء به على من ظنَّ ذلك، وقلَّة نصيبه من الفهم الَّذي وفَّق الله له أصحابَ نبيِّه الَّذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عمَّا سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبيِّنا إلينا وهو عهدنا إليكم، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله ﷺ خشيةَ أن يشتغل النَّاسُ به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال النَّاس بآرائهم وزَبَدِ أفكارهم، وزُبَالةِ أذهانهم عن القرآن والحديث؟! فالله المستعان»[1]. اهـ

* **ثمَّ قال النَّاظم** رحمه الله:

**١١٩- أخبـارُهُ عِظَـةٌ أمثالُـهُ عِـبَرٌ وكُلُّـهُ عَجَـبٌ سُـحْقًا لِـذِي صَـمَمِ**

«**أخباره**»؛ أي أخبار القرآن، «**عِظَة**»؛ أي فيها عظة للمتَّعظ، قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [يونس: ٥٧]، ومن يطالع قصص القرآن يجد فيها العِظة والعِبرة: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾ [يوسف: ١١١].

«**أمثالُه عِبَر**»؛ أي للمعتَبِرين أولي الألباب، قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَتِلْكَ**

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٣٧٧).

﴿ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

«**وكلُّه عَجَب**»؛ أي القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

«**سُحْقًا لِذِي صَمَم**»؛ أي بُعدًا لمن صُمَّت أذنُه عن سماع الهدى والحقِّ الَّذي جاء في كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٢٠- لَمْ تَلْبَثِ الجِنُّ إذْ أصْغَتْ لِتَسْمَعَهُ أنْ بادَرُوا نُذُرًا مِنْهم لِقَوْمِهِمِ**

يذكر هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصَّة النَّفر من الجنِّ الَّذين أكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ وسمعوا القرآن من صوتِ النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

قوله: «**أصغَتْ**»؛ أي مالتْ، يقال: أصغى إلى الشَّيء إذا مال إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ﴾ [الأنعام: ١١٣]؛ أي ولِتَميل.

«**أنْ بادَروا نُذُرًا**»؛ أي ما إن استمعوا إلى هذا الذِّكر الحكيم والكلام العظيم إلَّا رجعوا إلى قومهم منذِرين، كما في قوله ـ جلَّ وعلا ـ في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١].

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٢١- اللهُ أَكْبَرُ ما قَدْ حَازَ مِن عِـبَرٍ     ومِـن بَيَـانٍ وإِعْجَـازٍ ومِـن حِكَـمِ**

تكبير الشَّيخ في هذا البيت والَّذي بعده تعظيم لكتاب الله، فالتَّكبير يأتي للتَّعظيم ويأتي للتَّعجُّب، ونظير هذا تكبير الصَّحابة رضي الله عنهم لما بشَّرهم النَّبيُّ ﷺ بأنَّهم شطر أهل الجنَّة، قالوا: «الله أكبر»، والحديث في «الصَّحيحين»[(١)].

قوله: «**ما قَدْ حَازَ**»؛ أي جمع، «**مِنْ عِبَرٍ**»؛ أي من عظات بالغات، «**ومِنْ بَيَان**»؛ كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٣٨]؛ أي دلالة ظاهرة تبيِّن للنَّاس الحقَّ من الباطل، والهدى من الضَّلال، والكفر من الإيمان، «**وإعجَاز**»؛ «الإعجاز» مأخوذ من العَجْز، وهو نقيض القُدرة، والمراد بـ«إعجاز القرآن»: إثبات القرآن عَجْزَ الخَلق عن الإتيان بما تحدَّاهم به، وسيأتي بيان ذلك عند النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٢٢- واللهُ أَكْـبَرُ إِذْ أَعْيَـتْ بلاغَتُـهُ     وحُسْنُ تَرْكِيبِهِ للعُـرْبِ والعَجَـمِ**

قوله: «**أَعْيت**»؛ أي أعجزت، «**بلاغتُه**»؛ أي فصاحته، ويقال في تعريف البلاغة: هي فصاحةُ الكلام مع مطابقتِه لمقتضى الحال.

وقوله: «**وحُسْنُ تركيبِه للعُرْبِ والعَجَم**»؛ أي أنَّ بلاغة القرآن وحسن

(١) رواه البخاري برقم (٣٣٤٨)، ومسلم برقم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

تركيبه أعجزت العرب والعجم من أن يأتي أحدٌ منهم بمثله أو بسورة من مثله، كما سيذكر ذلك النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٢٣- كَمْ مُلْحِدٍ رامَ أن يُبْدِي[1] مُعارَضَةً فعَـادَ بالـذُّلِّ والخُـسْرانِ والـرَّغَمِ**

قوله: «**كم**» هنا للتَّكثير، «**مُلحِدٍ**»؛ من الإلحاد وهو الميل، و«الملحد»: المائل عن الحقِّ، المُدْخِل فيه ما ليس منه، «**رام**»؛ أي طلب، «**أن يُبْدِي معارَضَةً**»؛ أي للقرآن، يقال: عارضتُه بمثل ما صنع؛ إذا أتيتَ إليه بمثل ما أتى إليك، ومعارضة القرآن أن يأتي بمثله، «**فعَادَ بالذُّلِّ وَالخُسْرَانِ والرَّغَم**»؛ حاول عددٌ من الملحدين معارضةَ القرآن، وكانت النَّتيجة الذُّلّ والخسران والرَّغم، و«**الرَّغم**»؛ هو الذُّلُّ والصَّغار، يقال: رغم أنفه رَغْمًا، إذا ساخ في الرَّغام، و«الرَّغام» هو التُّراب، ثمَّ اسْتُعْمل في الذُّلِّ والعجز والصَّغار.

وقد أثبت التَّاريخ أنَّ الَّذي حصلت منه هذه المحاولة لم يخرج عن إحدى نتيجتين: إمَّا أن يبوء بالخيبة وإعلان العجز والإفلاس وعدم القدرة، وإمَّا أنَّه يأتي بسَخافات وهُراء وكلامٍ سَمْج سقيم.

مثال الأوَّل: ما ذكره الشَّوكاني في تفسير أوَّل آية من سورة المائدة، قال: «هذه الآية الَّتي افتتح الله بها هذه السُّورة إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١] فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشريَّة مع شمولها

(١) بإسكان الياء مراعاة للوزن العروضي.

لأحكام عدَّة: منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الأنعام، ومنها استثناء ما سيتلى ممَّا لا يحلُّ، ومنها تحريم الصَّيد على المُحْرِم، ومنها إباحة الصَّيد لمن ليس بمحرم، وقد حكى النَّقاش أنَّ أصحاب الفيلسوف الكِندي قالوا له: أيُّها الحكيم! اعمل لنا مثلَ هذا القرآن، فقال: نعم، أعمل مثلَ بعضِه فاحتجب أيَّامًا كثيرة، ثمَّ خرج فقال: والله! ما أقدر، ولا يطيق هذا أحدٌ إنِّي فتحتُ المصحف فخرجتْ سورة المائدة، فنظرتُ فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النَّكث، وحلَّل تحليلًا عامًّا، ثمَّ استثنى بعد استثناء، ثمَّ أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا»(١).

ومثال الثَّاني: قصَّة مسيلمة الكذَّاب، قال ابن كثير في «تفسيره»: «قد روينا عن عمرو بن العاص أنَّه وفد على مسيلمة الكذَّاب قبل أن يسلِم فقال له مسيلمة: ماذا أُنزل على صاحبكم بمكَّة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، ففكَّر ساعةً ثمَّ رفع رأسَه فقال: ولقد أُنزل عليَّ مثلُها، فقال: وما هو؟ فقال: «يا وبْر، يا وبْر، إنَّما أنتَ أُذنان وصَدر، وسائرُك حَفر نَقر»، ثمَّ قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله! إنَّك لتعلم أنِّي لأعلم أنَّك تكذب»(٢).

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٨٢).

* **قال النَّاظم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٢٤- هيْهاتَ بُعْدًا لِما رَامُوا وما قَصَدُوا     ومــا تَمَنَّــوْا لَقَــدْ بَــاؤُوا بِــذُلِّهِمِ**

أي: هؤلاء الملاحدة الَّذين حاولوا وراموا واجتهدوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو أن يعارضوا القرآن «**هيهاتَ وبعدًا لِما رامُوا**»؛ أي أنَّ هذا مطلبٌ عزيزُ المنال لا سبيلَ لنيله، ومعنى «**هيهاتَ**»: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعُد.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٢٥- خابَتْ أمانِيُّهُمْ شاهَتْ وُجُوهُهُمُ     زَاغَــتْ قُلــوبُهُمُ عــنْ هَدْيِــهِ القِــيَمِ**

قوله: «**خابتْ أمانِيُّهُمْ**»؛ أي باءت بالخيبة والخسران، والذُّلِّ والحرمان، «**شاهت وجوهُهم**»؛ هذا دعاءٌ على هؤلاء الملاحدة بأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يشوِّه وجوههم، ومعنى يشوِّهها أي يقبِّحها، يقال: رجلٌ أَشْوَهُ قبيحُ الوجهِ، شاهَت الوجوهُ، تَشُوهُ شَوْهًا قَبُحَت، وقد جاء في «صحيح مسلم»[1] أَن النَّبيَّ ﷺ رَمى المُشْرِكينَ يومَ حُنَيْنٍ بكفٍّ مِنْ حَصىً، وقال: «**شَاهَتِ الوُجُوهُ**»؛ فهَزَمَهم الله تعالى.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٢٦- كَمْ قَدْ تَحدَّى قريشًا في القديمِ وهُمْ     أهــلُ البلاغَــةِ بــينَ الخَلْــقِ كُلِّهِــمِ**

تحدَّى الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن في مواضع عديدة ـ سيأتي ذكرها ـ قريشًا وهم

(١) برقم (١٧٧٧).

أهل بلاغة وفصاحة ولسان، مشهورون بذلك بين الخلق، وكانت النَّتيجة عَجْزهم وخيبتهم.

يقول الحافظ ابن كثير وهو يتحدَّث عن معجزات الأنبياء: «وكذلك محمَّدٌ ﷺ بعثه الله في زمن الفُصحاء والبُلغاء ونحارير الشُّعراء، فأتاهم بكتاب من الله عَزَّوَجَلَّ لو اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وما ذاك إلَّا لأنَّ كلام الرَّبِّ لا يشبهه كلام الخلق أبدًا»(١).

* **ثمَّ قال النَّاظم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٢٧- بِمِثْلِهِ وبِعَشْرٍ ثُمَّ واحدةٍ فلَمْ يَرُومُوهُ إذْ ذا الأمرُ لَمْ يُرَمِ**

قوله: «**بمثلِه**»؛ أي تحدَّاهم أن يأتوا بمثله، «**وبعَشْر**»؛ أي بعَشْر سور من مثله، «**ثمَّ واحدةٍ**»؛ أي بسورة واحدة، «**فلم يرُومُوه**»؛ أي لم يستطيعوا هذا الأمر وأنَّى لهم ذلك! «**إذْ ذا**»؛ أي هذا، «**الأمرُ لم يُرَم**»؛ أي لا يستطيع أحدٌ أن يناله أو يظفر به أو يحصِّله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**بمثلِه**»؛ كما قال الله تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقوله: «**وبعشْرٍ**»؛ أي: عشر سور كما قال الله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ**﴾ [هود: ١٣].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٤٨).

وقوله: «**ثمَّ واحدةٍ**»؛ أي: سورة واحدة كما في قوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ٢٣]، ويقول الله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾**﴾ [يونس: ٣٨].

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٢٨- الجنُّ والإنسُ لم يأتوا لَوِ اجْتمعوا     بِمِثْلِهِ ولَوِ انْضَمُّوا لِمِثْلِهِمِ**

هذا البيتُ يشير فيه إلى الآية المتقدِّمة: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [الإسراء: ٨٨].

فلو اجتمع الجنُّ والإنس، أوَّلهم وآخرهم، وانضمَّ بعضهم إلى بعض على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

**١٢٩- أَنَّى وكيْفَ وربُّ العَرْشِ قائِلُهُ     سُبْحانَهُ جَلَّ عنْ شِبْهٍ لَهُ وسَمِي**

قوله: «**أَنَّى**»؛ أي هيهات، «**وَكَيفَ وربُّ العَرْشِ قائِلُهُ**»، والفرق بين كلامه ـ سبحانه وتعالى ـ وكلام خلقه، كالفرق بينه وبين خلقِه، وقد مرَّ قول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما ذاك إلَّا لأنَّ كلام الرَّبِّ لا يشبهه كلامُ الخلق أبدًا».

قوله: «**سبحانَه**»؛ أي تنزَّه، «**جَلَّ عَنْ شِبْهٍ لَهُ وَسَمِي**»، كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]، وقال سبحانه: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم: ٦٥]؛ أي نظيرًا ومماثلًا ومشابهًا.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٣٠- مَا كان خَلْقًا ولا فَيْضًا تَـصَوَّرَهُ    نَبِيُّنـــا لا ولا تَعبـــيرَ ذِي نَــسَمِ**

قوله: «**مَا كانَ خَلْقًا**»؛ أي القرآن ليس بمخلوق، بل هو كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ، «**ولا فيْضًا تَصَوَّرَهُ نَبِيُّنا**»؛ أي وليس القرآنُ ـ أيضًا ـ فيضًا فاضَ على قلب نبيِّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ استنادًا إلى تصوُّره ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لأشياء، بل هو وحيٌ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فقوله: «**مَا كَانَ خَلْقًا**»؛ فيه ردٌّ على الجهميَّة.

وقوله: «**وَلا فَيْضًا تَصَوَّرَهُ نبيُّنَا**»؛ فيه ردٌّ على الفلاسفة.

وقوله: «**وَلا تَعْبِيرَ ذِي نَسَم**»؛ فيه ردٌّ على الأشاعرة والكلابيَّة وغيرهم ممَّن قالوا: إنَّ القرآن عبارةٌ عن كلام الله أو حكاية لكلام الله، فردَّ الشَّيخ على جميع هؤلاء بهذا البيت.

**١٣١- بلْ قالَهُ ربُّنا قـوْلًا وأنْزَلَـهُ    وَحْيًا عَـلى قلْبِـهِ المُـسْتَيْقِظِ الفَهِـمِ**

كلُّ ما قاله هؤلاء باطلٌ، والحقُّ أنَّه كلام ربِّنا تكلَّم به هو ـ سبحانه وتعالى ـ حقيقةً، «**وأنزلَهُ**»؛ كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ**﴾ [البقرة: ٩٩]، «**وحيًا**» كما قال تعالى: ﴿**وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ**﴾ [الكهف: ٢٧]، «**على قَلْبِه**»؛ أي قلب محمَّد النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾**﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

فالقرآنُ بدأ منَ الله، هو الَّذي تكلَّم به، وسمعَه منه جبريل، ونزل به على النَّبيِّ الكريم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

وقوله: «**المستيقِظ**»؛ لأنَّ قلبه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ مستيقظٌ لا ينام، كما جاء في «الصَّحيحين»[1]: «**يَا عَائِشَةُ! إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي**».

وقوله: «**الفهِم**»؛ أي الَّذي مَنَّ الله عليه ـ سبحانه وتعالى ـ بتمام الفهم وكماله.

يقول ابن تيميَّة في «العقيدة الواسطيَّة»[2]: «ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأنَّ القرآنَ كلام الله منزَّلٌ غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنَّ الله تكلَّم به حقيقةً، وأنَّ هذا القرآن الَّذي أنزله على محمَّد ﷺ هو كلام الله حقيقة، لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاقُ القول بأنَّه حكاية عن كلام الله أو عبارة، بل إذا قرأه النَّاس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكونَ كلام الله ـ تعالى ـ حقيقةً؛ فإنَّ الكلام إنَّما يضاف حقيقةً إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلِّغًا مؤدِّيًا، وهو كلام الله؛ حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف».

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٣٢ - واللهُ يَـشْهَدُ والأمـلاكُ شـاهِدَةٌ     والرُّسْلُ معْ مُؤْمِني العُرْبَانِ والعَجَمِ**

كلُّ هؤلاء يشهدون بأنَّ القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ أنزله على قلب نبيِّه ﷺ، ولا يجحد ذلك إلَّا صاحب زيغ وضلال ونأيٍ عن الحقِّ والهدى.

---

(١) رواه البخاري برقم (١١٤٧)، ومسلم برقم (٧٣٨).

(٢) «شرح العقيدة الواسطيَّة» للشَّيخ محمَّد خليل هرَّاس (ص١٩٧ ـ ١٩٨).

# الوصيَّة بالسُّنَّة

جمع رَحِمَهُ اللَّهُ هنا جملةً من الوصايا العظيمة حول سنَّة النَّبيِّ ﷺ والعناية بها حفظًا وفهمًا ونشرًا وتعليمًا، وبيَّن مكانة السُّنَّة في دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، وبيَّن شرفَ المعتَنين بها، المحافظين عليها، الذَّابِّين عنها، بدأ ذلك بقوله:

**١٣٣ - ارْوِ الحَدِيثَ ولازِم أهْلَهُ فهُمُ النْـــ ناجُونَ نَـصًّا صريحًـا للرَّسـولِ نُمِـي**

أي: اعتنِ برواية الحديث وحفظِه ونقلِه والاستشهادِ به والاستدلالِ به، «**ولازِمْ أهلَهُ**»؛ أي المعتَنين به، «**فهُمُ النَّاجُون**»؛ أي الَّذين تحقَّقت نجاتهم لاعتصامهم بكتاب الله وتمسُّكهم بسنَّة النَّبيِّ ﷺ، والمراد بـ«النَّجاة»؛ أي من سَخَط الله عَزَّوَجَلَّ وعقابه.

«**نصًّا صريحًا**»؛ أي تحقُّق نجاة هؤلاء جاء فيه نصٌّ صريحٌ، «**للرَّسول نُمِي**»؛ أي رُفع إلى النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، يشير إلى ما رواه ابن ماجه والإمام أحمد عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَة، وَهِيَ الجَمَاعَةُ**»[1].

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٣٩٩٣)، و«المسند» (٣/ ١٢٠).

وعند التِّرمذيِّ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»(١).

وقد روى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»(٢) وغيره عن الإمام أحمد أنَّه قال: «إن لم يكونوا أصحابَ الحديث، فلا أدري مَن هُم!؟».

وفي «الصَّحيحين»(٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**».

وفي «صحيح مسلم»(٤) من حديث ثَوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**».

وروى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» عن يزيد بن هارون، وعبد الله بن المبارك، والإمام أحمد، وعليِّ بن المديني أنَّهم قالوا: «هُم عندي أصحاب الحديث»(٥).

قال أبو عبد الحاكم في «معرفة علوم الحديث»(٦): «فلقد أحسنَ أحمد

---

(١) «جامع التِّرمذيِّ» برقم (٢٦٤١)، وللحديث طرق وشواهد أخرى خرَّجها العلَّامة الألباني رحمه الله في «السِّلسلة الصَّحيحة» برقم (٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) (ص٢٥).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٣١١)، و«صحيح مسلم» برقم (١٩٢١).

(٤) برقم (١٩٢٠).

(٥) (ص٢٧).

(٦) (ص٣٥).

ابن حنبل في تفسير هذا الخبر أنَّ الطَّائفة المنصورة الَّتي يُرفع الخِذلان عنهم إلى قيام السَّاعة هم أصحاب الحديث، وَمَنْ أحقُّ بهذا التَّأويل مِنْ قَوْمٍ سلكوا محجَّة الصَّالحين واتَّبعوا آثار السَّلف من الماضين، ودمغوا أهلَ البدع والمخالفين بسُنَن رسول الله ﷺ وعلى آله أجمعين».

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٣٤- سَامِتْ مَنابِرَهُمْ واحْمِلْ محابِرَهُمْ والْزَمْ أكابِرَهُم في كلِّ مُزْدَحَمِ**

قوله: «**سامِتْ**»؛ أي اقصِد، «السَّمْت»: قصد الشَّيء، «**منابرَهم**»؛ «المنابر» جمع منبر، وهو المكان الَّذي يرتقيه الخطيب والواعظ، والمعنى: اقصد مجالس أهل الحديث ومجالس العلم والفقه في دين الله، واحرص على حضورها والإفادة منها.

«**واحمِلْ مَحَابِرَهُم**»؛ المحابر جمع محبرة، ومراد النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ: أي احرص عند حضورك لمجالس أهل العلم أن يكونَ معك القلمُ والقِرطاس؛ لتقييد الفوائد، فالعلم صَيْدٌ والكتابةُ قيده.

«**والزَمْ أكابِرَهم**»؛ أي أكابر أهل العلم، كما جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «لا يزال النَّاس صالحين متماسكين ما أتاهم العلمُ من أصحاب محمَّد ﷺ ومن أكابرهم، فإذا أتاهم من أصاغرهم هلكوا»، رواه عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف»[1] وغيره.

(١) برقم (٢٠٤٤٦).

«**في كلِّ مُزْدحَم**»؛ أي إذا ازدحم النَّاسُ وتجمَّعوا على شيء، فليكن حرصك على المزاحمة بالرُّكَب عند الأكابر من أهل العلم والفقه في دين الله والقَدَم الرَّاسخة فيه والعمر المديد في تحصيله وتعليمه والتَّفقيه فيه.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٣٥ - اسْلُكْ مَنارَهُمُو والْزَمْ شِعارَهُمُ     واحْطُطْ رِحالَكَ إنْ تَنْزِلْ بِسُوحِهِمِ**

قوله: «**اسْلُكْ مَنَارَهُمو**»؛ «المنار» هو العلامة، والمراد: سِرْ في الطَّريق الَّذي ساروا عليه، ملتزمًا معالم طريقهم، مقتفيًا آثارهم، لا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا.

«**والزَمْ شِعارَهُمُ**»؛ أي: الزَم الهدى الَّذي لَزِمُوه، وتمسَّك بالنَّهج الَّذي كانوا عليه؛ فإنَّ شعارَهم وسِمتَهُم التَّمسُّك بالوحي المبين.

«**واحْطُط رِحَالَك**»؛ «الحطُّ»: الوضع، و«رحال»: جمع رَحْل، وهو المركب للبعير.

«**إنْ تنزل بسُوحِهم**»؛ جمع ساحة، وتجمع ـ أيضًا ـ على ساحات، وهي الأرض الفضاء بين الدُّور، والمراد بقوله: «**واحْطُطْ رحالك إنْ تَنزلْ بسُوحِهِم**»؛ أي إذا جئت مكانهم؛ فلازم الجلوسَ والاطمئنانَ والحرصَ والتَّعلُّمَ.

والرَّجل المرتحل إذا حطَّ رحالَه؛ فهذا إشعارٌ بطول المكث، بخلاف المستعجل يُبقي رحالَه كما هي.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٣٦ - همُ العُدولُ لِحَمْلِ العِلمِ كَيْفَ وَهُمْ     أُولُو المكارِمِ والأخْلاقِ والشِّيَمِ**

قوله: «**همُ العُدولُ لحمْلِ العِلم**»؛ ذكر هنا عدالتهم، وأنَّهم خيرُ حملَةٍ للعلم، اعتنوا بالعلم حفظًا وعملًا وإبلاغًا للأمَّة، وكلُّ هذه المعاني داخلة في حمل العلم، حمل العلم في الصُّدور، وحمل العلم إلى النَّاس؛ نصحًا وبيانًا وتعليمًا.

وقوله: «**كيفَ وهُمْ أُولُو المكارِمِ والأخلاقِ والشِّيَمِ**»؛ أي إضافة إلى حملهم للعلم هم كذلك أهل الاتِّصاف بالصِّفات الرَّفيعة من مكارم الأخلاق والشِّيم النَّبيلة، والآداب الفاضلة الَّتي حلَّاهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وزيَّنهم بها.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**همُ العُدول لَحمْلِ العِلْمِ**»؛ يشير إلى الحديث المشهور: «**يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ**»[1].

روى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»[2] بسنده عن مهنا ـ هو ابن يحيى ـ قال: سألت أحمد عن هذا الحديث، فقلت لأحمد: كأنَّه كلام موضوع؟ قال: لا هو صحيح، فقلت: ممَّن سمعتَه أنت؟ قال: من غير واحد...».

وضمَّنه في خطبة كتابه «في الرَّدِّ على الجهميَّة»[3]، فقال رَحِمَهُ اللهُ: «الحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان فترةٍ من الرُّسل بقايا مِنْ أهل العلم يدعون مَنْ ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصِّرون

---

(١) رواه البيهقيُّ في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٠٩)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٩) وغيرهما، وصحَّحه الشَّيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٢٤٨).

(٢) (ص٢٩).

(٣) (ص٦).

بكتاب الله أهل العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيَوه، وكم من تائهٍ ضالٍّ قد هدوه، فما أحسن أثرَهم على النَّاس، وما أقبح أثرَ النَّاس عليهم، ينفُون عن كتاب الله تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين...».

قال ابن عبد البرِّ في «التَّمهيد»[1]: « وكلُّ حامل علم معروف العناية به، فهو عدلٌ محمولٌ في أمره أبدًا على العدالة حتَّى تتبيَّن جرحته في حاله»، واستدلَّ بهذا الحديث، فالأصلُ في حملة العلم العدالة.

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مفتاح دار السَّعادة»[2]: «فهذا الحمل المشار إليه في هذا الحديث هو التَّوكُّل[3] المذكور في الآية (يعني قوله تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٨٩])، فأخبر ﷺ أنَّ العلم الَّذي جاء به يحمله عدول أمَّته مِنْ كلِّ خلفٍ حتَّى لا يضيع ويذهب، وهذا يتضمَّن تعديلَه ﷺ لحملة العلم الَّذي بُعث به، وهو المشار إليه في قوله: «**هذا العلم**»، فكلُّ من حمل العلم المشار إليه لابدَّ وأن يكون عدلًا؛ ولهذا اشتهر عند الأمَّة عدالة نقلته وحملته اشتهارًا لا يقبل شكًّا ولا امتراءً، ولا ريب أنَّ من عدَّله رسول الله ﷺ لا يُسمع فيه جرح، فالأئمَّة الَّذين اشتهروا عند الأمَّة بنقل العلم النَّبويِّ وميراثه كلُّهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ؛ ولهذا لا يُقبل قدحُ بعضهم في بعض، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمَّة جرحُه والقدح فيه كأئمَّة البدع ومن جرى مجراهم من

---

(١) (١/ ٢٨).　(٢) (١/ ١٦٣).

(٣) كذا في المطبوع ولعل الصواب: التوكيل.

المتَّهمين في الدِّين، فإنَّهم ليسوا عند الأمَّة من حملة العلم، فما حمل علمَ رسول الله ﷺ إلَّا عدلٌ، ولكن قد يُغلط في مسمَّى العدالة؛ فيظنُّ أنَّ المراد بـ«العدل»: من لا ذنبَ له، وليس كذلك، بل هو عَدْلٌ مُؤْتَمَنٌ على الدِّين، وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه، فإنَّ هذا لا يُنافي العدالةَ، كما لا يُنافي الإيمانَ والولايةَ».

وقال في «مدارج السَّالكين»[1]: «واستشهد الله عَزَّوَجَلَّ بأهل العلم على أجلِّ مشهود به ـ وهو التَّوحيد ـ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضِمْنِ ذلك تعديلهم؛ فإنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يستشهد بمجروح، ومن ههنا ـ والله أعلم ـ يؤخذ الحديث المعروف: «**يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وَتَأْوِيلَ المُبْطِلِينَ**». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٣٧ - همُ الأفاضِلُ حازُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ هُمُ الأُلى بِهِمُ الدِّينُ الحَنيفُ حُمِي**

قوله: «**حازُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ**»؛ إشادة بفضل حملةِ العلم؛ بأنَّهم حازوا خير منقبةٍ بما آتاهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من بصيرةٍ بدين الله، وعنايةٍ بنشره وإشاعته في النَّاس.

وقوله: «**هُمُ الأُلى**»؛ «الألى»: اسم موصول بمعنى «الَّذين»، «**بهم الدِّين الحَنيف حُمِي**»؛ أي أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قيَّضهم حماةً للدِّين وأنصارًا للسُّنَّة، فكانوا أهلًا للذَّبِّ عن دين الله، وعن كتاب الله، وعن سنَّة رسول الله ﷺ

(١) (٢/ ٤٧٠).

ينفون عن كتاب الله تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٣٨- هُمُ الجَهابِذَةُ الأعْلامُ تعرِفُهُمْ بَينَ الأنامِ بِسيَاهُمْ وَوَسْمِهِمِ**

قوله: «**هُمُ الجَهَابذةُ** »؛ جمع جِهْبذ ـ بالكسر ـ وهو النَّقَّاد الخبير بِغوامِض الأُمور البارِعُ العارِفُ بطُرِق النَّقْدِ وتمييز الجيِّد من الرديّ[1]، وهو مُعَرَّب «**الأَعْلامُ**» أي أهل النُّبْل والفضل والخير والرُّتَب العليَّة.

«**بسيماهُمْ**»؛ أي بعلاماتهم، يقال: «سيما» بالقصر، و«سيماء» بالمدِّ، «**ووَسْمِهِم**»؛ «الوَسْم» في الأصل أثر الكيِّ، وسمَه ويَسِمُه وَسْمًا وسِمَةً، والمعنى أنَّ هؤلاء معروفون بعلاماتٍ وآثار تميُّزهم عن غيرهم، والمراد بالعلامات والآثار: الالتزام بالدِّين والتَّمسُّك بالسُّنَّة والتَّحلِّي بالأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة، والسَّمت الحسن، والبُعد عن سَفساف الأمور ورديئها.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٣٩- همْ ناصِرُو الدِّينِ والْحامُونَ حَوْزَتَهُ مِنَ العَدُوِّ بِجيشٍ غيرِ مُنْهَزِمِ**

قوله: «**هُمْ ناصرو الدِّينِ**»؛ أي الَّذين قيَّضهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنصارًا لدينه، «**والحامُون حوزتَه**»؛ أي قيَّضهم أنصارًا للدِّين وحماة لحوزته، «**من العدوِّ**»؛ أي الَّذين حرصُوا على الصَّدِّ عن دين الله أو نشر البدع والباطل والضَّلال، فهؤلاء الَّذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، المخالفون

---

(١) انظر: «تاج العروس» مادة (ج ه ب ذ).

للكتاب وللسُّنَّة هم أعداء للدِّين، «**بجَيْش**»؛ والمراد بـ«الجيش» هنا قوَّة الرُّدود بالآيات والأحاديث، والنُّقول العظيمة عن أئمَّة السَّلف، ولهذا ترى بعض كتب الرُّدود لأهل العلم قد يوضع لها عناوين بهذا المعنى مثل: «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة»، و«الصَّواعق المرسلة» كلاهما لابن القيِّم، و«جمع الجيوش والدَّساكر» ليوسف بن عبدالهادي.

وقوله: «**غَيرِ مُنْهَزِمِ**»؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تكفَّل بنصرة أوليائه، كما قال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ**﴾ [الصَّافَّات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال سبحانه: ﴿**كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ**﴾ [المجادلة: ٢١]، فالغلبة لأنصار الدِّين وحماته، والظَّفر والنَّصر لرسل الله وأتباعهم.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٤٠- همُ البُدورُ ولكنْ لا أُفُولَ لَـهُمْ بَـلِ الـشُّموسُ وقَـدْ فـاقُوا بِنُـورِهِمِ**

قوله: «**همُ البُدورُ**»؛ جمع بَدْر، ومَرَّ معنا في أوائل هذه المنظومة «**فَضْلُ العَالِمِ عَلى العَابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلى سَائِرِ الكَواكِبِ**»[1].

«**لا أُفول**»؛ أَي لا غياب، يقال: أَفَلَت الشَّمسُ تأْفِل وتأْفُل أَفْلًا وأُفولًا؛ غَرَبت وغابت، وكذلك القمر يأْفِلُ، والمعنى: إذا أَفَل البدر الَّذي في السَّماء وغاب؛ فإنَّ هؤلاء العلماء لا أُفول لهم؛ لأنَّ علمَهم لا يزال في انتشار وفي

---

(١) (ص٦٠).

شيوع، والنَّاس لا تَزال تستفيد من هذا النُّور نور العلم، وضياء السُّنَّة والحقِّ الَّذي دَعَوا إليه.

وقوله: «**وقَدْ فاقُوا بنُورِهِم**»؛ أي هؤلاء العلماء قد فاق نورُهم نورَ الشَّمس والقمر؛ لماذا؟ قال:

**١٤١- لم يبقَ للشَّمس مِنْ نُورٍ إذا أَفَلَـتْ ونـورُهم مُـشْرِقٌ مِـنْ بَعْـدِ رَمْـسِهِمِ**

قوله: «**بعد رمسِهِم**»؛ جاء في «القاموس»: الرَّمْس: القبر، أي بعد دفنهم في القبور، والمعنى أنَّ العالم بعد أن يُدفن في قبره؛ يبقى نوره؛ لأنَّ العلم الَّذي حملَه وسعى في نشره لا يموت بموتِه، وهذا هو حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ العالم الجليل دُفن عام ألفٍ وثلاثمائةٍ وسبع وسبعين، ونحن الآن في هذا اليوم مع علم ونور قيَّضه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لبيانه، هو دُفن لكن النُّور الَّذي أكرمه الله سبحانه وتعالى بنشره باقٍ.

وهكذا الأئمَّة والعلماء السَّابقين منهم واللَّاحقين قد دُفنوا وأُدخلوا القبور؛ لكنَّ علمهم باقٍ، وهذه ـ والله ـ الغنيمة، وهذا عمرٌ لهم بعد عمر، وحياةٌ بعد حياة.

كما قال الشَّاعر:

ذِكْرُ الفتَى عُمْـرُه الثَّـاني وحاجتُـه ما قاتَهُ وفضُولُ العَيْش أشـغَالُ

وقال آخر:

يموتُ قومٌ فَيُحيي العلمُ ذِكْـرَهم والجهلُ يُلْحِقُ أحيـاءً بِـأمْواتِ

والعالم لا يزال في قبره تتوالى عليه الأجور وهو في قبره؛ بما بثَّه في الأمَّة من علم وبيان للدِّين، ونصرة لسنَّة النَّبيِّ الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٤٢- لَهُمْ مَقامٌ رَفيعٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ مِنَ العِبادِ سِوَى السَّاعِي كَسَعْيِهِمِ**

أي أهل العلم مقامهم مقامٌ رفيعٌ وعالٍ، وهذا المقام الرَّفيع لا يناله كلُّ أحد ولا يظفر به كلُّ إنسان، وإنَّما الَّذي يظفر به السَّاعي كسعيهم، حيث إنَّ أهلَ العلم قد منَّ الله عليهم بالصَّبر والجَلَد، والجدِّ والاجتهاد حتَّى بلغوا مبلغًا عظيمًا ورتبةً عليَّةً، فالَّذي يريد لنفسِه مثل مقام هؤلاء فليسعَ مثلَ سعيهم، وهذا فيه أنَّ العلم لا يُنال إلَّا بالصَّبر والجدِّ والاجتهاد، كما جاء في «صحيح مسلم»(١) عن يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم»، ولا ينال بمجرَّد الأماني، وفي الحديث: «**إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَه، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ**»(٢).

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٤٣- أَبْلِغْ بِحُجَّتِهِمْ أَرْجِحْ بِكِفَّتِهِمْ فِي الفَضْلِ إِنْ قِسْتَهُمْ وَزْنًا بِغَيْرِهِمِ**

قوله: «**أَبلِغْ بحُجَّتِهِمْ أَرْجِحْ بكَفَّتِهِم**» أي قُلْ: ما أبلغَ حجَّتَهم، وما

(١) رقم (٦١٢).

(٢) رواه الخطيب في «تاريخه» (٩/ ١٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأورده الألباني في «السِّلسة الصَّحيحة» برقم (٣٤٢) وحسَّنه.

أرجح كِفّتهم، مثل قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أي ما أسمعَهم، وما أبصرَهم يوم القيامة.

وقوله: «**إنْ قِسْتَهُمْ وَزْنًا بِغَيْرِهِمِ**» أي إذا أردتَ أن تقايس وتُوازن أهل العلم بغيرهم في الفضل والشَّرف والسُّؤدد فأبلغ بحجَّة العلماء وأرجِح بكفَّتهم فهي الكفَّة الرَّاجحة، وحجَّتُهم الحجَّةُ البالغة الدَّامغة، ومكانتُهم المكانة العالية السَّامقة.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٤٤- كفاهُمُو شَرَفًا أنْ أصبحُوا خَلَفًا لِلسَّيِّدِ الحُنَفَا في دينِهِ القِيَمِ**

قوله: «**كَفَاهُمو شَرفًا**»؛ أي كفاهم نُبلًا وفضيلةً ومنزلةً ومكانةً، «**أن أصبَحُوا خَلَفًا**»؛ أي أتباعًا؛ لأنَّهم ورثوا العلم الَّذي جاء به؛ فإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنَّما ورَّثوا العلم، «**لسَيِّد الحُنَفَاء**» محمَّد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، «**الحُنَفَاء**»: جمع حنيف، وهو المائل عن الضَّلال إلى الهدى وعن الباطل إلى الحقِّ، وعن الشِّرك إلى التَّوحيد، «**في دينِهِ القِيَم**»؛ الجار والمجرور متعلِّق بقوله: «**أصبَحُوا خلفًا**»؛ أي خلفوا النَّبيَّ ﷺ في دينه القويم، فقاموا بالدَّعوة إليه والانتصار له والذَّبِّ عنه وحماية حوزته.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٤٥- يُحْيُونَ سُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فَلَهُمْ أَوْلَى بِهِ مِنْ جَميعِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ**

قوله: «**يحيُون سُنَّته مِنْ بعدِه**»؛ فيه إشارة إلى أنَّ هؤلاء الأئمَّة العدول

يعملون على إحياء السُّنن بخلاف طريقة أهل الباطل المبنيَّة على إشاعة البدع وإماتة السُّنن.

«**فَلَهُم أَوْلى به مِنْ جميعِ الخلْقِ كُلِّهِم**»؛ أي هم أولى النَّاس بالنَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ؛ لأنَّهم قاموا مقامه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في حمل الدِّين ونقله، وبثِّه في الأمَّة.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٤٦- يَرْوُونَ عنهُ أحَادِيثَ الـشَّريعَةِ لا يَـأْلُونَ حِفْظًـا لَهَـا بالـصَّدْرِ والقَلَـمِ**

قوله: «**يَرْوُونَ عنهُ أحَادِيثَ الشَّريعَةِ**»؛ أي هذا دأبهم وهمُّهم رواية الحديث عن النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، «**لا يألُونَ حِفْظًا لها**»؛ أي لا يدَّخرون وُسعًا وطاقةً وجهدًا في حفظ الحديث، «**بالصَّدْر والقلَم**»؛ أي يجتهدون في حفظ السُّنن وضبطها في صدورهم، وكُتُبهم.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٤٧- يَنْفُونَ عنها انْتِحَالَ المُبْطِلِينَ وتَحْـ ريفَ الغُـلاةِ وتَأْويـلَ الغَـوِيْ اللَّـئِمِ**

قوله: «**يَنْفُون عَنْها**»؛ أي عن السُّنَّة وعن الشَّريعة «**انتحالَ المُبطِلِين وتحريفَ الغُلاة وتَأْويلَ الغَوِي اللَّئِم**» يشير إلى الحديث المتقدِّم: «**يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ**»[1].

---

(١) (ص١٦٣).

قال ابن القيِّم في «إغاثة اللَّهفان»[1]: «فأخبر أنَّ الغالين يحرِّفون ما جاء به، والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه، والجاهلون يتأوَّلونه على غير تأويله، وفساد الإسلام من هؤلاء الطَّوائف الثَّلاثة، فلولا أنَّ الله تعالى يقيم لدينِه من يَنفي عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبلَه من هؤلاء» انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وروى ابن عبد البرِّ في «التَّمهيد»[2] عن عبدة بن سليمان المروزي قال: قلت لابن المبارك: أما تخشَى على العلم أن يجيء المبتدعُ فيزيد في الحديث ما ليس منه؟ قال: «لا أخشى هذا بعيش الجهابذة النُّقَّاد».

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٤٨ - أدَّوا مَقالَتَـهُ نُـصْحًا لأمَّتِـهِ صـانُوْا رِوايَتَهـا عـنْ كُـلِّ مُـتَّهَمِ**

قوله: «**أدَّوا مَقالَتَهُ**»؛ أي مقالة النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ الشَّريفة، ومعنى أدَّوها أي بلَّغوها للأمَّة، الصَّحابة بلَّغوها للتَّابعين، والتَّابعون بلَّغوها لأتباعهم، ولسانُ حال كلٍّ يقول: هذا ما أُدِّي إلينا ونؤدِّيه إليكم تامًّا كما أُدِّي إلينا.

«**نُصْحًا لأمَّتِه**»؛ هذا من كمال نصحهم، وكانت مهمَّتهم في الأمَّة إبلاغهم سنَّة رسول الله ﷺ وهديه القويم.

---

(١) (١/ ١٥٩).

(٢) (١/ ٦٠).

«**صانُوا رِوَايَتَها**»؛ أي الشَّريعة والسُّنَّة «**عن كُلِّ مُتَّهَم**»؛ لا يقبلون روايتَه، ولهذا أُلِّفت مؤلَّفات كثيرة لأهل العلم في هذا الباب ـ باب الجَرح والتَّعديل ـ ومَن الَّذي تُقبل روايتُه والَّذي لا تُقبل.

جاء في «التَّعديل والتَّجريح» للباجي[1]: عن محمَّد ـ يعني ابن سيرين ـ أنَّه قال: «إنَّ هذا الحديث دينٌ فانظروا عمَّن تأخذونه»، وقال عبد الله ابن المبارك: «الإسناد من الدِّين، لولا الإسناد؛ لقال من شاء ما شاء»، وكان بهز ابن أسد يقول ـ إذا ذُكر له الإسناد الصَّحيح ـ: «هذه شهادة العدول المرضيِّين بعضهم على بعض»، وإذا ذكر له الإسناد وفيه شيء قال: «هذا فيه عهدة»، ويقول: «لو أنَّ رجلًا ادَّعى على رجلٍ عشرة دراهم لم يستطع أخذها إلَّا بشهادة العدول، فدين الله أحقُّ أن يُؤخذ فيه بالعدول»، وقال عبدة ابن سليمان: قيل لابن المبارك في هذه الأحاديث الموضوعة؟ قال: «يعيش لها الجهابذة»، وقال الأوزاعي: سمعت يزيد بن أبي حبيب يقول: «إذا سمعت الحديث فأنشده كما تُنشد الضَّالَّة، فإنْ عُرف فخذه، وإلَّا فدعه»، وقال ابن عون: «لا يؤخذ هذا العلم إلَّا عمَّن شُهد له بالطَّلب»، وروى المغيرة عن إبراهيم (هو النَّخعيُّ) قال: «كانوا إذا أرادوا أن يأخذوا عن الرَّجل نظروا إلى صلاته وإلى هيئته وإلى سمته»، وقال عبد الرَّحمن بن مهدي: قال شعبة: «كنت أنظر إلى فم قتادة، فإذا قال: حدَّثنا؛ كتبنا عنه فوقفته عليه، وإذا لم يقل: حدَّثنا؛ لم أكتب عنه»، قال عبد الرَّحمن بن مهدي: «خصلتان لا يستقيم فيهما حسنُ

---

(١) (١/ ٢٩١).

الظَّنِّ: الحكم والحديث»، يعني: لا يستعمل حُسن الظَّنِّ في قبول الرِّواية عمَّن ليس بمرضيٍّ» اهـ.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٤٩- لَمْ يُلْهِهِمْ قطُّ مِن مالٍ ولا خَوَلٍ ولا ابْتِياعٍ ولا حَرْثٍ ولا نَعَمِ**

قوله: «**لم يُلْهِهم**»؛ أي هؤلاء العلماء الأعلام حملة السُّنَّة «**قطُّ مِن مالٍ ولا خَوَلٍ**»؛ «الخول»: ما أعطاك الله من النِّعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية، يقال للواحد منهم: خال، ويجمع على خَوَل، وجاء في «الصَّحيحين»: «**إخوانُكم خَوَلُكُم**»[1].

فهذه الأشياء كلُّها المال، والخول، والبيع والشِّراء، والحرث والأنعام لم تشغلهم عن العلم وتحصيله، قال أبو عبد الله الحاكم في «معرفة علوم الحديث»[2]: «إنَّ أصحابَ الحديث خير النَّاس وكيف لا يكونون كذلك وقد نبذوا الدُّنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءَهم الكتابة، وسَمرهم المعارضة، واسترواحهم المذاكرة، وخَلوقهم المِداد، ونومهم السُّهَاد، واصطلاءَهم الضِّياء، وتوسُّدهم الحصى، فالشَّدائدُ مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء، ووجود الرَّخاء مع فَقْدِ ما طلبوه عندهم بؤس، فعقولهم بلذاذة السُّنَّة غامرة، تعلُّمُ السُّنن سرورهم، ومجالسُ العلم حُبورهم، وأهل السُّنَّة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم».

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٠)، ومسلم برقم (١٦٦١) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) (ص٣٥).

* ثمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥٠- هَذا هُو المَجدُ لا مُلْكٌ ولا نَسَبٌ     كَـلَّا ولا الجَمْـعُ لِلأمـوالِ والخَـدَمِ

قوله: «هَذا هُو المجْدُ»؛ أي العناية بالعلم وبدين الله وبسنَّة رسول الله ﷺ، «لا مُلْكٌ ولا نَسَبٌ» فالمجد بالعلم والعمل، «كَلَّا وَلا الجَمْعُ للأمْوَال والخَدَمِ»؛ لأنَّ هذه كلَّها تنتهي إلَّا العلم فإنَّ النَّفع به دائمٌ.

* قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥١- فكُلُّ مَجْدٍ وَضِيعٌ عِند مَجْـدِهِمُو     وكـلُّ مُلْـكٍ فَخُـدَّامٌ لِمُلْكِهِـمِ

قوله: «فكُلُّ مَجْدٍ وَضِيعٌ عند مَجْدِهِمُو»؛ أي بالنِّسبة إلى مجد هؤلاء العلماء الأعلام، «وكلُّ مُلْكٍ فَخُدَّامٌ لِمُلْكِهِم»، وهذا فيه أنَّ المجد الحقيقيَّ والسِّيادة والعلوَّ والرِّفعة بالعلم، جاء في «تاريخ بغداد»[١] عن شعبة أنَّه قال: «إنَّ سفيان الثَّوريَّ ساد النَّاسَ بالورع والعلم».

وفي «جامع بيان العلم»[٢] لابن عبد البرِّ: قال الحجَّاج لخالد بن صفوان: من سيِّد أهل البصرة؟ فقال له: الحسَن، فقال: وكيف ذلك وهو مولى؟ فقال: احتاج النَّاس إليه في دينهم، واستغنى عنهم في دنياهم، وما رأيتُ أحدًا من أشراف أهل البصرة إلَّا وهو يروم الوصول في حلقتِه إليه ليستمع قولَه ويكتب علمَه، فقال الحجاج: هذا والله السُّؤدَد».

---

(١) (٩/ ١٦٢).

(٢) رقم (٣٣٢).

١٥٢- والأَمْنُ والنُّورُ والفَوْزُ العَظيمُ لَهُمْ    يَــوْمَ القِيامَــةِ والبُــشْرَى لِحِــزْبِهِمِ

اشتمل هذا البيت على ذكر أربع ثمرات عليَّة وقطوف سنيَّة يقطفها هؤلاء:

**الأولى**: الأمن، أي في الدُّنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢].

**الثَّانية**: النُّور، فالعلم نور لصاحبه وضياء يهتدي به في الظُّلمات، قال تعالى: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ**﴾ [الزمر: ٢٢].

**الثَّالثة**: الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**﴾ [النساء: ١٣]، وقال تعالى: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**﴾ [التوبة: ٧٢].

**الرَّابعة**: البُشرى في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة؛ قال تعالى: ﴿**أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤]، وقال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ـ ١٨].

ثمَّ إنَّ النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا أشاد بهؤلاء وذكر مجدِهم وعلوِّهم ورفعتِهم، وفي هذا تشويقٌ للقلوب لتبلغ مبلغَهم، فلمَّا أَنِس رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ القلوب تاقت إلى هذه المنازل، واشتاقت إلى هذه الدَّرجات قال:

**١٥٣- فإنْ أَرَدْتَ رُقِيًّا نَحوَ رُتْبَتِهِمِ     ورُمْتَ مَجْدًا رفِيعًا مِثْلَ مَجْدِهِمِ**

أي إنْ أحببتَ لنفسك هذا الَّذي أشيرَ إليه في الأبيات السَّابقة، ورغبت في ذلك؛ فعليك بلزوم ما يلي:

**١٥٤- فاعْمِدْ إِلَى سُلَّمِ التقوَى الَّذِي نَصَبُوا     واصْعَدْ بِعَزْمٍ وَجِدَّ مِثْلَ جِدِّهِمِ**

عليك بسلَّم التَّقوى، ارقَ في درجاته؛ فإنَّك لا تزال في رفعة وعلوٍّ ما دُمْتَ فيه، وقوله: «**سُلَّم التَّقْوى**»؛ فيه إشارة إلى تفاوت أهل التَّقوى في التَّقوى، وتباين درجاتهم فيها، وأنَّهم ليسوا فيها على درجة واحدة، فاجتهد أن تبلغ الدَّرجة العليا الرَّفيعة من درجات المتَّقين، ويُلمح في هذا البيت إلى قوله تعالى: ﴿**إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا**﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي علمًا وضياءً ونورًا تميِّزون به.

«**واصعَدْ بعَزْم**»؛ أي بهمَّة عالية، «**وجِدَّ مثْلَ جِدِّهِمِ**»؛ أي اجتهد في تحصيل العلم والعمل به وبذله مثل جِدِّ هؤلاء، وهذا ـ أيضًا ـ يتطلَّب أن ينظر طالبُ العلم في سِيَر هؤلاء وجدَّهم وجلَدَهم وصبرهم ومثابرتهم ويكرِّر المطالعة، كما قال القائل:

كَرِّرْ عَليَّ حدِيثَهُم يَا حادِي     فحدِيثُهُم يَجْلُو الفؤادَ الصَّادِي

فيطالع سير هؤلاء باستمرار واستدامة حتَّى يكرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بمماثلة ومشابهة هؤلاء، قال الشَّاعر:

الجَدُّ في الجِدِّ والحرمانُ في الكسلِ فانْصَبْ تُصِبْ عن قريبٍ غايةَ الأملِ

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٥٥- واعْكُفْ عَلى السُّنَّةِ المُثْلى كَما عَكَفُوا حِفْظًا معَ الكَشْفِ عن تَفْسِيرِها وَدُمِ**

قوله: «**كما عَكَفُوا**»؛ أي مثلما عكف هؤلاء على سنَّة النَّبيِّ ﷺ مذاكرةً وحفظًا ومدارسةً.

«**حِفْظًا معَ الكَشْفِ عنْ تَفْسِيرِها**»؛ يعني لا تكن عنايتك بالسُّنَّة عنايةً بالحفظ فقط، بل اعتنِ أيضًا بالكشف عن تفسيرها، وهذا يكون بالأخذ عن أهل العلم الأكابر من حملة السُّنَّة، «**ودُمِ**»؛ أي داوم على الحفظ وعلى الفهم روايةً ودرايةً.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٥٦- واقْرَأْ كِتابًا يُفِيدُ الاصْطِلاحَ بِهِ تَدْرِي الصَّحيحَ مِن المَوْصوفِ بالسَّقَمِ**

أي: اقرأ في كتب مصطلح الحديث، وللنَّاظم رَحِمَهُ اللهُ منظومة في هذا الباب سمَّاها: «اللُّؤلؤ المكنون في أحوال الأسانيد والمتون»، وله متن يسمَّى: «دليل أرباب الفلاح لتحقيق فنِّ الاصطلاح».

«**به تَدْري الصَّحِيحَ مِنَ الموصُوفِ بالسَّقَمِ**»؛ أي بهذا العلم إذا درسته وتعلَّمتَه تستطيع أن تميِّز بين الصَّحيح والسَّقيم.

* ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٥٧- حَكِّم قَوَاعِدَهُ وَاحْرُزْ فَوَائِدَهُ    تَحُــزْ عَوَائِــدَهُ كَالــدُّرِّ تَنْــتَظِمِ

أي: اعتن بقواعد هذا الفنِّ واحرص على ضبطها لعظم فائدتها؛ فإنَّ فيها «بحثَ أحوال السَّند من حيث انتهائه من مرفوع وموقوف ومقطوع، وفي ذاته من متَّصل ومنقطع ومسلسل وعال ونازل وأنواع كلٍّ منها، ويبحث في أحوال المتن باعتبار طرقه من مشهور وعزيز وغريب، وباعتبار مراتبه من صحيح وحسن وضعيف ومحفوظ وشاذٍّ ومعروف ومنكر ومتابع وشاهد، وباعتبار الاستدلال والعمل به من محكم ومعارض وناسخ ومنسوخ وراجح ومرجوح وما يتعلَّق بها، وباعتبار عِلَله من معلَّق، ومرسل، ومعضل، ومنقطع، ومدلَّس، وموضوع، ومتروك، ومعلَّل، ومدرج ومقلوب، ومزيد ومضطرب، ومصحَّف، ومحرَّف، ومجهول، ومبهم، ومختلط، وعن صيغ الأداء من سماع، وتحديث، وإخبار وإنباء، وقراءة، ومناولة، ومشافهة ومكاتبة، وإجازة، وعنعنة، وقول، ووصيَّة، ووجادة، وعن أسماء الرُّواة وكناهم وألقابهم وأنسابهم من متَّفق، ومفترق، ومؤتلف، ومختلف، ومبهم، ومتشابه وغير ذلك، وعن طبقاتهم ومواليدهم ووفياتهم وبلدانهم وسيرهم وأحوالهم تعديلًا وجرحًا، ومراتب كلٍّ منهما، وآداب الشَّيخ والطَّالب، وسنّ التَّحمُّل والأداء وصفة كتابة الحديث وسماعه وإسماعه، والرِّحلة فيه وسببه وتصنيفه وغير ذلك»[1] من الفوائد العظيمة الَّتي مقصودها معرفة المقبول من المردود والصَّحيح من السَّقيم وهي «كالدُّرِّ» حسنًا وجمالًا «تنتظم» في عقد متكامل يعدُّ جزء من الدِّين.

(١) «دليل أرباب الفلاح لتحقيق فنِّ الاصطلاح» للنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٨ـ٩).

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٥٨- فهْيَ المَحَجَّةُ فاسْلُكْ غيرَ مُنْحَرِفٍ وَهْيَ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحاءُ فاعْتَصِمِ**

قوله: «**فَهْيَ**»؛ أي السُّنَّة، «**المحَجَّة**» أي الطَّريقة الواضحة البيِّنة المستقيمة، «**فاسلُكْ غَيرَ مُنْحَرِفٍ**»؛ أي الزَم صراطَ السُّنَّة المستقيم ولا تنحرف عنه ذات اليمين ولا ذات الشِّمال.

«**وهي الحنيفيَّة السَّمْحَاء**»؛ كما جاء في حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سُئل النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الأديان أحبُّ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؟ قال: «**الحنيفيَّة السَّمْحَة**»[1].

الحنيفيَّة؛ لأنَّ فيها الميل عن كلِّ ضلال وباطلٍ، والسَّمحة؛ لأنَّ فيها اليسر والسُّهولة، وعدم العنت والتَّعسير والمشقَّة.

وقوله: «**فاعتَصِمِ**»؛ أي اعتصم بالسُّنَّة والزَمها وتمسَّك بها وعضَّ عليها بناجذيك.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٥٩- وَحْيٌ مِنَ اللهِ كالقُرْآنِ شاهِدُهُ في سُورةِ النَّجْمِ فاحْفَظْهُ ولا تَهِمِ**

يقول: «**وَحْيٌ منَ الله كالقُرْآنِ**» أي السُّنَّة وحيٌ منَ الله ـ تبارك وتعالى ـ مثل القرآن، مثل ما أنَّ القرآن وحيٌ مِنَ الله؛ فالسُّنَّة كذلك وحيٌ من الله، ما الدَّليل؟ قال: «**شَاهِدُه في سُورَةِ النَّجْم**»؛ أي الشَّاهد والدَّليل على ذلك في سورة النَّجم في أوَّلها: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، وفي الحديث الصَّحيح عند أبي داود وأحمد والحاكم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت أكتب كلَّ شيء أسمعه من

(١) رواه أحمد (١/ ٢٣٦)، وحسَّنه لغيره الألباني في «الأدب المفرد» برقم (٢٨٨).

رسول الله ﷺ؛ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أتكتبُ كلَّ شيء ورسولُ الله ﷺ بشرٌ يتكلَّم في الغضب والرِّضا؟! فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرتُ لرسول الله ﷺ فأومأ بإصبعه إلى فيه فقال: «**اكْتُبْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ**»(١).

«**فاحفَظْه ولا تَهِمِ**»؛ أي احفظ ذلكَ، وإيَّاك وأن تقع في الوهم والغلط.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٦٠- خيرُ الكلامِ ومِنْ خيرِ الأنـامِ بَـدَا  مِن خـيرِ قَلْـبٍ بـهِ قـدْ فـاهَ خـيرُ فـمِ**

قوله: «**خيرُ الكَلامِ**»؛ أي سنَّته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وهديه خير الكلام وأحسنه، قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**إِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كَلَامُ اللهِ، وأحسنَ الهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ**»(٢).

«**ومِنْ خَيْرِ الأَنَامِ بَدَا**»؛ أي جاء هذا الخير وظهر من خير الأنام محمَّد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

«**مِن خَيْرِ قَلب**»؛ فقلبه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ خير القلوب وأطيبها وأزكاها.

«**به**»؛ أي بهذا الخير «**قَدْ فَاهَ خَيْرُ فَمِ**»؛ أي فمُ النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

هذه أربعة وجوه في الخير جمعها في هذا البيت: خير كلامٍ مِنْ خير الأنام، وخير قلب، وخير فم.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٦١- وهْيَ البيَانُ لأسْرارِ الكِتَابِ فبِالْـ  إعْراضِ عنْ حُكْمِها كُـنْ غَيرَمُتَّـسِمِ**

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٦٤٨)، وأحمد (٢/ ١٦٢)، والحاكم (١/ ١٨٧).
(٢) رواه النَّسائي برقم (١٥٧٨)، وصحَّحه الألباني.

أي: أنَّ السُّنَّة شارحة للقرآن ومفسِّرة له.

«**فبالإعْرَاضِ عن حُكْمِها كُنْ غَير متَّسِمِ**»؛ أي: كن غير متَّصفٍ بالإعراض عن حكم السُّنَّة، بل احرِصْ على لزومِها والتَّمسُّك بها، واحذَر أشدَّ الحذر أن تكونَ متَّصفًا بالإعراض عنها.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٦٢- حَكِّمْ نَبِيَّكَ وانْقَدْ وارْضَ سُنَّتَهُ   مَعَ اليَقينِ وحَوْلَ الشَّكِّ لا تَحُمِ**

قوله: «**حَكِّمْ نَبِيَّك**»؛ أي فيما تأتي وتذر ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥].

«**وانقَدْ**»؛ من الانقياد، وهو الالتزام والتَّمسُّك.

«**وارْضَ سنَّته**»؛ أي حلِّ قلبَك بالرِّضا بسُنَّة النَّبيِّ ﷺ، «**مَعَ اليَقِينِ**» دون شكٍّ ولا ريب: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ**﴾ [الحجرات: ١٥]؛ أي أيقَنُوا ولم يشكُّوا، «**وحَوْلَ الشَّكِّ**»؛ أي فيما جاء عنه، وفي هديه، وفي سنَّته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ «**لا تَحُم**»؛ أي لا تَقْرُب.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٦٣- واعْضُضْ عَلَيها وجانِبْ كلَّ مُحْدَثَةٍ   وقُلْ لِذِي بِدْعَةٍ يَدْعُوكَ لا نَعَمِ**

قوله: «**واعضُضْ عَلَيْهَا**»؛ أي على السُّنَّة بالنَّواجذ، «**وجَانِبْ كُلَّ مُحْدَثَةٍ**» أي: ابتعد عن جميع البدع، كما في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وعظنا رسولُ الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت

منها القلوب، فقال رجل: إنَّ هذه موعظة مودِّع؛ فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ أمرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٍ**» رواه أبو داود، والتِّرمذي، وابن ماجه، وأحمد(١).

«**وقُلْ لِذِي بِدْعَةٍ يَدْعُوكَ لا نَعَمِ**»؛ أي لا أقبلُ منكَ ولا أستمعُ إليكَ.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٦٤- فَمَا لِذِي ريبَـةٍ في نفـسِهِ حَـرَجٌ    مِمَّـا قَـضَى قـطُّ في الإِيْـمانِ مِـنْ قَـسَمِ**

قوله: «**فما لِذِي رِيبَةٍ**»؛ أي صاحب الشَّكِّ الَّذي «**في نفسِهِ حَرَجٌ**»، وفي صدره ارتياب «**مِمَّا قَضَى**» أي مِنْ سُنَّة النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وهديه القويم، فمن كان بهذه الصِّفة فما له «**في الإِيْمَانِ مِنْ قَسَمِ**»؛ أي من حظٍّ ولا نصيب، والدَّليل قال:

**١٦٥- (فَلا وَرَبِّكَ) أَقْوَى زاجِرًا لأُوْلِي الْـ    أَلْبـابِ والمُلْحِـدُ الزِّنْـدِيقُ في صَـمَمِ**

«**فلا وَرَبِّك أَقْوَى زاجرًا لأُولِي الألبَابِ**»؛ أي: أقوى زاجرًا عن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾**﴾ [النساء: ٦٥]، «**والمُلْحِدُ الزِّنديقُ في صَمَم**»؛ أي صُمَّتْ أذناه عن سماع هذا الحقِّ المبين والنُّور العظيم.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٦٠٧)، والتِّرمذي برقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه برقم (٤٢)، وأحمد برقم (١٧١٨٢)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» برقم (٩٣٧).

## فصل في الفرائض والآلةِ
## والتَّحْذيرِ منَ العُلومِ المُبْتَدَعَةِ

لَمَّا أنهى رَحِمَهُ اللَّهُ الوصيَّة بكتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ وسنَّة نبيِّه ﷺ عقد هذا الفصل للحثِّ على العناية بعلم الفرائض وعلوم الآلة، وللتَّحذير من العلوم المبتدعة الَّتي من تعلَّمها أفسَدت عليه دنياه وأُخراه.

وبدأ ـ أوَّلًا ـ بالحثِّ على تعلُّم علم الفرائض، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٦٦- وبالفرائِضِ نصفِ العِلْمِ فَاعْنَ كَمَا أَوْصَى الإلـهُ وخَـيْرُ الرُّسْـلِ كُلِّهِـم**

قوله: «**وبالفَرَائِضِ**»؛ أي «علم الفرائض»، ويسمَّى ـ أيضًا ـ: «علم المواريث»، ويسمَّى «علم التَّركات»، وهو «علمٌ بأصول من فقهٍ وحساب تعرِّف حقَّ كلٍّ في التَّركة»[1]، وهو من علوم الفقه ولا يخلو من ذكره كتاب فقهيٌّ؛ لكن لأهمِّيته ومكانته العظيمة أفرده عددٌ من أهل العلم بالتَّأليف.

وقوله: «**نصفِ العِلْمِ**»؛ مبنيٌّ على حديث يُروى في ذلك عن رسول الله ﷺ؛ لكنَّه لا يصحُّ، خرَّجه ابن ماجه والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! تَعَلَّمُوا الفَرَائِضَ وَعَلِّمُوهَا؛ فَإِنَّهُ نِصْفُ**

(١) «الدُّرُّ المختار» (٧/ ٣٤٩).

**العِلْمِ، وَهُوَ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْزَعُ مِنْ أُمَّتِي»**(١).

وقوله: «**فاعْنَ**»؛ أي اجعل هذا العلم محلَّ عنايتك، وموضعَ اهتمامك.

«**كما أوصَى الإلهُ وخَيْرُ الرُّسْلِ كُلِّهِم**»؛ أي كما أوصى الله عَزَّوَجَلَّ بهذا العلم، وأوصى به رسوله محمَّد ﷺ خير رسل الله أجمعين.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٦٧ - مِن فضْلِها أن تَوَلَّى اللهُ قِسْمَتَها ... ولَمْ يَكِلْهـا إلى عُـرْبٍ ولا عَجَـمِ**

أي: مِن فضل الفرائض وشرفِها ومكانتِها العظيمة أنَّ ربَّ العالمين ـ جلَّ وعزَّ ـ تولَّى بنفسه ـ سبحانه ـ قسمتَها؛ فأنزل في ذلك آيات تُتلى في كتابه، تأتي الإشارة إليها عند النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البيت الَّذي يلي هذا البيت.

وقوله: «**ولم يكِلْها إلى عُرْبٍ ولا عَجَم**»؛ أي لم يكل الله تعالى قسمة الفرائض إلى أحدٍ من النَّاس، بل تولَّى ذلك ـ جلَّ وعلا ـ بنفسه.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٦٨ -(يُوصيكُمُ اللهُ) آيٌ بَعْدَها(٢) اتَّصَلَتْ ... وفي الكَلالَـةِ أُخْـرَى فَـادْنُ واغْتَـنِمِ**

يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الآيات القرآنيَّة الَّتي ورد فيها قسمة الفرائض، وهي ثلاث آيات.

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٢٧١٩)، والحاكم برقم (٧٩٤٨)، والدَّارقطني (٤/ ٦٧).
وفي سنده حفص بن عمر بن أبي العطاف، قال البخاري في «الضُّعفاء» لـه (ص٤٥): «منكر الحديث»، وقال الحافظ في «التَّلخيص الحبير» (٣/ ٧٩): «متروك».

(٢) في نسخة: «من بعدها».

فقوله: «يُوصِيكُمُ الله» يشير به إلى قول الله تعالى في سورة النِّساء: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١١].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «آي بَعْدَها اتَّصَلَت»؛ أي: والآية الَّتي تليها متَّصلة بها، وهي قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله: «وفي الكَلالَةِ أُخْرى»؛ يشير به إلى ما جاء في آخر آية من النِّساء، وهي قول الله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

فهذه ثلاث آيات كريمات وردت في سورة النِّساء: آيتان متَّصلتان، وآية منفصلة عنهما جاءت في آخر السُّورة.

وقد اشتملت هذه الآيات الثَّلاث على أحكام المواريث:

**الآية الأولى**: في ميراث عمودي النَّسب: أصول الميِّت وفروعه.

**والآية الثَّانية**: في ميراث الزَّوجين والإخوة لأمٍّ.

**والآية الثَّالثة**: في ميراث الإخوة الأشقَّاء والإخوة لأب.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفي الكَلالَة**»؛ المراد بـ«الكلالة»: الميِّت يموت وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أبٌ، ولا جدٌّ، فمن كان من الأموات كذلك يُقال له: «الكلالة».

وقوله: «**فاذْنُ واغتَنِم**»؛ أي اقترب من هذه الآيات وتدبَّر في المعاني والمضامين وتفقَّه؛ تَفُزْ بأعظم غنيمة.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٦٩- وخُذْ إذا شِئتَ ما قدْ تَستَعِينُ بِهِ ... مِنْ آلةٍ تُلْفِهَا حَلًّا لِمُنْبَهِمِ**

**١٧٠- كالنَّحْوِ والصَّرْفِ والتَّجْويدِ معْ لُغَةٍ ... يُدْرَى بِها حَلُّ ما يَخْفى مِنَ الكَلِمِ**

هذان البيتان فيهما الحثُّ على علوم الآلة.

والعلوم تنقسم إلى قسمين:

- **علوم آلة**: وهي العلوم الَّتي لا تُقصد لذاتها، وإنَّما هي علمٌ خادم لغيره.
- **وعلوم ليست علوم آلة**: وهي العلوم المقصودة لذاتها.

وأشار في البيت الأوَّل إلى علم الآلة، وعرَّف به وذكر فائدته.

فتعريفه لعلم الآلة في قوله: «**تَسْتَعِينُ بِهِ**»؛ بيَّن أنَّه علمٌ خادم، يعين على فهم الكتاب والسُّنَّة، ليس مقصودًا لذاته.

وقوله: «**تُلْفِها**»؛ أي تجدها، وأصلها: «تُلْفِيها»؛ لكن حُذفت الياء؛ لأنَّه جواب الأمر، وهو «**خُذ**».

وقوله: «**حلًّا لُمْبَهِمِ**»؛ أي تجدها حلًّا لما أَشكل أو أُغلق عليك فهمه أو لم تتبيَّن المراد به، يقال: «أبهم الأمر»؛ أي اشتبه فلم يُدْرَ كيف يُؤتى له.

وقوله: «**كالنَّحْو والصَّرْف والتَّجْويد**»؛ هذه بعض علوم الآلة الَّتي ينبغي على طالب العلم أن يُعنى بها؛ لأنَّ فيها حلًّا لما استبهم عليه، ولما أغلق عليه فهمه، وهذه ذكرها على سبيل المثال لا الحصر.

و«**النَّحو**» هو: العلم بالقواعد التي يُعرف بها أحكام أواخر الكلمات العربيَّة في تراكيبها من الإعراب والبناء وما يتبع ذلك.

و«**الصَّرف**»: هو العلم بالقواعد الَّتي تُعرف بها كيفيَّة صِياغة الأبنيَّة العربيَّة، وأحوال هذه الأبنية الَّتي ليست إعرابًا ولا بناءً.

و«**التَّجويد**»: هو العلم الَّذي يُعرف به إخراج كلِّ حرف من مخرجه، وإعطاؤه حقَّه ومستحقَّه من الصِّفات.

* **قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٧١- واحْذَرْ قوانينَ أرْبابِ الكَلامِ فمَا   بِها مِنَ العِلْمِ غَيْرُ الشَّكِّ والتُّهَمِ**

هذا البيت والأبيات الَّتي بعده في التَّحذير من علم الكلام الباطل، وقوانين المتكلِّمين الفاسدة.

قوله: «**فاحْذَر قَوانِينَ أربَابِ الكَلامِ**»؛ أي كُنْ على حَذَرٍ ـ يا طالبَ العلم ـ من قوانين علماء الكلام الباطل، وهي القواعد الَّتي وضعوها لتحريف كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وردِّ ما يخالف أهواءهم ممَّا جاء في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وسيأتي بيان المراد بعلم الكلام الباطل الَّذي ذمَّه السَّلف وحذَّروا منه أشدَّ التَّحذير، وسيأتي ـ أيضًا ـ ذكر بعض النُّقول عنهم في ذلك.

قوله: «**فَما بهَا منَ العِلْمِ غَيْرُ الشَّكِّ والتُّهَم**»؛ أي أنَّ هذا العلم ليس فيه إلَّا الشَّكُّ، ولا يجني مَنْ حصَّله مِن ورائه إلَّا الشُّكوك والتُّهم والظُّنون الفاسدة، والأوهام الكاسدة، لا يَجني مِنْ ورائه عِلْمًا ولا تحقيقًا، وستأتي شهادة المشتغلين بهذا العلم بأنفسهم على هذا.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٧٢ – قامُوسُ فَلْسَفَةٍ مِفْتاحُ زنْدَقَةٍ    كَمْ مِنْ مُلِمٍّ بِهِ قَدْ باءَ بالنَّدَمِ**

قوله: «**قامُوسُ فَلْسَفَةٍ مِفْتاحُ زَندَقَةٍ**»؛ أي أنَّ علم الكلام هو في حقيقته وواقع أمره؛ قاموس فلسفةٍ ومفتاح زَنْدَقَةٍ، وهذه إشارةٌ إلى فساد هذا العلم في مقدِّماتِه ونتائجِه؛ أمَّا مقدِّماته: فهو ـ كما أشار الشَّيخ ـ قاموس فلسفة: صفُّ كلامٍ، وجمعُ جُملٍ، وترتيبُ ألفاظٍ وحروفٍ على غير هدى.

وأمَّا نتائجه: فهو مفتاح زندقةٍ، يفتح على المشتغِلِ به باب زندقة وضلال، وسيأتي من كلام السَّلف ما يعضِّد ذلك ويشهد له.

قوله: «**كَمْ مِنْ مُلِمٍّ بِهِ قَدْ بَاءَ بالنَّدَم**»؛ أي كثير من الملمِّين بهذا العلم الَّذين توسَّعوا فيه، وتضلَّعُوا منه باءُوا بالنَّدم، وكانت نتيجتهم الأسف على أوقاتٍ ضاعت وأزمنةٍ مضت عليهم في الاشتغال بهذا العلم الباطل، وسيأتي ذكر بعض النُّقول عن هؤلاء الَّذين باءوا بالنَّدم إِثْرَ اشتغالهم به.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٧٣- رامُوا بِها عَزْلَ حُكْمِ اللهِ واقْتَرَحُوا لِلْحَقِّ رَدًّا وإنْفاذًا لِحُكْمِهِم**

قوله: «**رامُوا بهَا**»؛ أي قصدوا بالقوانين والكلِّيَّات الَّتي وضعوها «**عزلَ حُكْمِ الله**»؛ أي تعطيل أحكام الله ـ سبحانه وتعالى ـ، «**واقترَحُوا للحَقِّ رَدًّا**»؛ أي أرادوا ـ أيضًا ـ بها ردَّ الحقِّ الثَّابت في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، فهي علوم تؤدِّي إلى تعطيل الأحكام الشَّرعيَّة، وجحدِ الحقائق الثَّابتة في الكتاب والسُّنَّة، «**وإنفاذًا لحكمِهم**»؛ أي وممَّا قصدوه بهذا العلم إنفاذَ ما توصَّلوا إليه بالآراء الفاسدة والأوهام الباطلة.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٧٤- يُرُوكَ[1] أنْ تَزِنَ الوَحْيَيْنِ مُجْتَرِئًا عَليها بِعُقُولِ المُغْفِلِ العَجِمِ**

---

(١) مضارع أَرَوْكَ أي يجعلونك ترى ذلك، وأصلها يُرونَك وحذفت النُّون من غير ناصب ولا جازم لضرورة الشِّعر.

قوله: «**يروكَ أَنْ تَزِنَ الوَحْيين مُجْترِئًا عَليهما**»؛ أي يريد منك أربابُ الكلام بحثِّهم وترغيبهم في هذا العلم؛ ليكون لك شأن أن تجترأ وتقيس نصوصَ الكتاب والسُّنَّة بالعقل وتحتكم إلى تلك القوانين الَّتي وضعوها، وأنْ تجعل العقل ميزان الوحْيَيْن وتحاكمهما إليه، فما قَبِلَه العقل يُقبل وما لم يقبله يردُّ، وهذا ما يُعرف بقانون التَّأويل، وهو قانون كلِّي عند أرباب الكلام الباطل.

وقوله: «**بعقُول المغْفِل**»؛ أي بالعقول المليئة بالغفلة والجهل والضَّلال، «**العَجَمِ**»؛ أي أنَّ أكثر هؤلاء من الأعاجم، وفي مقدِّمتهم الجهمُ بْنُ صَفْوَان ومن كانوا على شاكلته.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٧٥- وأنْ تُحَكِّمَها فِي كُلِّ مُشْتَجَرٍ إذْ لَيْسَ فِي الوَحْيِ مِن حُكْمٍ لِمُحْتكِمِ**

قوله: «**وأنْ تُحَكِّمَها في كلِّ مُشْتَجَر**»؛ أي: ويُريد منك أهل الكلام أن تحكِّم تلك القوانين في كلِّ نزاع وخلاف وخصومة.

قال ابن منظور: «واشْتَجَرَ القوم وتَشَاجَرُوا: أَي تنازعوا، والمُشاجَرة المنازعة، وفي التَّنزيل العزيز: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [النساء: ٦٥]، قال الزَّجاج: أَي فيما وقع من الاختلاف في الخصُومات»[1].

(١) «لسان العرب» (٦/ ٦٣).

وقوله: «**إذ لَيْسَ فِي الوَحْيِ مِنْ حُكْمٍ لمحْتَكِمِ**»؛ هذا كلام هؤلاء يريدون منكَ أن تحتكم إلى قوانينِهم؛ لأنَّه ليس في الوحي - بزعمهم - من حكم لمحتكِمٍ، وإنَّما الحكم على فهم هؤلاء في علم الكلام الباطل، وهذا يبيِّن حال هؤلاء الشَّنيعة، وتقريراتهم الباطلة الفاسدة.

* **قال** رحمه الله:

**١٧٦ - أمَّا الكِتابُ فحَرِّفْ عَنْ مَواضِعِهِ إذْ لَيْسَ يُعْجِزُكَ التَّحْرِيفُ لِلْكَلِمِ**

هذه وصيَّة هؤلاء في القرآن الكريم: تحريف له، وصرف له عن دلالته، وكلُّ آية تخالف عقول هؤلاء يزعمون أنَّ ظاهرها غير مراد، وإنَّما المراد كذا وكذا؛ ممَّا يتوصَّل إليه هؤلاء بالأهواء الباطلة.

وقوله: «**إذ ليس يُعْجِزُك التَّحْرِيفُ للكَلِمِ**»؛ يعني ليس أمرًا معضلًا، ولا صعبًا؛ فهذه وصيَّتهم بالقرآن الكريم تلقِّي آياتِه بالتَّحريف.

* **ثمَّ قال** رحمه الله:

**١٧٧ - كذا الأحادِيثُ آحادٌ وليْسَ بِها بُرْهانُ حقٍّ ولا فَصْلٌ لِمُخْتَصِمِ**

وهذه وصيَّتهم بالسُّنَّة، وهي القول بأنَّها أخبار آحاد، وأخبار الآحاد لا تقبل في الاعتقاد، هذه المقالة لم تُعرف إلَّا عن المعتزلة، وأيُّ كتاب وجدت فيه هذه المقالة فهو متأثِّر بمقالة المعتزلة.

قال أبو المظفر السَّمعاني: «وإنَّما هذا القول الَّذي يذكر أنَّ خبر الواحد لا يفيد العلم بحال، ولابدَّ من نقله بطريق التَّواتر لوقوع العلم به؛ شيءٌ اخترعته

القدريَّة والمعتزلة، وكان قصدهم منه ردُّ الأخبار»[1].

فاشتمل البيتان على وصيَّتين لأرباب الكلام فيما يتعلَّق بالكتاب والسُّنَّة، وقد جمع بين هاتين الوصيَّتين أحد رؤوس الجهميَّة، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقيل عن بعض رؤوس الجهميَّة ـ إمَّا بشر المرّيسي أو غيره ـ: أنَّه قال: ليس شيءٌ أنقضَ لقولنا من القرآن، فأقِرُّوا به في الظَّاهر، ثمَّ صرِّفوه بالتَّأويل، ويقال إنَّه قال: إذا احتجُّوا عليكم بالحديث فغالطوهم بالتَّكذيب، وإذا احتجُّوا بالآيات فغالطوهم بالتَّأويل»[2].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٧٨ – وقَدْ أَبَى اللهُ إلَّا نَصْرَ ما خَذَلُوا وكَسْرَ ما نَصَرُوا مِنْهُمْ عَلى رَغَمِ**

قوله: «**وقَدْ أَبَى اللهُ إلَّا نَصْرَ مَا خَذَلُوا**»؛ أي هؤلاء خذلوا الكتاب والسُّنَّة، فأبى الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا النَّصر لكتابه وسنَّة ونبيِّه ﷺ: ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ**﴾ [التَّوبة: ٣٣].

وقوله: «**وكَسْر ما نَصَروا مِنْهُم على رَغَمِ**»؛ أي أبى الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا إبطال وإزهاق ما نصروه من الآراء الفاسدة، والأوهام الكاسدة، والظُّنون الباطلة، والعقائد المنحرفة على الرّغم منهم.

(١) انظر: «الحجَّة في بيان المحجَّة» لقوَّام السُّنَّة (٢/ ٢١٥).

(٢) «درء تعارض العقل والنَّقل» (٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨)، وانظر: «الصَّواعق المرسلة» لابن القيِّم (٣/ ١٠٣٨).

وهذه الأبيات ـ كما عرفنا ـ جاءت في سياق ذمِّ علم الكلام والتَّحذير منه، وإبطال ما عليه المتكلِّمون، وبيان مقاصدهم بهذا العلم الفاسد الباطل.

وعلم الكلام الَّذي حذَّر منه السَّلف وذمُّوه وبيَّنوا خطورته وفساد نتائجه هو: الخوض في العقيدة أو في الدِّين عمومًا بالرَّأي المجرَّد والعقل المحض، أمَّا كلام الإنسان بالخير والفائدة في حدود الكتاب والسُّنَّة؛ فهذا لا يُذَمُّ.

والعقل له حدودٌ معيَّنة ونطاقٌ محدَّد لا يمكنه تجاوزه، وإذا جاوزه وقع في الضَّلال، ولهذا إذا حاول المرءُ إدراكَ حدود ما وراء عقلِه؛ فإنَّه يخطئ ويتكلَّف ما ليس له، والله ـ سبحانه ـ لَمْ يُؤْتِ الإنسان مِنَ العلم إلَّا قليلًا، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال ابن حمدان في كتابه «المفتي والمستفتي»[(١)]: «وعلم الكلام المذموم: هو أصول الدِّين؛ إذا تكلَّم فيها بالمعقول المحض أو المخالف للمنقول الصَّريح الصَّحيح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والسَّلف إذا ذمُّوا أهل الكلام، وقالوا: علماء الكلام زنادقة، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح، فلم يريدوا به مطلق الكلام، وإنَّما هو حقيقة عرفيَّة فيمن يتكلَّم في الدِّين بغير طريقة المرسلين»[(٢)].

فمراد السَّلف بـ«الكلام المذموم»: «هو كلام الجهميَّة الَّذين نَفَوْا به

(١) (ص٥٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٦٠ـ٤٦١).

الصِّفات وزعموا أنَّهم يثبتون به حدوث العالم وهي طريقة الأعراض»[1].

وَذِكْرُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة هنا للجهميَّة ليس لكون هذا الأمر مختصًّا بهم، وإنَّما لكون هؤلاء أبرز من اشتهر بهذا العلم الباطل.

◆ ومن الوجوه الَّتي يُعلم بها فساد علم الكلام وبطلانه:

**أوَّلًا**: أنَّه قولٌ على الله بغير علم، ومن أعظم المحرَّمات: القول على الله بلا علم.

**الثَّاني**: أنَّ فيه تحريفًا لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وتكذيبًا لهما.

**الثَّالث**: أنَّه ليس من الدِّين، ولو كان من الدِّين لبيَّنه الرَّسول الكريم ﷺ.

**الرَّابع**: اشتماله على الباطل في مقدِّماته ونتائجه.

**الخامس**: اشتماله على العقائد الباطلة، والآراء المنحرفة، والشُّكوك والظُّنون.

◆ وفيما يلي سياق بعض النُّقول عن علماء السَّلف في ذمِّ علم الكلام:

سُئل الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عمَّا أحدث النَّاس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: «مقالات الفلاسفة».

وقال: «عليك بالأثر وطريقة السَّلف، وإيَّاك وكلَّ محدثة؛ فإنَّها بدعة!»[2].

وقال أيضًا: «أتانا من خراسان ضيفان كلاهما ضالَّان: الجهميَّة والمشبِّهة»[3].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٧٣).

(٢) «ذمُّ الكلام وأهله» (٥ / ٢٠٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٤٧٣).

وقال أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم»[١].

وقال ـ أيضًا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ: «من طلب الدِّين بالكلام تَزَنْدَقَ»[٢].

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكلام في الدِّين كلُّه أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه»[٣].

وقال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنِّعال، ويُطاف بهم في الأسواق، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة، وأقبل على الكلام»[٤]، وقال أيضًا: «ما جهل النَّاس، ولا اختلفوا إلَّا لتركهم لسان العرب، وميلِهم إلى لسان أرسطوطاليس»[٥].

وقال أيضًا: «لأن يَبتليَ اللهُ المرأَ بكلِّ ذنب نهى الله عنه ماعدا الشِّرك خير له من الكلام»[٦].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «علماء الكلام زنادقة، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح»[٧].

---

(١) «تاريخ بغداد» (٧ / ٦١)

(٢) «الحجَّة في بيان المحجَّة» (١ / ١١٧).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (١ / ١٦٨).

(٤) «الانتصار في الرَّدِّ على المعتزلة القدريَّة الأشرار» (١ / ١٣٠).

(٥) «صون المنطق» (ص١٥).

(٦) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (١/ ١٤٦)، و«الحجَّة في بيان المحجَّة» (١/ ١٠٤).

(٧) «مجموع الفتاوى» (٦ / ٢٤٣).

وقال الإمام ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع أهل الأمصار؛ أنَّ أهل الكلام أهلُ بِدَعٍ وزَيْغ، لا يعدُّون عند الجميع في طبقات العلماء، وإنَّما العلماء أهل الأثر والمتفقِّهة فيه»(١).

ولقد شهد أئمَّة الكلام المذموم على أنفسهم بالحيرة والشَّكِّ، ومن ذلك قول الرَّازي:

نهايــةُ إقــدام العُقــول عِقــال وغايــةُ سَــعي العــالمين ضَــلالُ
وأرواحُنا في وَحشة مـن جسُومنا وحاصــلُ دُنيانــا أذًى ووبــالُ
ولم نستَفد من بحثِنا طـولَ عُمرنـا سِـوى أن جمعنَـا فيـه قيـلَ وقـالُوا

وقال: «لقد تأمَّلت الطُّرقَ الكلاميَّة، والمناهج الفلسفيَّة، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقربَ الطُّرقِ طريقة القرآن...، ثمَّ قال: ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»(٢).

وقال الشَّهرستاني مبيِّنًا أنَّه لم يجد في الفلسفة وعلم الكلام إلَّا الحيرة والشَّكَّ:

لعمري لقد طُفـتُ المعاهـد كلَّهـا وسـيَّرتُ طـرفي بـين تلـك المعَـالم
فلــم أرَ إلَّا واضــعًا كـفَّ حـائرٍ عـلى ذِقْـنٍ أو قارعًـا سِـنَّ نـادم(٣)

ومقصودُه بـ«المعاهد»: دور المتكلِّمين الَّتي أُسِّست لنشر علم الكلام وبثِّه،

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢ / ١٩٤).
(٢) انظر: «بيان تلبيس الجهميَّة» (٢ / ١٣٥)، و«درء التَّعارض» (١/ ١٦٠).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤ / ٧٣)، و«درء التَّعارض» (١/ ١٥٩).

فهو يخبر أنَّه لم يجد في كلِّ هذه المعاهد التي مرَّ عليها وطاف بها إلَّا أحد شخصين: إمَّا شخص جالس حائر لم يصل من خلال هذا العلم إلى يقين، أو شخص نادم أنَّه دخل في هذا العلم.

قال الصَّنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ معارضًا هذين البيتين:

لعلَّك أهملتَ الطَّواف بمَعهد الرَّسول ومن لاقاه من كلِّ عالم

فما حارَ من يهدى بهدي محمَّد ولستَ تراه قارعا سنَّ نادم

* **ثمَّ قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٧٩ - كَذا الكَهانَةُ والتَّنْجِيمُ إنَّهُمَا كُفْرانِ قَدْ عَبَثَا بالنَّاسِ مِنْ قِدَمِ**

هذا البيت والأبيات الَّتي بعده يحذِّر فيها رَحِمَهُ اللَّهُ - أيضًا - من علوم باطلة أخرى، تفسد على النَّاس عقائدهم وأديانهم.

قوله: «**كَذَا الكَهَانَةُ والتَّنْجِيم**»؛ أي: احذَر كذلك الكهانة والتَّنجيم، «**الكَهَانة**» المراد بها: ادِّعاء علم الغَيب كالإخبار بما سيَقع في الأرض، والأصل فيها: استراقُ الجنِّ السَّمعَ من كلام الملائكة؛ فتلقيه في أُذن الكاهن.

و«الكاهن»: لفظ يُطلق على العرَّاف، والَّذي يضرب بالحصى والمنجِّم[1].

وقال البَغوي: «الكاهِن: هو الَّذي يُخبر عن المغيَّبات في المستقبَل، وقيل: الَّذي يُخبر عمَّا في الضَّمير»[2].

---

(١) انظر «فتح الباري» (١٠/ ٢٦٧).

(٢) «فتح المجيد شرح كتاب التَّوحيد» (٣١٦).

وقد جاء في السُّنَّة أحاديث في التَّحذير من الكهانة، منها ما رواه البزَّار[1] عن عِمران بن حُصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَو تُطُيِّرَ لَهُ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ»، قال المنذري: «رواه البزَّار بإسناد جيِّد»[2].

وعن أبي هريرة والحسن عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ» رواه الإمام أحمد[3] بإسناد حسن.

وأمَّا «التَّنجيم»: فالمراد به ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله ـ: «الاستدلال على الحوادث الأرضيَّة بالأحوال الفلكيَّة»[4].

وممَّا ورد في ذمِّه ما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ**»[5]، وإسناده صحيح.

ومعنى قوله: «**زَادَ مَا زَادَ**»؛ أي كلَّما زاد في علم التَّنجيم؛ زاد وقوعًا في السِّحر والباطل.

وقوله: «**إِنَّهما كُفْرانِ قَدْ عَبَثا في النَّاسِ مِنْ قِدَمٍ**»؛ أي أنَّ الكهانة كُفْرٌ

---

(١) «مسند البزَّار» برقم (٣٥٧٨).

(٢) «التَّرغيب والتَّرهيب» (٤ / ١٧).

(٣) «المسند» (٢/ ٤٢٩).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣٥ / ١٩٢).

(٥) رواه أحمد برقم (٢٠٠٠)، وأبو داود برقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه برقم (٣٧٢٦).

والتَّنجيم كُفْرٌ، وليس هو علمًا جديدًا، وإنَّما هو من قديم يعبَثُ بالنَّاس، ويفسد عليهم عقائدَهم وأديانَهم.

قال الشَّيخ سليمان بن عبد الله: «واعلم أنَّ التَّنجيم على ثلاثة أقسام:

**أحدها**: ما هو كفرٌ بإجماع المسلمين، وهو القول بأنَّ الموجودات السُّفليَّة مركَّبة على تأثير الكواكب والرُّوحانيات، وأنَّ الكواكب فاعلة مختارة، وهذا كفر بإجماع المسلمين.

**الثَّاني**: الاستدلالُ على الحوادث الأرضيَّة بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك، ويقول: إنَّ ذلك بتقدير الله ومشيئتِه، فلا ريب في تحريم ذلك، واختلف المتأخِّرون في تكفير القائل بذلك.

**الثَّالث**: تعلُّم المنازل ـ منازل الشَّمس والقمر ـ؛ للاستدلال بذلك على القِبلة وأوقاتِ الصَّلوات والفصولِ، وهذا اختلفَ فيه السَّلف؛ فكرهه قتادة وسفيان بن عُيَيْنَة، وأجازه أحمد وإسحاق وغيرهما»(١).

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٨٠- إسنادُهَا حِزْبُ إبْليسَ اللَّعينِ كَمَا مُتُونُهَا أكْذَبُ المَنْقولِ مِنْ كَلِمِ**

قوله: «**إسنادُها حِزْبُ إبليسَ اللَّعِينِ**»؛ أي أنَّ مصدرَ ومنبَعَ هذه العلوم ومرجعَها الأخذ عن إبليس اللَّعين وجنوده، «**كَمَا متُونُها أكذبُ المنقُول مِنْ كَلِمِ**»؛ أي وأيضًا محتواها ومضمونها أكذب المنقول من كَلِم، فما يقوله الكهَّان

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص٤٤١ ـ ٤٤٨) باختصار.

سنده الشَّياطين، ومتنه الكذب والباطل.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٨١- مَا لِلتُّرابِ وما لِلْغَيْبِ يُدْرِكُـهُ     مَـا لِلتَّـصَرُّفِ والمَخْلـوقُ مِـنْ عَـدَمِ**

يشير هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى وهاء ما عليه هؤلاء الكهنة والمنجِّمين ومن تأثَّر بهم.

فقوله: «**ما للتُّراب وما لِلْغَيْب**»؛ يعني أيّ صلةٍ وارتباطٍ بين التُّراب وبين معرفةِ المغيَّبات؟!

ومن أفعال الكهنة: الخطُّ في الأرض، يخطُّون خطوطًا في التُّراب، ثمَّ من خلال هذه الخطوط يقولون: يحصل كذا، ولا يحصل كذا، أو يموت فلان.. إلى آخره.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

**١٨٢- لوْ كانتِ الجِنُّ تَدْرِي الغَيْبَ ما لَبِثَتْ     دَهْـرًا تُعَـالِجُ أصـنافًا مِـنَ الألَمِ**

يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ** ﴾ [سبأ: ١٤]؛ لأنَّ سليمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قُبض ومات وهو متَّكئٌ على عصاه، وكانت الجنُّ تعمل بجدٍّ ونشاطٍ يظنُّونه حيًّا، ولَمَّا جاءت دابَّة الأرض وأكلت المنسأة الَّتي هو متَّكئٌ عليها؛ سقط فأدركت الجنُّ حينئذ أنَّه كان ميِّتًا منذ وقت، ولم يكونوا يعلمون ذلك.

فلو كانت الجنُّ تدري الغيب ما لبثت هذا الدَّهر تتعب وتنصب، كما

أخبر الله ـ سبحانه ـ عنهم في قوله: ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[1].

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٨٣ - أَمَّا النُّجُومُ فَزَيْنٌ لِلسَّمَا و(رُجُو مًا للشَّياطِينِ) طَرْدًا لاسْتِمَاعِهِمِ**

**١٨٤ - كما بِها يَهْتَدِي السَّارِي لِوِجْهَتِهِ في البَرِّ والبَحْرِ حيثُ السَّيْرُ فِي الظُّلَمِ**

يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا إلى فوائد النُّجوم، وأنَّها خُلقت لثلاث:

**الأولى**: زينٌ للسَّماء.

**والثَّانية**: رجومًا للشَّياطين.

**والثالثة**: يهتدى بها في السَّير في البَرِّ والبَحْرِ.

وقوله «**رجومًا**»؛ الأصل أن يكون مرفوعًا؛ لأنَّه معطوف على «**زينٌ**»، لكن لعلَّ النَّاظم ذكره على سبيل الحكاية والاقتباس من القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وهذه الآية الكريمة من أدلَّة البيت الأوَّل، ومن الأدلَّة عليه ـ أيضًا ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠].

والبيت الآخر دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٠٢).

﴿ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: ١٦].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه»[1]: وقال قتادة: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]: «خلق هذه النُّجوم لثلاث: جعلها زينةً للسَّماء، ورجومًا للشَّياطين، وعلاماتٍ يهتدى بها، فمن تأوَّل فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبَه، وتكلَّف ما لا علم له به».

رواه البخاري معلَّقًا، ووصله ابن جرير الطَّبري[2] وابن أبي حاتم[3] في «تفسيريهما»، وزاد ابن أبي حاتم في آخره: «وإنَّ ناسًا جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النُّجوم كهانة، من أعرس بنجم كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا؛ كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلَّا يولد به الأحمر والأسود، والطَّويل والقصير، والحسَن والذَّميم، وما علم هذا النَّجم وهذه الدَّابة وهذا الطَّائر بشيء من الغيب، وقضى الله أنَّه: ﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ولعمري لو أنَّ أحدًا علم الغيب؛ لعلِمه آدم الَّذي خلقَه الله بيده، وأسجد له ملائكتَه وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيء، وأسكنَه الجنَّة يأكلُ فيها رغدًا حيث شاء، ونُهي عن شجرة واحدة، فلم يزل به البلاء حتَّى وقع بما نُهي عنه،

(١) (٣/ ١١٦٨).
(٢) «تفسير الطَّبري» (١٧/ ١٨٥).
(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٩١٣ ـ ٢٩١٤).

ولو كان يُعلم الغيبُ لعلِمَته الجنُّ حين مات نبيُّ الله سليمان ﷺ، فلبثت تعمل له حولًا في أشدِّ الهوانِ ـ لا يشعرون بموته ـ ما دلَّهم على موته إلَّا دابَّة الأرض» انتهى.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٨٥- والنَّيِّرَانِ بِحُسْبَانٍ وذلكَ تَقْـ ـدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ المُسْبِغِ النِّعَمِ**

قوله: «**والنَّيِّران**» معطوف على النُّجوم، والمراد بهما الشَّمس والقمر وهو من باب التَّغليب؛ لأنَّ الَّذي يوصف بالنُّور هو القمر، كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا**﴾ [نوح: ١٦]، ﴿**تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا**﴾ [الفرقان: ٦١]، ويقال لهما ـ أيضًا ـ: القَمَران.

والنَّاظم رَحِمَهُ اللهُ يشير في هذا البيت إلى قول الله سبحانه: ﴿**ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾ [الرحمن: ٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ**﴾ [يس: ٣٨].

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٨٦- فمَنْ تَأَوَّلَ فيها غيْرَ ذاكَ قَفَا ما ليْسَ يَعْلَمُهُ فَهو الكَذُوبُ سِمِ**

أي من تأوَّل في النُّجوم غير ما خُلقتْ له، وقد تقدَّم بيان أنَّها خُلقت لثلاثة أمور: زينة للسَّماء، ورجومًا للشَّياطين، وعلامات يُهتدى بها، ولم يذكر ـ جلَّ وعلا ـ أنَّ لها تصرفًا في ملكوت السَّموات والأرض أو صلة بسعادة البشر

وشقائهم، فمَن عَدَل عمَّا ذكر الله من فوائدها إلى الاستدلال بها على الغيب فقد قفا ما ليس له به علم، وقد تقدَّم قول قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «فمَن تأوَّل فيها بغير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبَه، وتكلَّف ما لا علم له به».

قال الشَّيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد»(١): «أخطأ»؛ أي حيث تكلَّم رجمًا بالغيب، «وأضاع نصيبَه»؛ أي حظَّه من عمره؛ لأنَّه اشتغل بما لا فائدة فيه، بل هو مضرَّة محضة، «وتكلَّف ما علم له به»؛ أي تعاطى شيئًا لا يتصوَّر علمه؛ لأنَّ أخبار السَّماء، والأمور المغيَّبة لا تُعلم إلَّا من طريق الكتاب والسُّنَّة، وليس فيهما أزيد ممَّا تقدَّم» انتهى.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**فهُوَ الكَذُوبُ سِمِ**»؛ أي سِمْه بالكذب، من وَسَم وسْمًا وسِمَة أي اجعل الكذب علامة لهؤلاء وصفةً يُعرفون بها؛ و«**الكَذوب**» على وزن فعول، وهو من صيغ المبالغة.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٨٧ - كَالْمُقْتَفِينَ لِعُبَّادِ الهياكِـلِ فِي … عَـزْوِ التَّـصَرُّفِ والتـأْثِيرِ للـنُّجُمِ**

قوله: «**كالْمُقْتَفِين لعُبَّاد الهيَاكِل**»؛ أي أنَّ المشتغلين بالتَّنجيم شأنهم كشأن عبَّاد الهياكل الَّذين بُعث فيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وكانوا يعبدون النُّجوم والكواكب، قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ**

(١) (ص٤٤٣ ـ ٤٤٤).

ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٨].

وإبراهيم عليه السلام كان في هذا مناظرًا لقومه قاصدًا بذلك بيان فساد عقائدهم وتعلِّقهم بالكواكب والنُّجوم والشَّمس والقمر، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله في «بيان تلبيس الجهميَّة»[1]: «كانوا يتَّخذون الكواكب والشَّمس والقمر أربابًا يدعونها من دون الله، ويبنون لها الهياكل، وقد صنِّفت في مثل مذهبهم كتبٌ مثل كتاب: «السِّرُّ المكتوم في السِّحر ومخاطبة النُّجوم»، وغيره من الكتب».

وهذا فيه التَّأكيد لما قرَّره النَّاظم؛ لأنَّ هؤلاء وأولئك يشتركون في التَّعلُّق بالنُّجوم واعتقاد التَّأثير فيها.

* **قال** رحمه الله:

**١٨٨- والكاتِبِينَ نِظامًا في عِبادَتِها عَقْـدًا وكَيْفًـا وتَوْقِيتًـا لِنُـسْكِهِمِ**

قوله: «**والكاتِبِينَ نظامًا في عِبادَتِها**»؛ معطوف على قوله: «**كالمقتَفِين لعبَّاد الهياكِلِ**».

وقوله: «**عَقْدًا**»؛ العقد أي: العهد والبيعة المعقودة، والمعنى: أنَّ هؤلاء المنجِّمين وضعوا كتبًا قرَّرُوا فيها نُظمًا وقواعد تعاهدوا عليها في طريقة عبادتهم لهذه النُّجوم من حيث الكيف والتَّوقيت، ويسمُّونها علومًا ومعارف، وهي من أبطل الباطل.

(١) (١/ ٥٣٠).

وقد جاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «إنَّ قومًا يحسبون أبا جاد، وينظرون في النُّجوم، ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاق»، رواه عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه»[(١)] بإسناد صحيح.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٨٩ - فَذَا سُعُودٌ وذَا نَحْسٌ وطَلْسَمُهُ كَـذَا وناسَـبَهُ ذا كَـمْ بِخَرْصِـهِمِ**

يعني أنَّ هؤلاء يزعمون أنَّهم بنظرهم في النُّجوم والتَّعلُّق بها؛ يصلون لمعرفة السُّعود والنُّحوس ونحو ذلك.

وقوله: «**فذا سُعُود**»؛ من سَعَد سَعْدًا وسُعُودًا، والسَّعادة خلاف الشَّقاوة.

وقوله: «**وذا نَحْسٌ**»؛ «النَّحْس»: الأمر المُظْلِم، وقد نحس، كفَرِحَ وكَرُم، فهو نَحِس، وهو ضدُّ السَّعْد.

«**وطَلْسَمُه**»؛ واحد طلاسِم، وهو «اسم للسِّرِّ المكتوم، وقد كثر استعمال الصُّوفيَّة في كلامهم فيقولون: سرٌّ مُطَلْسم، وحجابٌ مُطَلْسم، وذات مطلسم، والجمع: طلاسم»[(٢)].

فالمراد بـ«الطَّلسم»: الأمور غير الواضحة الخفيَّة، فالكلام الَّذي يسمعه الإنسان ولا يفهم منه شيئًا ولا يستبين منه معنىً؛ يسمَّى «طلاسم».

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وطلسَمه كذا وناسَبه ذا**»؛ أي أنَّ هذا الأمر يناسب هذا الطَّلسم ويتوافق معه ويتواءم.

---

(١) برقم (١٩٨٠٥).

(٢) «تاج العروس» (٣٣ / ٢٤ ـ ٢٥).

وقوله: «**كمْ بخَرْصِهِم**»؛ «**كمْ**» للتَّكثير، و«الخرص» يأتي بمعنى الكذب، أي كلُّ ذلك يقولونه كذبًا ودجلًا، ويأتي ـ أيضًا ـ بمعنى الظَّنِّ، أي يقولونه بالظُّنون والأوهام.

ولَمَّا أنهى رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام في ذمِّ الكهانة والتَّنجيم وما يتعلَّق بهما شرع في التَّحذير من المجلَّات الباطلة والهابطة الَّتي تشيع الفساد، وتنشر الرَّذائل.

* **فقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٩٠- واحْذَرْ مَجَلَّاتِ سُوءٍ فِي المَلا نُشِرَتْ تَـــدعُو جِهـــارًا إِلى نَـــشْرِ الـــبَلا بِهِـــمِ**

أي: كُنْ يا طالب العلم ـ طالب الحقِّ والهدى ـ على حَذَرٍ شديد من مجلَّات سوء، من مجلَّات هذه صفاتها، وهي أنَّها مجلَّات سوء، أمَّا المجلَّات الَّتي قامت على نشر الشَّريعة والدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ فهذه يحرص عليها ويستفاد منها، وكذلك المجلَّات القائمة على بيان أمور دنيويَّة وأشياء نافعة بما يتعلَّق بالطِّبِّ أو الهندسة أو الزِّراعة فهذه يستفاد منها، والَّذي يحذَّر منه مجلَّات السُّوء، المجلَّات القائمة على نشر السُّوء والأخلاق الفاسدة والعُري والتَّهتُّك والرَّذيلة وإشاعة الفواحش، فهذه يجب على كلِّ مسلم أن يكون منها على حَذَرٍ شديد.

وقوله: «**فِي المَلا نُشِرَتْ**»؛ أي نشرتْ في أوساط النَّاس، وسعى أربابها وأصحابها في إشاعتها ونشرها، يقول هذا في زمانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكيف لو كان في زماننا هذا؟!

قوله: «**تَدعُو جِهارًا إِلى نَشْرِ البَلا بِهِمِ**»؛ أي أنَّ هذه المجلَّات الَّتي نُشرتْ

في الملأ على نطاق واسع هدفها وغايتها الدَّعوةُ جهارًا إلى نشر البلاء بالنَّاس لما يُعرض فيها من الرَّذائل والتَّهتُّك، والأمور الباطلة الَّتي تشيع الفاحشة، وتنشر الفساد[1].

أقول: كيف لو رأى رَحِمَهُ ٱللَّهُ المجلَّات الَّتي في زماننا هذا؟! وأشياء أخرى لم تكن في زمانه مثل القنوات الفضائيَّة، ومثل مواقع الشَّبكة العنكبوتيَّة (الإنترنت)، هذه لم تكن في زمانه، والأمر فيها أشدُّ، والخطر فيها أعظم، والبلاء أشنع، وكم أَوْدَتْ بأقوام، وكم أفسدت من أخلاق، وكم خرَّبتْ من أديان، وكم أوجدتْ من انحلال وضياع؟! فإذا كان الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحذِّر من مجلَّات سوء، فإنَّ القنوات ومواقع شبكة الإنترنت الَّتي تحمل الرَّذيلة والفساد وأنواع الفتن ـ فتن الشُّبهات، وفتن الشَّهوات ـ الأمر فيها أخطر وأشدُّ، والواجب على المسلم، وطالب العلم أن يربأ بنفسه عن أن يشاهد ما يعرض فيها، ولا يقول: عندي إيمان يزَعُني ودين يردَعُني! فهي فتنة خطيرة، وعواصف جارفة، وقد قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللهِ! إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتْبَعُهُ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ**»[2]، أي لا يقترب من الفتنة، ويقول: عندي إيمانٌ يمنعني؛ لأنَّه إذا أسلم نفسَه لهذه القنوات ولتلك المواقع وأخذ ينظر، ربَّما سرقت منه إيمانَه أو

---

(١) ينظر في بيان خطر هذه المجلَّات وحرمة بيعها وشرائها وقراءتها والنَّظر فيها البيان الصَّادر من اللَّجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء بتاريخ ٢١/ ١/ ١٤٢١هـ ضمن «مجموع فتاوى اللَّجنة» (١٧/ ١١٧ ـ ١٢٣).

(٢) رواه أبو داود برقم (٤٣١٩)، والإمام أحمد (٤/ ٤٣١) وإسناده صحيح.

سَلبت منه أخلاقَه أو أفسَدت عليه دينَه وأضرَّت به غايةَ الضَّرر.

وإذا كان الإنسان مخاطرًا بشيء؛ فلا يخاطر بدينه، فإنَّ الدِّين أثمنُ شيء يملكه في هذه الحياة، والجلوس إلى تلك القنوات، وإلى تلك المواقع هو في الحقيقة مخاطرة بالدِّين، وهذا أمرٌ تهاون فيه كثيرٌ من النَّاس حتَّى طلبة العلم، وأصبح ـ الآن ـ بعض النَّاس ـ بل كثيرٌ ـ يجلس في خلوة باطلة مع تلك القنوات أو تلك المواقع يغلق على نفسه الباب، ثمَّ يتنقَّل بين مواقع الفساد وقنوات الرَّذيلة، ومع مضيِّ الوقت على هذه الحال تذهبُ الأخلاق، ويُملأ القلبُ بالشُّبهات، فبدلًا أن يكون قلبًا نقيًّا زكيًّا طاهرًا صافيًا؛ يصبح قلبًا مريضًا، إمَّا مريضًا بالشَّهوة أو مريضًا بالشُّبهة أو مريضًا بهما.

والواجب على المسلم أن لا يخاطر بدينه، ولا يستَهويه فضول نظرٍ أو فضول سمعٍ أن يُطالع؛ لأنَّ تلك المطالعة تُفضي إلى سرقة الأديان والأخلاق، والكفَّار في هذا الباب ـ باب الشَّهوات ـ يمكرون مكرًا كبَّارًا، وكانوا قديمًا لا يتمكَّنون من الوصول إلى بيوتات المسلمين وأفكار النَّاشئة وعقولهم، أمَّا الآن في زماننا أصبحت رذائلهم وباطلهم وفسادهم تحمله الرِّياح، بل هي أعاصير مدمِّرة؛ تدمِّر البيوت والأديان والأخلاق والفضائل، وتنشر الفاحشة والرَّذيلة؛ ولذا يجب على المسلم أن يكون عصاميًّا محافظًا على دينه ليس مخاطرًا به، يقول: أَنْظُر وأُشاهد فقط ولن أتأثَّر! بل يجبُ عليه أن يغلق كلَّ باب من أبواب الفتنة، وكلَّ منفذ من منافذ الشَّرِّ والفساد.

والمصيبة عظيمةٌ والبلاء كبيرٌ والخطر فادحٌ! وإذا كان طالب العلم يجلس

إلى تلك القنوات أو إلى تلك المواقع من الَّذي يحذِّر النَّاس؟! وإذا كان رائدُهم يقع في هذه الأخطار فمَن الَّذي يُنذرهم؟!؛ ولذا فإنَّ طالبَ العلم أولى النَّاس بالحذر من هذه المواقع.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٩١- تَدْعُو لِنَبْذِ الهُدَى والـدِّينِ أجْمَعِـهِ والعِلْـمِ بـلْ كـلِّ عَقْـلٍ كامِـلٍ سَـلِمِ**

هذه مقاصد وغايات تلك المجلَّات: الدَّعوة إلى نبذ الهدى الَّذي بُعث به نبيُّنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ**﴾ [الصف: ٩]، بل تدعو إلى نبذ الدِّين كاملًا، وإذا جمع الهدى والدِّين كما في هذه الآية، فيُراد بـ«الهدى»: العلم النَّافع، ويُراد بـ«الدِّين الحقِّ»: العمل الصَّالح والطَّاعات المقرِّبة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فهذه المجلَّات تدعو إلى نبذ العقائد، وإلى نبذ كذلك العبادات والطَّاعات والأخلاق.

وقوله: «**والعِلْمِ**»؛ أي هي حرب على العلم، وفي تلك المجلَّات يُنتقص العلم، ويُقلَّل من شأنه، ويحتقر العلماء، وتُزدرى مكانتهم، ويُهوَّن من قيمتهم، ويُستخفُّ بهم، ويستخفُّ بالعلوم الشَّرعيَّة، ومقابل ذلك تعظيم الأشياء الباطلة، والحقارات الفاسدة باسم الحضارات، وباسم التَّمدُّن، وباسم الرُّقيِّ في شعارات تبرز، وتحتها تهدم الأخلاق وينشر الشَّرُّ والفساد.

وقوله: «**بلْ كلِّ عَقْلٍ كامِلٍ سَلَمِ**»؛ أي هي مُفسدةٌ للعقول، فَبَدَلَ أن

يُصبح عقل الإنسان راجحًا رصينًا رزينًا؛ يصبح عقلًا تافهًا حقيرًا، بل يصبح عقلًا بهيميًّا، لا اهتمام له إلَّا في حدود اهتمام بهيمة الأنعام، أمَّا المعاني العظيمة والأمور الجليلة والأخلاق الفاضلة؛ فهذه كلُّها تترحَّل عن الإنسان إذا مضى في النَّظر إلى تلك المجلَّات أو المواقع أو القنوات.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٩٢- ولِلرُّكُونِ إلى الدُّنْيا وزُخْرُفِها     والرَّتْـعِ كـالحيَوانِ الـسَّائِمِ الـبَهِمِ**

أي ممَّا تدعو إليه هذه المجلَّات: الدَّعوة إلى الرُّكون إلى الدُّنيا وزخرفها، بحيث لا يكون همُّ الإنسان إلَّا الحياة الدُّنيا، ولا همَّ له في الآخرة، وقد قال الله تعالى: ﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ١٩].

وقوله: «**والرَّتْعِ كالحيَوانِ السَّائِمِ البَهِمِ**»؛ أي هذه المجلَّات تدعو أن يصبح الإنسان يرتع في هذه الحياة الدُّنيا، فلا همَّ له إلَّا أن يأكل ويشرب ويلعب كبهيمة الأنعام سواء، وقد قال الله ـ سبحانه ـ عن الكفَّار: ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾ [الفرقان: ٤٤].

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٩٣- ولِلتَّهَتُّكِ جَهْرًا والخَلاعَةِ مَـعْ     نَبْـذِ المُـرُوءَةِ والأَخْـلاقِ والـشِّيَمِ**

أي وممَّا تتضافر في الدَّعوة إليه تلك المجلَّات: الدَّعوة إلى التَّهتُّك، والمراد به: الانحلال من الأخلاق والسِّتر والعِفَّة والصِّيانة والشِّيَم، «**جَهْرًا**»؛

أي لا حياء من الله ولا من عباده، يدعون إلى العُري، ونبذ الحجاب، وكشف العورات، «**والخَلاعَةِ**»؛ والمراد بها الفاحشة والرَّذيلة، «**مَعْ نَبْذِ المُرُوءَة**»؛ تلك المجلَّات الَّتي تدعو إلى الوقوع في الفاحشة، بعضها تدعو إلى إشاعة مقدِّماتها مثل صور النِّساء المتجمِّلات المتزيِّنات، أو بنشر صور النِّساء الفاتنات الجميلات، أو بأزيد من ذلك؛ بنشر صورٍ فيها تلاصقٌ بين الرِّجال والنِّساء، رجلٌ يضمُّ امرأةً أو يقبِّل امرأةً، كلُّ هذه مقدِّمات للزِّنى والفواحش، والله ـ جلَّ وعلا ـ لمَّا نهى عن الزِّنا قال: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فهذا فيه نهيٌ عن الزِّنا وعن كلِّ مقدِّمة تفضي إليه؛ من نظرٍ أو لمس أو سماع أو غير ذلك؛ ولهذا قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَى مُدْرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الكَلاَمُ، وَاليَدُ زِنَاهَا البَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا، وَالقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ**»[1].

وقوله: «**نَبْذِ المُروءَةِ**»؛ أي ـ وأيضًا ـ فهي تدعو إلى نبذ المروءة، و«**المروءة**»: خُلُق عظيم، إذا وُجد في الشَّخص حجزه عن الوقوع في خوارم الأخلاق، ونواقص الآداب.

وقوله: «**والأخْلاقِ والشِّيَم**»؛ أي هذا كلُّه ممَّا تتضافر تلك المجلَّات في

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٢٤٣)، ومسلم برقم (٢٦٥٧) ـ واللَّفظ له ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدَّعوة إليه، ويشاركها في زماننا ـ بل بشكلٍ أزيد، ونطاقٍ أوسع ـ القنوات الفضائيَّة، ومواقع الإنترنت الَّتي لا حصر لها ولا عدَّ ـ وقى الله المسلمين شرَّها ـ.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٩٤- والاعْتِمادِ عَلى الأسْبابِ مُطْلَقِها دُونَ المُسَبِّبِ والخَلَّاقِ مِنْ عَدَمِ**

أي ممَّا تدعو إليه تلك المجلَّات: الاعتماد على الأسباب دون المسبِّب الَّذي هو الله، فهي تعلِّق القلوب بالأسباب، وتعطِّل فيها الإيمان بمسبِّب الأسباب، تعطِّل الثِّقة بالله والتَّوكُّل والاعتماد عليه، وتدعو إلى التَّعلُّق بالأسباب والرُّكون إليها وتعظيم شأنها؛ فيها حديث واسع عن قدرات الإنسان وقواه وإمكانيَّاته، ولا ترى فيها بإذن الله أو إن شاء الله أو توكَّل على الله أو فوِّض أمرَك إلى الله، و«**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله**»[1]، أو الدَّعوة إلى الاستعانة بالله والتَّوكُّل عليه والثِّقة به، وتفويض الأمر إليه، ونحو ذلك من أمور الإيمان الَّتي هي أساس الفلاح والنَّجاح في الدُّنيا والآخرة، فلا يُعتنى بها ولا يهتمُّ بها في تلك المجلَّات، وإنَّما فيها الدَّعوة إلى التَّعلُّق بالأسباب.

وقوله: «**والخلَّاقِ مِنْ عَدَمِ**»؛ أي الله ـ جلَّ وعلا ـ قال الله تعالى: ﴿**بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ**﴾ [يس: ٨١]، فهو سبحانه الَّذي بيده الخفض والرَّفع، والقبض والبسط، والعطاء والمنع، وبيده ـ تبارك وتعالى ـ أزمَّة الأمور، فكيف يُدعى إلى التَّعلُّق بالأسباب، والأمر بيد الخلَّاق من عدم، مُسبِّب الأسباب، وخالق كلِّ

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شيء؟! وقد جاء في بعض النُّسخ: «**الإخلاق من عدم**»، ولعلَّ ما أثبتُّه هو الصَّواب.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**١٩٥- والكُفْرِ باللهِ والأمْلاكِ معْ رُسُـلٍ      والوَحْيِ معْ قَدَرٍ والبَعْثِ لِلـرِّمَمِ**

أي وممَّا تدعو إليه تلك المجلَّات: الكفر بالله ـ سبحانه وتعالى ـ إمَّا في ربوبيَّته ـ جلَّ وعلا ـ أو أسمائه وصفاته وعظمته، أو تحقيق العبوديَّة له، أو الاستخفاف بدينه والحقِّ والهدى الَّذي أمر به ـ جلَّ وعلا ـ أو التَّشكيك في أمور الإيمان إلى غير ذلك من أنواع الكفر.

وقوله: «**والأمْلَاك**»؛ أي تدعو إلى الكفر بالملائكة، والاستخفاف بهم أو الجحد لوجودهم أو القول بأنَّ الملائكة لا حقيقة لها، وإنَّما هي رموز، أو غير ذلك من أنواع الكفر بالملائكة، والإيمان بالملائكة أصلٌ من أصول الإيمان.

قوله: «**معْ رُسُلٍ**» أي: وتدعو إلى تكذيب المرسلين، أو الاستهزاء بهم، أو إنكار ما جاءوا به، أو بُغضهم، أو بُغض ما جاءوا به.

وقوله: «**والوَحْيِ**» أي: الكفر بالوحي بالتَّكذيب بكتب الله المنزَّلة على رُسُل الله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه، أو إنكارها، أو إنكار شيء منها، أو بغضها، أو الاستهزاء بها.

وقوله: «**معْ قَدَرٍ**» بالتَّكذيب بقدرة الله الشَّاملة، أو مشيئته النَّافذة، أو تفرُّده بالخلق والتَّدبير.

وقوله: «**والبَعْثِ لِلرِّمَمِ**» بإنكار البَعث أو التَّكذيب بالجزاء والحساب أو

الجنَّة والنَّار، ونحو ذلك من تفاصيل يوم القيامة.

وقوله: «**للرِّمَم**» في «اللِّسان»: رَمَّ العظمُ وهو يَرِمُّ بالكسر رَمًّا ورَمِيمًا، وأَرَمَّ صار رِمَّةً أي بَلِي، «**والبَعْثِ للرِّمَم**»؛ أي البعث للأجساد والعظام الَّتي أصبحت باليةً.

وهذا البيت جمع فيه النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ دعوة تلك المجلَّات إلى الكفر بأصولَ الإيمان السِّتَّة: الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرُّسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه؛ فقوله: «**والكُفْرِ باللهِ**» فيه الكفر بالأصل الأوَّل، «**والأمْلَاك**» الكفر بالأصل الثَّاني، «**مَعْ رُسُل**» الكفر بالأصل الثَّالث، «**والوَحْي**» الكفر بالأصل الرَّابع، وهو الإيمان بالكتب، «**مَعْ قَدَر**» الكفر بالأصل الخامس وهو الإيمان بالقدر، «**والبَعْث للرِّمَم**» الكفر بالأصل السَّادس: الإيمان باليوم الآخر.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٩٦- وَلاعْتِناقِ الطَّبيعيَّاتِ لَيْسَ لَهَا     مُـدَبِّرٌ فاعِـلٌ مَـا شـاءَ لَمْ يَـضِمِ**

أي وممَّا تدعو إليه تلك المجلَّات ويُنشر فيها: الدَّعوة إلى اعتناق الطَّبيعيَّات؛ باعتقاد أنَّ الَّذي أوجد هذه الكائناتِ هي الطَّبيعة وأنَّه ليس هناك خالقٌ لها ولا صانعٌ لها ولا مبدعٌ، بل هي أشياء أوجدتها الطَّبيعة! والله تعالى يقول: ﴿**أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ**﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦]، وإنكار الخالق والقول بأنَّ هذه الأشياء وُجدتْ صدفة من غير خالق ولا مدبِّر مقالة قديمة، لكنَّها ـ كما سيشير النَّاظم ـ تتكرَّر في كلِّ زمن بصيغ وأساليبَ تناسبُه من

خلال أبرز الوسائل الشَّائعة فيه، وكون هذه المخلوقات وجدت بنفسها من غير مُحدِثٍ ولا خالقٍ محالٌ ممتنعٌ، يجزم العقل ضرورةً ببُطلانه، ويُعلم يقينًا أنَّ من ظنَّ ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل؛ لأنَّ كلَّ من له عقل يعرف أنَّه لا يمكن أن يوجد شيءٌ من غير موجِد ولا محدِث، بل إنَّ العقول والفطر مضطرَّةٌ إلى الاعتراف بباريها وموجدها، وشواهد الوحدانيَّة لا حصر لها، فكلُّ ما خطَر في القلوب وشاهدته الأبصار وأدركته الحواسُّ والمشاعرُ، وكلُّ متحرِّك وساكن، وكلُّ حيوان وجماد أدلَّةٌ وبراهينُ على وحدانيَّة الله وآياتٌ عليه.

وفي كـــلِّ شيءٍ لــــه آيـــةٌ تَـــدُلُّ عـــلى أنَّـــه واحِـــدُ

وقوله: «**ليْسَ لَهَا مُدَبِّر فاعِل**»؛ أي يدعو هؤلاء إلى اعتقاد أنَّ هذه المخلوقات أوجدتها الطَّبيعة وليس لها خالقٌ، ولا مدبِّرٌ، ولا ربٌّ موجِدٌ، وهذا فيه إنكار وجود الله وأنَّه الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ لهذه الأكوان، ففيها الدَّعوة إلى الإلحاد وإنكار ربوبيَّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ للعالمين.

وقوله: «**لَمْ يَضِمِ**»؛ «الضَّيم»: الظُّلم.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**١٩٧- قامَتْ لَدَيْهِمْ بِلا قَيُّومٍ ابْدَعَها[(١)] مُــسَخَّراتٍ لِغايــاتٍ مِــنَ الحِكَــمِ**

قوله: «**قامَتْ**»؛ أي هذه المخلوقات وجميع الكائنات، «**لَدَيْهِم**»؛ أي لدى هؤلاء الملاحدة، «**بلا قيُّومٍ**»؛ أي بلا خالق مبدِع، «**أبدَعَها**»؛ أي أوجدها.

---

(١) بتسهيل الهمزة مراعاة للوزن العروضي، ويمكن ترك التَّنوين في «قَيُّومِ» مع قطع الهمزة.

وقوله: «**مُسَخَّراتٍ لِغاياتٍ مِنَ الْحِكَمِ**»؛ أي فهم أنكروا أنَّ لها مُبدعًا، وأنكروا أنَّها مخلوقة لحكمةٍ وغاياتٍ.

**١٩٨- سَمَّوْهُ مَدْحًا لهُ العِلْمَ الجَدِيدَ بَلِ الْـ كُفْـرَ القَـدِيمَ ومِنْـهُ القَـوْلُ بالقِـدَمِ**

أي هذا الباطل، وهذا الرُّكام من الفساد والإلحاد والزَّندقة والضَّلال من أجل ترويجه وإشاعته بين النَّاس «**سَمَّوْهُ مَدْحًا لهُ العِلْمَ الجَدِيدَ**»، وهذه طريقة أهل الباطل يضعون لباطلهم عناوين برَّاقة، مثل «العلم الجديد»، ومثل نبذهم للأخلاق يسمَّى «الحرية» أو «المساواة» ونحو ذلك من الشِّعارات الَّتي يرفعها هؤلاء، وتحتها السُّمُّ الزُّعاف.

ولا يُعرف أنَّ صاحب باطل يُسمِّي باطلَه باطلًا، أو يسمِّي كفرَه كفرًا، أو يسمِّي شرَّه شرًّا، بل دائمًا صاحب الباطل يسمِّي باطلَه بأسماء جميلة من أجل أن يُقْبَل وأن ينتشِر بين النَّاس، فلا تجده يقول: أنا داعية إلى الكفر، أو أنا داعية إلى الزَّندقة أو أنا داعية إلى الخلاعة، فمثلًا إن فتح مكانًا لإشاعة الفاحشة والرَّذيلة يجعل عنوانه «الفنون الجميلة»!! فالعنوان شيءٌ والمضمونُ شيء آخر.

وإذا كان داعيةً إلى الكفر والإلحاد فيضع على مجلَّته أو موقعه عنوانًا جذَّابًا كـ «التَّقدُّم» أو «الحضارة» أو «الرُّقَيِّ» ليصطاد به العقول المغفَّلة، هذه طريقة هؤلاء قديمًا وحديثًا.

وقوله: «**بَلِ الكُفْرَ القَدِيمَ**»؛ أي: هذا الَّذي يدعون إليه من الإلحاد والإيمان بالطَّبيعة وإنكار وجود الله، وإنكار أصول الإيمان كفر قديم معروف

في الأمم الماضية وليس علمًا جديدًا: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣].

وقوله: «**ومِنْهُ**»؛ من هذا الكفر «**القَوْلُ بالقِدَمِ**»؛ وهو قول الفلاسفة الأُوَل الَّذين يقولون بقِدَم العالم.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**١٩٩- تَقَسَّمُوهُ المَلاحِيدُ الطُّغاةُ عَلى سَهْمٍ وأكثَرَ لا أهْلًا بِذِي القِسَمِ**

أي هذا الكفر والباطل تقاسموه، فالشَّيخ يصوِّر هذا الكفر بأنَّه ميراث قديم ورثه هؤلاء المعاصرون، وليس كما يزعمونه أنَّها علوم جديدة، اكتشفوها وعرفوها في هذا العصر، بل هو كفرٌ قديم تقاسمه ملاحدة العصر بين مستقلٍّ منه ومستكثر، «**لا أهْلا بِذِي القِسَمِ**»؛ لأنَّها قِسَمُ ضلال وباطل.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٢٠٠- وكُلَّما مَرَّ قَرْنٌ أوْ قُرُونٌ أَتَوْا بِهِ عَلى صُورَةٍ أُخْرَى لِخُبْثِهِمِ**

هذه طريقة أهل الباطل والإلحاد، في كلِّ زمان يأتون بباطلهم على صورة أخرى، بحيث يواكبون رغبات أهل زمنهم وما شاع وانتشر وتعلَّقت به قلوبهم، «**لِخُبْثِهِمِ**»؛ أي لأنَّهم أهل خبث ومكر.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٢٠١- بَعْضُ الخَبيث عَلى بَعْضٍ سَيَرْكُمُهُ رَبِّي وَيَجْعَلُهُ في النَّارِ للضَّرَمِ**

أي هذه مآلات هؤلاء ونهايتهم: أنَّ باطلهم كلَّه سيركُمُه ربُّ العالمين

بعضه على بعض ويجعله في جهنَّم، وقوله: «**للضَّرَم**» في «اللِّسان»: «الضَّرَمُ مَصْدَرُ ضَرِمَ ضَرَمًا وضَرِمَت النَّارُ وتَضَرَّمَتْ واضْطَرَمَت: اشْتَعَلَتْ والْتَهَبَت».

**٢٠٢- واعْجَبْ لِعُدْوانِ قَوْمٍ حاوَلُوا سَفَهًا   أنْ يَجْمَعُوهُ إلى الإسْلامِ فِي كِمَمِ**

أي من محاولات بعض هؤلاء وطرائقهم في نشر علومهم الباطلة؛ أن حاولوا جمعه مع علوم الإسلام في «**كِمَمِ**»؛ أي في موضع واحد وفي ثوب واحد، وكأنَّهما شيء واحد، وكأنَّ هذا الباطل من الإسلام؛ ولذلك تجد أنَّ بعضهم يحاول بطريقة أو أخرى أن يجعل هذه الأشياء ليست مصادمة للإسلام ولا منابذة له، بل هي منه! ويأتون بعبارات: «الإسلام دين التَّيسير»، و«الإسلام دين السَّماحة» ومقصودهم بها أنَّه لا يعارض تلك الأهواء، ولا ينقض تلك الأباطيل، فليس هو دين «إقصاء» و«لا كَبْتٍ للحُرِّيات»، بل هو دين سماحة ويسر.

وقوله: «**في كِمَمِ**»؛ في «القاموس»: «الكُمُّ بالضَّمِّ: مدخل اليد ومخرجُها من الثَّوب، جمع: أكمام وكِمَمَة، والكِمُّ بالكسر والكِمامة: وِعاءُ الطَّلع وغِطاءُ النَّور، والجمع: كِمام وأَكِمَّة وأَكمام».

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٠٣- كالنَّارِ فِي الماءِ أو طُهْرٍ عَلى حَدَثٍ   فِي وقتِهِ أوْ إِخاءِ الذِّئْبِ والغَنَمِ**

أي هل يجتمع النَّار والماء، أو الطُّهر والحَدَث في وقت واحد وفي آنٍ واحد؟! وكذلك هل يتآخى الذِّئب والغنم؟! عدوُّ الغَنم الشَّرس.

فهؤلاء يحاولون أن يجمعوا بين الحقِّ والباطل في ثوب واحد! ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

هذه خلاصة ما تروِّج له تلك المجلَّات وزبدة ما تدعو إليه، «والحاصل: أنَّ هذه المجلَّات قَوامُها التِّجارة بجسد المرأة، الَّتي أسعفها الشَّيطان بجميع أسباب الإغراء ووسائل الفتنة؛ للوصول إلى نشر الإباحيَّة، وهتك الحرمات، وإفساد نساء المؤمنين، وتحويل المجتمعات الإسلاميَّة إلى قطعان بهيميَّة، لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا، ولا تقيم لشرع الله المطهَّر وزنًا، ولا ترفع به رأسًا، كما هو الحال في كثير من المجتمعات»[1].

والله المستعان والحافظ لا شريك له.



(١) مجموع «فتاوى اللَّجنة الدَّائمة» (١٧/ ١١٩).

# خاتمة في تحصيلِ ثَمَرَاتِ العِلْمِ النَّافِعَةِ
# واجْتِناءِ قُطوفِهِ الدَّانِيَةِ اليانِعَة

لما بيَّن النَّاظم فيما سبق فضلَ العلم وشرفه ومكانته، وبيَّن أصل العلم ـ وهو كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ ـ، وحذَّر من العلوم الباطلة كعلم الكلام والتَّنجيم والكهانة وغير ذلك، وحذَّر من الفتن؛ أتى رَحِمَهُ اللهُ في تمام هذا النَّظم، فعقد هذه الخاتمةَ ليبيِّن من خلالها ثمار العلم النَّافعة وقطوفَه الدَّانية اليانعة.

وبيَّن رَحِمَهُ اللهُ في صدر هذه الخاتمة أنَّ تلك الثِّمار والقطوف والآثار لا تُنال بمجرَّد الانتماء للعلم فقط، والاعتزاء إليه، ولا بمجرَّد تحصيله دون عمل به، بل إنَّما تُنال بتَحقيق خشية الله ـ تبارك وتعالى ـ، والقيام بطاعته، وفعل ما يقتضيه العلم من خضوع وذلٍّ وانكسار لله ـ جلَّ وعلا ـ، وعدَّد صفاتِ أهل العلم الَّذين هم أهلٌ لاجتناء ثمار العلم والفوز بآثاره العظيمة وثماره المباركة الجليلة.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٢٠٤- وَحَاصِلُ العِلْمِ ما أُمْلِي الصِّفَاتِ لَهُ    فَأَصْغِ سَمْعَكَ واسْتَنْصِتْ إِلَى كَلِمِي**

صدَّر بهذا البيت نصحًا للسَّامع وترغيبًا للنُّفوس وتهيئةً للقلوب؛ لتُحسن

الإصغاءَ وتُحسن الاستفادةَ، أي أنَّه سيذكر كلامًا عظيمًا وتقريرًا مفيدًا يحتاج من طالب العلم إلى أن يُحسن إصغاء السَّمع لتتمَّ له الفائدةُ.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٠٥- وَذَاكَ لا حِفْظُكَ الفُتْيَا بِأَحْرُفِهَا وَلا بِتَسْوِيدِكَ الأَوْرَاقَ بِالحُمَمِ**

أي: حاصل العلم ليس هو بمجرَّد حفظ الفتيا بأحرفها، «**وَلا بِتَسْوِيدِكَ الأَوْرَاقَ بِالحُمَمِ**»؛ أي وليس العلم ـ أيضًا ـ مجرَّد أن تمسك قلمًا وتسمع ما يُقال وتكتب، و«**الحُمَم**» على وزن صُرَد، وهو الفحم.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٠٦- وَلا تَصَدُّرُ صَدْرِ الجَمْعِ مُحْتَبِيًا تُمْلِيهِ لَمْ تَفْقَهِ المَعْنِيَّ بالكَلِمِ**

قوله: «**وَلا تَصَدُّرُ صَدْرِ الجَمْعِ مُحْتَبِيًا تُمْلِيهِ**»؛ أي وليس ـ أيضًا ـ العلم مجرَّد أن تكون لك الصَّدارة في المجالس، تجلس أمام النَّاس والسَّامعين، وتُلقي وتُملي عليهم ما عندك، «**محتَبِيًا**»؛ أي جالسًا جلسةَ الاحتباء، وهي معروفة.

وقوله: «**لَمْ تَفْقَهِ المَعْنِيَّ بالكَلِمِ**»؛ أي دون أن تقف على مقاصد الشَّرع وحقائق العلم، ومعاني الألفاظ ودلالاتها.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٠٧- ولا العِمَامَةُ إذْ تُرخِي ذُؤابَتَها تَصَنُّعًا وخِضَابُ الشَّيْبِ بالكَتَمِ**

قوله: «**ولا العِمَامَةَ إذْ تُرخِي ذُؤابَتَها تَصنُّعًا**»؛ أي وليس العلم أن يضع

الإنسان على رأسه عمامة جميلة ولها ذؤابة طويلة؛ لتكون صورتُه جذَّابة للنَّاس، يتصنَّع ويتظاهر بأنَّه عالم وأنَّه فاضل، والعمامة الَّتي قد يضعها بعضُ أرباب الباطل وأصحاب الطُّرق بمجرَّد هيئتِها أضلَّت أقوامًا كثيرين، فقبلوا كلَّ ما قاله لا لشيء إلَّا لعمامته!!

وقوله: «**وخِضاب الشَّيْبِ بالكَتَمِ**»: «الخِضاب»؛ تغيير لون الشَّيب بالكتم، و«**الكتم**» لونه أسود، وقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ الأمر بتغيير الشَّيب وتجنيبه السَّواد[1].

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٠٨- ولا بِقَوْلِكَ يَعْنِي دائبًا ونَعَـمْ    كَـلا ولا حَمْلِـكَ الأسْـفَارَ كـالْبَهَمِ**

أيضًا: وليس العلم أن تتصَدَّر بـ«نعم» أو «لا» أو نحو ذلك، ولا بحمل الأوراق والكتب دون تفقُّه لما فيها، ودون معرفة بمضامينها.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٠٩- ولا بِحَمْلِ شهاداتٍ مُبَهْرَجَةٍ    بِزُخْـرُفِ القَـوْلِ مِـن نَثْـرٍ ومُنْـتَظِمِ**

أي: ليس العلم مجرَّد شهادات تحمل مزخرفة ومنمَّقة ومجمَّلة، يقول حاملها: أنا عندي شهادةُ كَذَا، ومُنِحْتُ درجةَ كذا، أو يزخرفُ الشَّهادة ويعلِّقُها، وإذا دخل عليه الدَّاخل قال: إذا أردتَ أن تعرفَني؛ فانظر إلى هذه الشَّهادات.

---

(١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه مسلم برقم (٢١٠٢).

على أنَّه لا ضَير على طالب العلم في الحصول على الشَّهادات العلميَّة إذا صلحت نيتُه واستقام قصدُه، فإنَّ «من أراد الشَّهادة ليتقوَّى بها على تبليغ العلم والدَّعوة إلى الخير، فقد أحسَن في ذلك، وإن أراد المال ليتقوَّى به فلا بأس أن يدرس ليتعلَّم وينال الشَّهادة الَّتي يستعينُ بها على نشر العلم، وأن يقبل النَّاس منه هذا العلم، وأن يأخُذ المال الَّذي يعينُه على ذلك، فإنَّه لولا الله سبحانه ثمَّ المال لم يستطع الكثير من النَّاس التَّعلُّمَ وتبليغَ الدَّعوة»[1].

*** ثمَّ بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ المراد بـ«العلم» فقال:**

**٢١٠- بلْ خَشْيَةُ اللهِ في سِرٍّ وفِي عَلَنٍ     فاعْلَمْ هيَ العِلْمُ كلُّ العِلْمِ فالْتَزِمِ**

فالعلم الحقيقيُّ هو خشية الله في السِّر والعلن، في الغيب والشَّهادة، كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعبد كلَّما كان بالله أعرف؛ كان منه أخوَف، ولعبادته أطلَب، وعن معصيته أبعَد.

وقوله: «**فاعْلَمْ هيَ العِلْمُ كلُّ العِلْمِ فالْتَزِمِ**»؛ أي اعلم ذلك: أنَّ العلم، كلَّ العلم: خشية الله، وأنَّ رأس العلم خشية الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال ابنُ رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته «شرح حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فضل طلب العلم»[2]: «فالعلم النَّافع هو ما باشر القلبَ؛ فأوقر فيه معرفةَ الله تعالى وعظمتَه، وخشيتَه وإجلالَه، وتعظيمَه ومحبَّتَه، ومتى سكنت هذه الأشياء

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوِّعة» لابن باز (٧/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «ففرق بين من يكون الدين مقصوده والدنيا وسيلة، ومن تكون الدنيا مقصوده والدين وسيلة» «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢٦)

(٢) (ص٤٥).

في القلب خشَع؛ فخشعتْ الجوارح تبعًا له.

وفي «صحيح مسلم»[1] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول: «**أَعُوذُ بِالله مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ**»، وهذا يدلُّ على أنَّ العلم الَّذي لا يوجب الخشوعَ للقلب فهو علم غير نافع».

قال[2]: «وقال كثيرٌ من السَّلف: ليس العلم كثرة الرِّواية ولكنَّ العلم الخشية، وقال بعضهم: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا».

وبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ كيف أنَّ العلم يوجب الخشيةَ، وأنَّ فَقده يستلزم فَقدَها من ستَّة وجوه في رسالة له[3] في تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٨].

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢١١- فَلْتعْـرِفِ اللهَ ولْتَـذْكُرْ تَـصَرُّفَهُ    ومَـا عَـلى عِلْمِـهِ قـد خُـطَّ بـالقَلَمِ**

ثمَّ شرع رَحِمَهُ اللَّهُ ببيان العلم النَّافع المثمر الثَّمرات العظيمة.

قوله: «**فَلْتعْرِف اللهَ**»؛ أي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الجليلة العظيمة، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته تقرب من الثَّلاثين آية، مثل قوله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ**

---

(١) برقم (٢٧٢٢).

(٢) نفسه (ص٥٠).

(٣) موجودة في ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» في المجلَّد الثَّاني منه، (ص٧٧١ ـ ٨١٠).

مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقوله: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الَّتي فيها الدَّعوة إلى العلم بالله ومعرفته ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: « **ولْتَذْكُرْ تَصَرُّفَهُ**»؛ أنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ المتصرِّف في هذا الكون خفضًا ورفعًا، بسطًا وقبضًا، عطاءً ومنعًا، لا مانعَ لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا خافض لما رفع ولا رافع لما خفض، ولا معزَّ لمن أذلَّ ولا مذلَّ لمن أعزَّ.

وقوله: «**ومَا عَلى عِلْمِهِ**»؛ أي علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ المحيط بكلِّ شيء، الَّذي وسع كلَّ شيء، كما قال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: «**قد خَطَّ بالقَلَمِ**»؛ أي أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ علم الأشياء أزَلًا، وأحاط علمُه بكلِّ شيء، وخلق القلمَ وأمره ـ سبحانه وتعالى ـ بأن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، كما جاء في حديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ القَدَرَ، مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**»، رواه الإمام أحمد وأبو داود والتِّرمذيُّ وحسَّنه(١).

(١) «المسند» (٥/ ٣١٧)، و«سنن أبي داود» برقم (٤٧٠٠)، و«جامع التِّرمذي» برقم (٣٣١٩).

عقد الإمام البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الصَّحيح» ـ في كتاب القدر ـ بابًا؛ قال فيه: «باب جفَّ القلمُ على علم الله، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال أبو هريرة: قال لي النَّبيُّ ﷺ: «**جَفَّ القَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ**»[(١)]، ووصله في موضع آخر[(٢)].

قال الحافظ في «الفتح»: «قوله بابٌ ـ بالتَّنوين ـ: جفَّ القلم؛ أي فرغت الكتابة، إشارةً إلى أنَّ الَّذي كُتب في اللَّوح المحفوظ لا يتغيَّر حكمُه، فهو كنايةٌ عن الفراغ من الكتابة؛ لأنَّ الصَّحيفة حال كتابتها تكون رطبة أو بعضها، وكذلك القلم، فإذا انتهت الكتابة؛ جفَّت الكتابة والقلم... وهذا لفظُ حديثٍ أخرجه أحمد وصحَّحه ابن حبَّان؛ من طريق عبد الله بن الدَّيلمي عن عبد الله ابن عمرو، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ القَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ**»، وأخرجه أحمد وابن حبَّان من طريق أخرى عن ابن الدَّيلمي نحوه، وفي آخره أنَّ القائل: «**فَلِذَلِكَ أَقُولُ**» هو عبد الله ابن عمرو، ولفظه: «قلت لعبد الله بن عمرو: بلغني أنَّك تقول: إنَّ القلم قد جفَّ»؟ فذكر الحديث، وقال في آخره: «فلذلك أقول: جفَّ القلم بما هو كائن»[(٣)] انتهى.

---

(١) «البخاري» (٦/ ٢٤٣٣).

(٢) حديث رقم (٤٧٨٨).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٥٩٨ ـ ٥٩٩).

* **ثمَّ قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢١٢- وحَقَّهُ اعْرِفْ وقُمْ حَقًّا بِمُوجبِـهِ ومَنْهَجَ الحَقِّ فَاسْلُكْ عَنْهُ غَيْرَ عَمِـي**

قوله: «**وحَقَّهُ اعْرِفْ**»؛ أي اعرف حقَّ الله عليك، وهو: أن تعبد الله ـ سبحانه ـ مخلصًا له الدِّين، فتفرده ـ جلَّ وعلا ـ وحده بالعبادة، ولا تجعل معه ـ سبحانه وتعالى ـ شريكًا في شيءٍ منها، كما في حديث معاذ بن جبل أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «**يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ؟** قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: **حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**» متَّفق عليه[1].

وقوله: «**وقُمْ حَقًّا بمُوجبِه**»؛ أي قُم بما تستوجبه معرفتُك بحقِّ الله حقَّ القيام، وجاهد نفسَك على تتميم ذلك وتكميلِه؛ بأن تُخلص الدِّين كلَّه لله، وتُسلم وجهَك لله مطيعًا مخلصًا صادقًا ذليلًا خاضعًا.

وقوله: «**ومَنْهَجَ الحَقِّ فَاسْلُكْ**»؛ أي مع معرفتِك بحقِّ الله ومجاهدتِك نفسك للقيام به؛ الزم منهج الحقِّ، المنهج الَّذي كان عليه الرَّسول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ باتِّباع سنَّته ولزوم نهجه والاقتداء بهديه والبُعد عن المحدثات الَّتي ما أنزل الله بها من سُلطان.

وقد جمع في هذا البيت بين الإخلاص والمتابعةِ، الإخلاص للمعبود وهو حقُّ الله، والمتابعة للرَّسول وهي حقُّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

«**ومَنْهَجَ الحَقِّ** » أي: المنهج الَّذي كان عليه الرَّسول ﷺ.

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٦٢٢)، ومسلم برقم (٣٠).

وقوله: «عَنه غَيْر عَمِي»؛ أي لا تكن عميًّا، أعمى عن الحقِّ والهدى الَّذي بعث به رسول الله ﷺ.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢١٣- أَشْقَى وأَسْعَدَ مُخْتَارًا أَضَلَّ هَدَى    أدْنـى وأَبْعَـدَ عَـدْلًا مِنْـهُ فِي القِـسَمِ**

هذه كلُّها أفعالٌ لله، وهي من ربوبيته سبحانه؛ فآمِن بها، وإيمانك بها من علمك بالله ومعرفتك به.

قوله: «**أشقَى وأَسْعَدَ**»؛ أي أنَّ الشَّقاء والسَّعادة بيده، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

والنَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ تلا هذه الآية لما سُئل: هل نعمل فيما قدر وقضي أو في أمر مستأنف؟ كما في «الصَّحيحين»[(١)] عن عليٍّ رضي الله عنه قال: كنَّا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكس، فجعل ينكت بمخصرته، ثمَّ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً**»، قال: فقال رجل: يا رسولَ الله! أفلا نمكُث على كتابنا وندعُ العمل؟ فقال: «**مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ؛ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ؛ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، فقال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ،**

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٤٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٧).

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» ثمَّ قرأ الآيات.

وقوله: «**أَضَلَّ هَدَى**»؛ أي أنَّ الإضلال والهداية بيده، قال تعالى: ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ**﴾ [فاطر: ٨].

وقوله: «**وأَبْعَدَ عَدْلًا مِنْهُ فِي القِسَمِ**»؛ أي وأبعد بعض الخلق عدلًا منه سبحانه، وطردهم ولعنهم وأبعدَهم من رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ، فهو يثيب المطيع بفضله ـ جلَّ وعلا ـ، ويعاقب الظَّالم المعتدي بعدله ـ جلَّ وعلا ـ، ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٤٩].

وللإمام الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أبياتٌ جمعت هذه المعاني، يقول فيها:

ما شئتَ كانَ وإن لم أشأْ … وما شئتُ إن لم تشأْ لم يكنْ
خلقتَ العباد على ما علمتَ … وفي العلم يجري الفتى والمسنْ
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ … وهذا أعنتَ وذا لم تعنْ
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد … ومنهم قبيحٌ ومنهم حسنْ[1]

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢١٤- أَوْحَى وأَرْسلَ وصَّى آمِرًا ونَهَى … أَحَلَّ حَرَّمَ شَرْعًا كَامِلَ الحِكَمِ**

أي وآمن ـ أيضًا ـ: بهذه الأمور «**أَوْحَى**» ـ سبحانه وتعالى ـ، وأنَّ الوحي المنزَّل على الأنبياء وحيه ـ جلَّ وعلا ـ وتنزيله، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ**

(١) رواها عنه اللَّالكائي (٤/ ٧٧٦)، والبيهقي في «الأسماء والصِّفات» (١/ ٤٥٠).

﴿إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

«وأرسَلَ»؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

«وصَّى آمرًا ونَهَى»، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، والله ـ سبحانه ـ لا يأمر إلَّا بما فيه الخير والفلاح والسَّعادة للنَّاس في الدُّنيا والآخرة، ولا ينهى إلَّا عمَّا فيه الشَّرُّ والضُّرُّ على النَّاس في الدُّنيا والآخرة.

«**أَحَلَّ وحَرَّمَ**»: التَّحليل والتَّحريم له ـ جلَّ وعلا ـ هو الَّذي يحلُّ وهو الَّذي يحرِّم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

قوله: «**شَرْعًا كَامِلَ الحِكَمِ**»؛ أي أنَّ شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ كلَّه حِكَمٌ؛ فآمِن بذلك، وآمِن ـ أيضًا ـ أنَّه ـ سبحانه ـ:

٢١٥- يُحِبُّ الِاحْسَانَ والعِصْيانَ يَكْرَهُهُ     والْبِرَّ يَرْضاهُ معْ سُخْطٍ لِحُرْمِهِمِ

«يُحِبُّ الِاحْسَانَ» والمحسنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، «والعِصْيانَ يَكْرَهُهُ»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والكره من صفاته الفعليَّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والْبِرَّ يَرْضاهُ معْ سُخْطٍ لِحُرْمِهِمِ» كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

«لِحُرْمِهِم»؛ حُرْم: مصدر للفعل «حَرُم»، يقال: حَرُم حُرْمًا وحَرامًا، والمراد: مع سخطه لفعل ما حرَّمه عليهم، فمَن فعلَ المحرَّمات باءَ بسَخَط الله وغضبِه ـ سبحانه وتعالى ـ.

* ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢١٦- بِمُقْتَضَى ذَيْنِ فِي الدَّارَيْنِ مُطَّرِدٌ     لا ظُلْـمَ يُخْـشَى ولا خَـيْرٌ بِمُنْهَـضِمِ

أي بمقتضى قيام العبد بفعل ما يحبُّه الله ويرضاه، وتجنُّب ما يسخطه

ويكرهه ويأباه؛ لا يخاف ظلمًا ولا هضمًا، فلا يخاف ظلمًا: بأن يُحمَّل من الذُّنوب أو الآثام ما لم يقترفه، ولا هضمًا: فلا يخاف أن يُهضم شيء من حسناته أو طاعاته، فلا يزاد عليه سيِّئاتٌ لم يفعلها، ولا يهضَم حسنات فعلها، كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا**﴾ [طه: ١١٢].

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢١٧- فاعْمَلْ عَلى وَجَلٍ وادْأَبْ إِلَى أَجَلٍ     واعْزِلْ عن اللهِ سُـوءَ الظَّـنِّ والـتُّهَمِ**

في هذا البيت ثلاث وصايا:

**الأولى**: «**فاعْمَلْ عَلَى وَجَلٍ**»: «الوَجَل» بالتَّحريك: الخوف، كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٠]، والمراد: اعمل ـ أيُّها العبد ـ واجتهد في تكميل أعمالك، وفي نفس الوقت: كُنْ خائفًا من أن لا تُقبل منك، وقد جاء هذا التَّفسير للآية عن رسول الله ﷺ، كما في حديث عائشة قالت: قلت: يا رسول الله! ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾ أَهُوَ الرَّجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «**لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّه الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ**»(١).

**الثَّانية**: «**وادْأَبْ إِلَى أَجَلٍ**»: «الدَّأَب»: هو الاستمرار والمداومة، كما قال

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٠٥)، والتِّرمذي برقم (٣١٧٥)، وابن ماجه برقم (٤١٩٨).

صاحب «القاموس»: «دأَبَ في عمله دَأْبًا ودَأَبًا ودُؤوبًا ـ بالضَّمِّ ـ: جدَّ وتعب»[1]، والمراد بـ«الأجل»: الموت، والمعنى: جدَّ واجتهد وواصل العمل إلى أن يأتيَ أجلك، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] أي: الموت، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

**الثَّالثة:** «**واعْزِلْ عن اللهِ سُوءَ الظَّنِّ والتُّهَمِ**»: أي لا تظنَّ بالله إلَّا خيرًا، واحذر أن تظنَّ به غير ذلك، فالعبدُ المؤمن الصَّادق يعلم أنَّ الله ـ سبحانه ـ لا يظلمُ مثقال ذرَّة، ويعلم أنَّ الله ـ سبحانه ـ عند ظنِّ عبدِه به، ولهذا جاء في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: يقول الله تعالى: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[2]، وجاء في «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه: سمعت النَّبيَّ ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِالله الظَّنَّ**»[3].

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٢١٨- للشَّرْعِ فانْقَدْ وسَلِّمْ لِلقَـضَاءِ ولا  تُخَاصِـمَنَّ بِـه كالْمُلْحِـدِ الخَـصِمِ**

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**للشَّرْعِ فانْقَدْ**»؛ أي كن مُنقادًا لشرع الله، بامتثال أوامره ـ سبحانه وتعالى ـ واجتناب نواهيه، كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا**

(١) «القاموس المحيط» (١ / ١٠٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٩٧٠)، ومسلم برقم (٢٦٧٥).

(٣) رواه مسلم برقم (٢٨٧٧).

**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً** ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال تعالى: ﴿ **وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ** ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وسَلِّم للقَضَاءِ وَلا تُخَاصِمَنَّ بِه كالمُلْحِدِ الخَصِمِ**»؛ أي ليكُن شأنك في هذا الباب ـ باب القضاء ـ: الإيقان والإيمان، وعدم التَّردُّد، وإيَّاك والخصومة فيه؛ لأنَّ الخصومة في الأمور الثَّابتة والأحكام البيِّنة الواضحة في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ سبيل أهل الضَّلال وطريق أهل الباطل، وقد جاء في الحديث عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ**، ثمَّ تلا رسول الله ﷺ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف: ٥٨]، رواه الإمام أحمد والتِّرمذي وصحَّحه(١).

وقد جاء عن السَّلف الصَّالح ـ رحمهم الله ـ نقولٌ عديدة في ذمِّ الخصومة في الدِّين والتَّحذير منها، ومن ذلكم قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم ـ رحمك الله ـ أنَّ الخصومةَ في الدِّين ليست من طريق أهل السُّنَّة...»(٢).

وقال الإمام أبو يوسف ـ صاحب الإمام أبي حنيفة ـ رحمهما الله: «الخصومة في الدِّين بدعة»(٣).

---

(١) «المسند» (٥/ ٢٥٦)، و«جامع التِّرمذي» برقم (٣٢٥٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٩٠).

(٣) المصدر السَّابق (١٦ / ٤٧٥).

* قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢١٩- وبالمَقـادِيرِ كُـنْ عَبْـدًا لِمَالِكِـهِ وعابِـدًا مُخْلِـصًا فِي شَرْعِـهِ القِـيَمِ

أي كن موقنًا مؤمنًا بأنَّ ما قدَّره الله عَزَّوَجَلَّ كائنٌ، وأنَّ الأمور كلَّها بقضاء الله وقدرته.

وفي الأثر عن عبادة بن الصَّامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال لابنه: يا بُنيَّ! إنَّك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتَّى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبَك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»، يا بُنيَّ! إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي**»(١)، رواه الإمام أحمد وأبو داود وصحَّحه الألبانيُّ.

وفي قوله: «**وبالمَقادِيرِ كُنْ عَبْدًا لِمَالِكِهِ وعابِدًا مُخْلِصًا**» ذَكَرَ شيئين: عبدًا وعابدًا.

«**عبدًا**»؛ هذه في باب توحيد الرُّبوبيَّة والإيمان بالقضاء والقدر، أي تقرُّ بأنَّك عبدٌ، أي معبَّد مذلَّل، لا خروج لك عمَّا يقضيه الله، فما شاء الله كان وما لم يشأْهُ لم يكن.

«**وعابدًا مخلِصًا**»؛ هذا في باب توحيد العبادة، أي كُنْ قائمًا بالعبادة الَّتي أمرك ـ سبحانه وتعالى ـ بها على وجه الإخلاص.

وقوله: «**في شَرْعِهِ القِيَم**»؛ أي الَّذي لا عِوج فيه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ

---

(١) «المسند» (٥/ ٣١٧)، و«سنن أبي داود» برقم (٤٧٠٠).

إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٢٠- إِيَّاهُ فاعْبُدْ وإِيَّاهُ اسْـتَعِنْ فَبِـذَا   تَـصِلْ إليْـهِ وإلا حُـرْتَ فِي الظُّلَـمِ**

أي اجمع بين العبادة والاستعانة، كما قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، بدأ ـ جلَّ وعلا ـ بالعبادة؛ لأنَّها الغاية، ثمَّ ذكر الاستعانة؛ لأنَّها الوسيلة، وهذا الأسلوب يفيد الحصر: والمعنى نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعينُ بغيرك.

والنَّاظم أتى بهما على ترتيب الآية قال: «**إِيَّاهُ فاعْبُدْ وإِيَّاهُ استَعِنْ**»، و«العبادة» هي تحقيق قول «لا إله إلَّا الله»، و«الاستعانة» هي تحقيق «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»، فلا يُعبد إلَّا الله، ولا يُستعان إلَّا بالله.

«**فبِذَا تصِلْ إلَيْهِ**»؛ أي إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ، فتَفُوز برضاه، وتَنَال جنَّته، وتنجو مِن عقابه.

«**وإلَّا حُرْت في الظُّلم**»؛ يعني إنْ لم تحقِّق هذين الأمرين وتَقُم بهذين المطلبين تكن حائرًا في بحر الظُّلمات.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٢١- وخُذْ بالاسْبابِ واسْتَوْهِبْ مُـسَبِّبَها   وثِقْ بِهِ دُونَهَا تُفْلِـحْ ولَمْ تُـضَمِ**

قوله: «**وخُذْ بِالاسْبَابِ واسْتَوْهِب مُسَبِّبَها**»؛ أي بَاشِرِ الأسبابَ وافعلها؛

الأسباب الشَّرعية الَّتي هي القيام بالعبادة والطَّاعة الَّتي أُمرت بها لتنالَ رضا الله عَزَّوَجَلَّ، والأسباب الدُّنيويَّة الَّتي تنال بها أمور معاشِك طلبًا للرِّزق وسعيًا في المباح، ولكن لا تعتمد على الأسباب، وإنَّما اطلب من مسبِّبها أن يَهَبَكَ ويمنَّ عليك، وأن يُنعم عليك، ولا تعتمد عليها ولا تَرْكَنْ إليها.

والنَّاس ينقسمون في هذا الباب إلى أقسام ثلاثة:

**القسم الأوَّل:** الَّذين جمعوا بين فعل الأسباب والتَّوكُّل على الله ـ جلَّ وعلا ـ، كما جاء في قول النَّاظم: «**وخُذْ بالاسباب واستوْهِب مُسَبِّبَها**»، والله عَزَّوَجَلَّ أمر عباده بذلك، وأمرهم به رسوله ﷺ، وقد جاءت آيات وأحاديث عديدة في الأمر بالجمع بين الأمرين، فِعْل الأسباب والتَّوكل على الله كقوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿**فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨].

وكقوله ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله**»(١)، وقوله لرجل سأله في شأن النَّاقة: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»(٢)، والنُّصوص في الباب كثيرة.

**القسم الثَّاني:** من يترك الأسباب معتمِدًا على الله؛ لا يفعل السَّبب معتمدًا على الله ومتوكِّلًا عليه، وهذا خلاف ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه به، وخلاف

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٦٤).

(٢) رواه التِّرمذي برقم (٢٥١٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

ما أمر به رسوله ﷺ، وهذا مثله كمثل من قال: إن شاء الله سأكون عالمًا، ولكن لن أطلبَ العلم!! أو إن شاء الله سيكون لي ذرِّيَّة صالحةٌ، لكن لا أتزوَّج!! وهكذا.

**القسم الثَّالث:** من يفعل السَّبب ويعتمد عليه، لا على الله، وهذا نهايتُه إلى الحرمان، والعياذ بالله.

فإذًا؛ المطلوب من المسلم الجمع بين الأمرين، كما قال النَّاظم: «**وخذ بالاسباب واستوْهِب مُسَبِّبَها**»، ونظيره قول الشَّيخ السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ في منظومته في السَّير إلى الله والدَّار الآخرة:

صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمـــورِهِمْ     مَـعَ بَـذْلِ جُهْـدٍ فِي رِضَـا الـرَّحْمَنِ

وقوله: «**وثِقْ بِهِ دُونَهَا تُفْلِحْ**»؛ أي ثِقْ بالله دون الأسباب، فإنْ فعلت هذا؛ تَكُنْ من الفالحين، ومن الأخطاء الشَّائعة الدَّعوة إلى الثِّقة بالنَّفس، والثِّقة توكُّل، بل هي خلاصة التَّوكل ولبُّه[1]، وهو لا يكون إلَّا بالله؛ وفي الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**»[2]؛ قال الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم في جواب من سأل عن قول من قال: تجب الثِّقة بالنَّفس؟ قال: «لا تجبُ ولا تجوزُ الثِّقة بالنَّفس، في الحديث:

---

(١) انظر: «مدارج السَّالكين» لابن القيِّم (٢/ ١٤٣).

(٢) رواه أبو داود رقم (٥٠٩٠)، والإمام أحمد رقم (٢٠٤٣٠)، وابن حبَّان رقم (٩٧٠) وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٢).

«**فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»...»[1].

وقوله: «**ولَمْ تُضَمِ**»؛ أي لا يلحقُك ظلم ولا هضم، و«الضَّيْم»: الظُّلم، يقال: قد ضِمتُ، أي ظلمت.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٢٢- بالشَّرْعِ زِنْ كُلَّ أمْرٍ ما هَمَمْتَ بِـهِ فـإِنْ بَـدَا صـالِحًا أقْـدِمْ ولا تَجِـمِ**

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**بالشَّرْعِ زِنْ كُلَّ أمْرٍ ما هَمَمْتَ بِهِ**»؛أي إذا أردت أن تُقْدِمَ على عملٍ من الأعمال؛ فأوَّل ما تبدأ به هو أن تَزن هذا الأمر بالشَّرع، تعرضه على الأدلَّة والنُّصوص ـ كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ ـ، فإذا كان قد دلَّ عليه الشَّرع افعله، وإن كان خلاف الشَّرع فاتركه.

وقوله: «**ولا تَجِم**»: جاء في «اللِّسان»: وَجَمَ يَجِمُ وَجْمًا ووُجُومًا، و«الوُجومُ»: السُّكوتُ على غَيْظٍ، و«الواجمُ» الَّذي اشتدَّ حُزْنه حتَّى أَمْسَك عن الكلام[2]، ولعلَّ المعنى في قول النَّاظم: «**ولا تَجِم**»؛ أي أقْدِم وافعل، ولا تسكت وتتوقَّف.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٢٣- أَخْلِصْهُ واصْدُقْ أَصِبْ واهْضِمْ فَذِي شُرِطَتْ فِي صالِحِ الـسَّعْيِ أوْ فِي طَيِّـبِ الكَلِـم**

---

(١) «فتاوى ورسائل الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم» (١/ ١٧٠)، وانظر: «معجم المناهي اللَّفظيَّة» للشَّيخ بكر أبو زيد (ص١٨٥).

(٢) «اللِّسان» (١٦/ ١١٥).

٢٢٤-أَخْلِصْهُ للهِ واصْدُقْ عازِمًا وأَصِبْ صِرَاطَهُ واهْضِمَنَّ النَّفْسَ تَنْهَضِمِ

ذكر في هذين البيتين أمورًا أربعة، في البيت الأوَّل ذكرها، وفي البيت الثَّاني شرحها وبيَّنها، وهي: الإخلاص والصِّدق والإصابة ـ إصابة السُّنَّة ـ، وهضم النَّفس، يقول هذه الأمور الْزَمْها وحافظْ عليها؛ فإنَّها مطلوبة منك في أعمالك الصَّالحة، ومطلوبة منك في أقوالك الطَّيِّبة، فكلُّ عمل صالح تقوم به وكلُّ قول طيِّب تقوله؛ حافظ فيه على هذه الأمور الأربعة؛ ليكن خالصًا، ولتكن فيه صادقًا، وليكن للسُّنَّة موافقًا، مع رؤية التَّقصير.

ثمَّ شرح هذه الأمور الأربعة فقال: «**أخلِصْهُ لله**»؛ أي اجعله خالصًا لله، و«الخالص» الصَّافي النَّقيّ، الَّذي لم يُرد به إلَّا وجه الله، كما قال الله ﷿: ﴿**فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**﴾ [غافر: ١٤]، وقال: ﴿**وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ**﴾ [البيِّنة: ٥].

«**واصدُقْ عازمًا**»: «الصِّدق»: توحيد الإرادة، و«الإخلاص» توحيد المراد كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النُّونيَّة»:

فلواحد كن واحدًا في واحد أعني سبيل الحقِّ والإيمان

فـ«الإخلاص» أن لا تريد بالعمل إلَّا الله، و«الصِّدق» توحيد الإرادة؛ بأن تجمع قلبك وعزمَك، مثل ما قال النَّاظم: «**واصدُقْ عَازمًا**».

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس للعبد شيءٌ أنفعَ من صدقه ربّه في جميع

أموره مع صدق العزيمة، فيصدُقُه في عزمِه وفي فعلِه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التَّردُّد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردُّد ولا تلوُّم، فإذا صدقت عزيمتُه بقي عليه صدقُ الفعل: وهو استفراغُ الوسع، وبذلُ الجهد فيه، وأن لا يتخلَّف عنه بشيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعُه من ضعف الإرادة والهمَّة، وصدقُ الفعل يمنعه من الكسل والفُتور، ومن صدَقَ اللهَ في جميع أموره؛ صنع اللهُ له فوق ما يصنع لغيره، وهذا الصِّدق معنى يلتئم من صحَّة الإخلاص وصدق التَّوكُّل، فأصدقُ النَّاس من صحَّ إخلاصُه وتوكُّلُه»[1].

وقوله: «**أَصِبْ صِرَاطَه**»؛ أي لتكن أفعالك على الصَّواب، قال الفضيل ابن عياض في معنى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: «أخلصه وأصوبه، فإنَّه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتَّى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله، والصَّواب إذا كان على السُّنَّة»[2].

وقوله: «**واهْضِمَنَّ النَّفسَ تَنْهَضِم**»: أي لا تعجب بنفسك، مهما تُقدِّم من الأعمال والطَّاعات، ومهما ظهر لك أنَّك حقَّقت فيها من الإخلاص والصِّدق، بل اهضم نفسك واتَّهمها بالتَّقصير، وإلَّا فإنَّ الإنسان يُصاب

---

(١) «الفوائد» (١/ ١٨٦).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

بالعُجب والغرور، فتكون أعماله قليلة ومقصِّر فيها، وفي الوقت نفسه يكون معجبًا بنفسه وبعمله، يوضِّح ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

**٢٢٥- لا تُعْجَبَنَّ بِهِ يُحبَطْ ولا تَرَهُ    في جانبِ الذَّنْبِ والتَّقْصِيرِ والنِّعَمِ**

فقوله: «**لا تعجبنَّ به**»؛ أي بعملك مهما قدَّمت من أعمال: مِنْ صلاة وصيام، وطلبٍ للعلم، وحفظٍ للقرآن وغير ذلك من الأعمال الصَّالحة فلا تعجبنَّ بها، وقد تقدَّم تحذير النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من العُجب وأنه يحترفُ الأعمالَ.

وقوله: «**يُحبط**»؛ لأنَّ العجب يحترف الأعمال ويبطلها ويحبطها.

قوله: «**ولا تَرَهُ في جانبِ الذَّنْبِ والتَّقْصِيرِ والنِّعَمِ**»؛ أي لا تره شيئًا في جانب الذَّنب، فإذا أعجبك عملٌ من الأعمال الصَّالحة الَّتي قمت بها تذكَّر ذنوبك الَّتي اقترفتها هذا أوَّلًا.

ثانيًا: تذكَّر أنَّك مقصِّرٌ حتَّى في هذا العمل الَّذي أنت معجبٌ به؛ لأنَّك مهما حاولت أن تكمل العمل وتتمَّه لا تَسْلَم من التَّقصير.

ثالثًا: تذكَّر أنَّ نِعَمَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليك لا تُعدُّ ولا تُحصى، ومنها أعمالك الصَّالحة فهي منَّةٌ من الله وتوفيق.

يوضِّح ذلك ما جاء في «الصَّحيحين»[(١)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»، قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟! قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ**»، فهو صلوات الله وسلامه

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٦٣)، ومسلم برقم (٢٨١٦).

عليه أخشى النَّاس وأكملُهم عبوديَّةً له ـ سبحانه وتعالى ـ يقول هذا، فكيف بغيره؟!

فإذا تفكَّر في مثل هذه المعاني الَّتي أشار إليها النَّاظم؛ يذهب عنه العجب بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «ومن تأمَّل أحوال الصَّحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جَمَعْنَا بين التَّقصير، بل التَّفريط والأمن، فهذا الصِّدِّيق يقول: «وددتُ أنِّي شعرة في جنب عبد مؤمن» ذكره أحمد عنه، وذكر عنه ـ أيضًا ـ أنَّه كان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الَّذي أوردني الموارد»، وكان يبكي كثيرًا ويقول: «ابكوا؛ فإنْ لم تبكوا فتباكوا»، وكان إذا قام إلى الصَّلاة كأنَّه عُودٌ من خشية الله عَزَّ وَجَلَّ ، وأتي بطائر يقلِّبُه ثمَّ قال: «ما صيد من صيد، ولا قُطعت من شجرة إلَّا بما ضيَّعت من التَّسبيح»، ولمَّا احتضر قال لعائشة: «يا بُنيَّة! إنِّي أصبتُ من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطَّاب»، وقال: «والله لوددت أنِّي كنت هذه الشَّجرة تؤكل وتعضَد»[(١)].

فقارن الآن من يتأمَّل في حال الصَّحابة رضي الله عنهم يجدهم أصحاب أعمال مكمَّلة وطاعات متمَّمة، وفي الوقت نفسه خائفون، ونحن مقصِّرون ومفرِّطون وفي الوقت نفسه آمنون، وفي هذا المعنى يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ المؤمن جمع إحسانًا وشفقةً، وإنَّ المنافق جمع إساءةً وأمنًا»[(٢)].

---

(١) «الدَّاء والدَّواء» (٩٣)/ ط: عالم الفوائد.

(٢) «تفسير الطَّبري» (١٩ / ٤٥).

وقال ابن القيِّم أيضًا: «رضاءُ العبد بطاعته دليلٌ على حسن ظنِّه بنفسه وجهله بحقوق العبوديَّة، وعدم عمله بما يستحقُّه الرَّبُّ ـ جلَّ جلاله ـ ويليق أن يعامَل به، وحاصل ذلك أنَّ جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله وجهله بربِّه وحقوقه، وما ينبغي أن يُعامل به يتولَّد منهما رضاه بطاعته وإحسان ظنِّه بها، ويتولَّد من ذلك من العُجب والكِبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظَّاهرة من الزِّنا وشرب الخمر والفرار من الزَّحف ونحوها، فالرِّضا بالطَّاعة من رعونات النَّفس وحماقتها، وأرباب العزائم والبصائر أشدُّ ما يكونون استغفارًا عُقيب الطَّاعات لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه»(١) اهـ والله المستعان.

* **ثمَّ قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٢٦- وحيثُ كانَ مِن النَّهْيِ اجْتَنِبْهُ وإنْ زَلَلْتَ تُبْ منهُ واسْتَغْفِرْ معَ النَّدَمِ**

قوله: «**وحيثُ كانَ مِن النَّهْيِ اجْتَنِبْهُ**»؛ أي إذا كان الأمر الَّذي تقبل عليه نفسُك ممَّا نهى الله عنه؛ فاجتنبه، كما قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ**﴾ [النَّجم: ٣٢]، وقال: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا**﴾ [النِّساء: ٣١].

وقال ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**»(٢).

---

(١) «مدارج السَّالكين» (١ / ١٧٥).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٦١٥)، ومسلم برقم (٨٩).

وقوله: «**وإنْ زَلَلْتَ تُبْ منهُ واسْتَغْفِرْ معَ النَّدَمِ**»؛ أي إن زلَّت بك القدم، وفعلت الشَّيء الَّذي نهى الله عنه؛ فبادر إلى التَّوبة والرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والتَّوبة تكون بترك الشَّيء الَّذي نهى الله عنه، والنَّدم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، وقل: أستغفر الله وأتوب إليه، مع النَّدم على مقارفَتِك لهذا الذَّنب الَّذي نهاك الله عنه.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٢٧- وَأَوْقِفِ النَّفْسَ عندَ الأمرِ هـلْ فَعَلَـتْ والنَّهْيِ هـلْ نَزَعَـتْ عـن موجِـبِ الـنِّقَمِ**

هنا يتحدَّث النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن محاسبة النَّفس، أي حاسب نفسك في باب الأوامر وباب النَّواهي، في باب الأوامر؛ اعرض الأوامر الَّتي وردت في الكتاب والسُّنَّة على نفسك، هل فعلت هذه الأوامر أم لم تفعلها؟

وفي باب النَّواهي؛ أوقِفْ النَّفس عند النَّهي، هل تركت وابتعدت عن الأمور الَّتي نهى الله عنها والَّتي توجب العقوبة والغضب والسَّخط من الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطَّاب رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قال: «حاسبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسَكم قبل أن تُوزنوا؛ فإنَّه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»، وذكر ـ أيضًا ـ عن الحسن قال: «لا تلقى المؤمن إلَّا يحاسبُ نفسَه: ماذا أردتِ تعملين؟ وماذا أردتِ تأكلين؟ وماذا أردتِ تشربين؟ والفاجر يمضي قُدُمًا لا يحاسب نفسه».

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]: «أضاع نفسه وغبن مع ذلك تراه حافظًا لمالِه، مضيِّعًا لدينِه».

وقال الحسن: «إنَّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبة من همَّته».

وقال ميمون بن مهران: «لا يكون العبد تقيًّا حتَّى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشَّريك لشريكه، ولهذا قيل: النَّفس كالشَّريك الخوَّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك»»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومحاسبة النَّفس نوعان: نوعٌ قبل العمل، ونوعٌ بعده، فأمَّا النَّوع الأوَّل: فهو أن يقف عند أوَّل همِّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتَّى يتبيَّن له رجحانه على تركه.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «رحِم الله عبدًا وقف عند همِّه، فإنْ كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخَّر».

وأمَّا المحاسبة بعد العمَل، فهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصَّرت فيها من حقِّ الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الَّذي ينبغي.

وحقُّ الله تعالى في الطَّاعة ستَّة أمور ـ تقدَّمت ـ، وهي: الإخلاص في العمل، والنَّصيحة لله فيه، ومتابعة الرَّسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منَّة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كلِّه.

---

(١) «إغاثة اللَّهفان» (١ / ٧٨ ـ ٧٩).

فيحاسب نفسه: هل وفَّى هذه المقامات حقَّها؟ وهل أتى بها في هذه الطَّاعة؟

الثَّاني : أن يحاسب نفسه على كلِّ عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثَّالث: أن يحاسب نفسه على أمرٍ مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدَّار الآخرة فيكون رابحًا؟ أو أراد به الدُّنيا وعاجلها فيخسر ذلك الرِّبح ويفوته الظَّفر به؟»[1].

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٢٨- فإنْ زَكَتْ فاحْمَدِ المَوْلَى مُطَهِّرَها ونِعْمَةَ اللهِ بالشُّكْرانِ فاسْتَدِمِ**

قوله: «**فإنْ زَكَتْ فاحْمَدِ المَوْلَى مُطَهِّرَها**»: أي إن زكَت نفسُك بالتَّحلِّي بالفضائل والتَّخلِّي عن الرَّذائل، فاحمد الله؛ لأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أكرمَك وتفضَّل عليك، فمَنَّ عليها بالطَّهارة والزَّكاة والنَّقاء والصَّفاء، كما قال تعالى: ﴿**بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [النُّور: ٢١]، وفي الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[2].

ولعلَّ النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ اختار اسم «المولى» هنا موافقةً لهذا الدُّعاء، وفوز العبد بهذا المطلب من ولاية الله الخاصَّة له.

---

(١) المصدر السَّابق (١/ ٨١ ـ ٨٢).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٧٢٢).

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**ونِعْمَةَ اللهِ بالشُّكْرانِ فاسْتَدِمِ**»؛ أي كُن دائمًا شاكرًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ على نعمه، قال تعالى حاكيًا عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: **﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾** [النَّمل: ١٩].

فالمراد بقوله: «**اسْتَدِمِ**»؛ أي داوم شكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على نعمه، وأعظم النِّعم: الهداية إلى الدِّين، والتَّوفيق لزكاة القلب، وصلاح النَّفس، والاستقامة على طاعة الله، فبملازمة الشُّكر تدوم النِّعمة، كما قال الله تعالى: **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾** [إبراهيم: ٧]، فالشُّكر معه المزيد أبدًا؛ ولهذا قيل: فمتى لم تر حالَك في مزيد فاستقبل الشُّكر.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٢٢٩- وإنْ عَصَتْ فاعْصِها واعْلَمْ عَداوَتَها وحَذِّرْنْها وُرُودَ المَوْرِدِ الوَخِمِ**

قوله: «**وإنْ عَصَتْ فاعْصِها**»؛ أي إن أبَتْ نفسُك إلَّا العصيان فأْب لها أنت ـ أيضًا ـ إلَّا العصيان، ولا تطعها؛ لأنَّها تهلكك، كما في قوله تعالى: **﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾** [يوسف: ٥٣].

وقوله: « **وحَذِّرَنْها وُرُودَ المَوْرِدِ الوَخِم**»؛ أي حذِّرها من النِّقمة ومن السَّخط ومن العقوبة حتَّى تطاوع وتلين وتجانب المعاصي وتستكين، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** [الحشر: ١٨].

وقوله: «**الوَخِم**»: قال ابن منظور: «الوَخْم بالتَّسكين، والوَخِمُ بكسر

الخاء، والوَخِيمُ: الثَّقيلُ من الرِّجال... وقد تكونُ الوَخامةُ في المعاني، يقال: هذا الأَمرُ وَخيمُ العاقِبة، أَي ثقيلٌ رديء»[1].

وعلى هذا؛ فالمعنى ظاهرٌ في قوله: «**ورُودَ المَوْرِدِ الوَخِم**»؛ أي المورد الرَّديء والعاقبة السَّيِّئة.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٣٠- وانْظُرْ مَخازِيْ[2] المُسِيئِينَ الَّتي أُخِذُوا بِهـا وحَـاذِرْ ذُنوبًـا مِـن عِقـابِهِمِ**

أي ممَّا يعينُك على صدِّ النَّفس ومنعها عن الآثام والوقوع في الفواحش النَّظر في العواقب المخزية والنِّهايات المؤلمة الَّتي باء بها المسيئون؛ ففيها عبرةٌ وعظةٌ، والسَّعيد من اتَّعظ بغيره، والشَّقيُّ من اتَّعظ به غيرُه.

فانظر إلى مخازي العُصاة الَّتي حقَّت عليهم بسبب المعاصي والآثام الَّتي اقترفوها، وتجنَّب الذُّنوب الَّتي تُفضي بك إلى نظير العقوبة الَّتي عوقبوا بها.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٣١- والْزَمْ صِفاتِ أولِي التَّقوَى الَّذينَ بِها عَلَـيْهِمُ اللهُ أَثْنَـى واقْتَـدِهْ بِهِـمِ**

أي حافظ على صفات المتَّقين الَّذين يتَّقون الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الغيب والشَّهادة، والسِّر والعلانيَّة، وتقوى الله ـ جلَّ وعلا ـ هي: «العمل

---

(١) «لسان العرب» (١٢/ ٦٣١).

(٢) بإسكان الياء مراعاة للوزن العروضي.

بطاعة الله على نورٍ من الله، رجاءَ ثوابِ الله، وتركُ معصية الله على نورٍ من الله خيفةَ عذابِ الله»، وقد جاء في القرآن الكريم في مواضع عديدة ثناءٌ على المتَّقين ومدحٌ لهم، وبيانٌ لثوابهم عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الَّذينَ بِها عَلَيْهم اللهُ أَثْنَى**»؛ أي الَّذين أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم في القُرآن العظيم بهذه الصِّفات.

وقوله: «**صِفاتِ أُولِي التَّقْوَى**»؛ هذا دليل على أنَّ التَّقوى ليست مجرَّد دعوى يدَّعيها الإنسان، بل هناك صفات من اتَّصف بها كان من أهل التَّقوى حقًّا وصدقًا، وقد جاء بيان هذه الصِّفات في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ.

وقوله: «**واقْتَدِه بِهِم**»؛ أي كن مقتديًا بهؤلاء، كما قال الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذا البيت ينبِّه فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على فائدة تربويَّة في ترويض النَّفس على أفعال الخير وأبواب التَّقوى، ألا وهي أنَّ هذا المقام يحتاج من العبد إلى النَّظر في سير الأخيار، وصفات المتَّقين الأبرار حتَّى يتأثَّر بهم، ويأتسي بسلوكهم.

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٣٢- واقْنُتْ وبينَ الرَّجَا والخَوْفِ قُمْ أَبَدًا تَخْشَى الذُّنُوبَ وتَرْجُو عَفْوَ ذِي الكَرَمِ**

قوله: «**واقْنُت**»؛ المراد بـ«القنوت»: مداومة الطَّاعة وملازمة العبادة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣]، قال جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقوله: «**بين الرَّجا والخَوْفِ**»؛ أي: كن بين الرَّجاء والخوف، تفعل الطَّاعة وأنت ترجو رحمة الله ـ سبحانه ـ وتخاف عذابه، كما قال جلَّ وعلا: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ**﴾ [الإسراء: ٥٧]، والرَّجاء والخوف ركنان لابدَّ منهما في كل عبادة يتقرَّبُ العبدُ بها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن يعبد الله راجيًا رحمته، خائفًا من عذابه ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: «**قُمْ أَبَدًا**»؛ هذا لبيان أنَّ الخوف والرَّجاء لابدَّ منهما في كلِّ عبادة يتقرَّب بها العبدُ إلى الله في كلِّ وقتٍ وحين.

قوله: «**تخشى الذُّنوبَ وترجُو عَفْوَ ذِي الكَرَمِ**»؛ هذا معنى قوله بين الخوف والرَّجاء؛ تخشى الذُّنوب وعواقبها وغوائلها، وفي الوقت نفسه ترجو غفران الله ـ سبحانه وتعالى ـ ورحمته وعفوه: كما قال تعالى: ﴿**وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ**﴾.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٣٣- فالخوفُ مَا أَوْرَثَ التَّقوَى وحَثَّ عَلى مَرْضـاةِ رَبِّي وهَجْـرِ الإِثْـمِ والأَثِـمِ**

«**ما**» هنا: اسم موصول بمعنى الَّذي، يبيِّن أنَّ الخوف الشَّرعي المطلوب من المسلم هو الَّذي يورِّث تقوى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وخشيته في الغيب والشَّهادة، ويحثُّ على نيل مرضاته سبحانه، ويحجز العبدَ عن المعاصي ويباعده عن الذُّنوب والآثام وعن مخالطة أهلها.

* **قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٢٣٤- كَذا الرَّجَا ما عَلى هَـذا يَحُـثُّ لِتَـصْـ ... دِيـقٍ بِمَوْعـودِ رَبِّي بـالجَزَا العَظِـمِ**

أي: وكذلك الرَّجاء المشروع المأمور به هو الَّذي يحثُّ على تقوى الله وعلى فعل ما يرضيه، والبعد عن المعاصي والذُّنوب، والإشارة بقوله «**هذا**» إلى ما تقدَّم في البيت الَّذي قبله؛ وهو تقوى الله والحثُّ على مرضاته وهجر الذُّنوب.

وقوله: «**لتَصْدِيقٍ بمَوْعُود ربِّي بِالجَزَا العَظِمِ**»؛ أي أنَّ ضابط الخوف والرَّجاء المطلوب من المسلم كونه مصدِّقًا بالجزاء العظيم والثَّواب الجزيل الَّذي أعدَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده المتَّقين، لكن إن خرج المسلمُ بالخوف عن حدِّه أو خرج بالرَّجاء عن حدِّه انعكس الأمر، ولهذا ينبِّه الشَّيخ ويحذِّر من ذلك في البيت الَّذي يليه، فيقول:

**٢٣٥- والخَوْفُ إنْ زادَ أفْضَى لِلْقُنُوطِ كَـمَا ... يُفْـضِي الرَّجـاءُ لأَمْـنِ المَكْـرِ والـنِّقَمِ**

أي إنَّ الخوف إنْ زاد على حدِّه أدَّى بالعبد إلى القنوط من رحمة الله سبحانه: ﴿**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**﴾ [الحجر: ٥٦]، وكذلك الشَّأن في الرَّجاء؛ إن زاد على حدِّه أفضى للأمن مِنْ مَكْرِ الله: ﴿**فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾**﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولهذا يقول أهل العلم: لابدَّ أن يأتي العبد بالرَّجاء والخوف معًا؛ حتَّى يمضي في عبادته باتِّزان؛ لأنَّه إن غلَّب الخوف قَنَطَ، وإن غلَّب الرَّجاءَ أَمِنَ، وكلٌّ من القنوط والأمن من كبائر

الذُّنوب، فوجب على العبد أن يجمع في طاعاته وعباداته بين الرَّجاء والخوف؛ يرجو رحمةَ الله ويخاف عذابَه ـ سبحانه وتعالى ـ.

ولذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٣٦- فَلا تُفَرِّطْ ولا تُفْرِطْ وكُنْ وَسَطًا     وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فاسْتَقِمِ**

قوله: «**فلا تُفَرِّط ولا تُفْرِطْ وكُنْ وسَطًا**» الأولى بتشديد الرَّاء من التَّفريط وهو التَّقصير، والثَّانية بكسرها من الإفراط وهو مجاوزة الحدِّ في الأمر(١)؛ أي عليك ـ أيُّها العبد ـ أن تكون بينهما بتوسُّط واعتدال، دون إفراط أو تفريط، أي: دون زيادة ودون نقصان.

وخيار الأمور أوساطها، لا تفريطها ولا إفراطها، كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وإذا سألت ما الوسطيَّة ـ سواء في هذا الباب أو في غيره من أبواب الشَّرع ـ؟ يأتيك الجواب المسدَّد على ذلك بقول النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فاسْتَقِمِ**»؛ هذه الوسطيَّة: أن تستقيم مثل ما أمرك الرَّحمن، قال تعالى: ﴿ **فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ** ﴾ [هود: ١١٢]، فإذا فعلت هذا؛ كنت متوسِّطًا، فإن زدتَ فهذا إفراطٌ، وإنْ قصَّرتَ فهذا تفريطٌ، وخيار الأمور أوساطها.

---

(١) راجع «مقاييس اللُّغة» (٤/ ٤٩٠).

* **ثمَّ قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٣٧- سَدِّدْ وقارِبْ وأَبْشِرْ واسْتَعِنْ بِغُدُوْ   وبــالرَّواحِ وأَدْلِــجْ قاصِــدًا ودُمِ**

جمع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا البيت جملةً من الوصايا العظيمة، وهي وصايا جمعها النَّبيُّ ﷺ في حديث واحد، وهو حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيءٌ مِنَ الدُّلجة، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا**»، متَّفق عليه[1]؛ واللَّفظ للبخاري، واختصره مسلم بلفظ: «**قَارِبُوا وسَدِّدُوا**» وزاد في رواية: «**وأَبْشِرُوا**».

فالشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا البيت جمع هذه الوصايا الثَّابتة في سنَّة النَّبيِّ ﷺ.

وقوله: «**سدِّد**»؛ المراد بـ«السَّداد»: الإتيان بالعمل موافقًا للسُّنَّة، مطابقًا لهدي النَّبيِّ ﷺ.

وقوله: «**وقارب**»؛ «المقاربة» أن يكون العملُ قريبًا من السُّنَّة، يعني إن لم تستطع أن يكون عملك مطابقًا؛ فاجتهد أن يكون عملك مقاربًا للسُّنَّة، وكلٌّ من المسَدِّد والمقارب له البشارة، كما قال ﷺ: «**وَأَبْشِرُوا**» ولم يذكر المتعلِّق؛ ليعمَّ ذلك كلَّ خير في الدُّنيا والآخرة، وحظُّ أهل السَّداد من هذه البشارة أعظم.

ويوضِّح معنى السَّداد والمقاربة الرَّميُ بالسَّهم لهدف معيَّن، فالَّذي يصيب سهمُه الهدفَ يكون قد سدَّد، والَّذي يقع سهمُه قريبًا منه يكون قد قارب، أمَّا الَّذي لا يرمي السَّهم أصلًا أو يذهب ويرميه إلى جهة أخرى، فهذا

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٦٣) واللَّفظ له، ومسلم برقم (٢٨١٦).

ليس من أهل السَّداد ولا المقاربة.

وقوله: «**استعِنْ بِغُدُو وبالرَّوَاح**»؛ كما في الحديث: «**وَاغْدُوا وَرُوحُوا**»، و«الغدوُّ» هو أوَّل النَّهار، و«الرَّواح»؛ هو آخر النَّهار، وهذا فيه فضل هذين الوقتين، وأهميَّة العناية فيهما بذكر الله ـ سبحانه و تعالى ـ، وفعل الطَّاعات.

وقوله: «**وأَدْلِج**»؛ «الدُّلجة»: السَّير في آخر اللَّيل، فهذه ثلاثة أوقات فاضلة نصَّ عليها في الحديث: «**وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلجةِ**».

وقوله: «**قاصدًا**»؛ هذا أخذه من الحديث نفسه: «**وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا**»، و«القصد» هو التَّوسُّط بين الغلوِّ والجفاء والإفراط والتَّفريط، كما في وصيَّة لقمان لابنه: ﴿**وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ**﴾ [لقمان: ١٩]؛ أي ليكن مشيك وسطًا بين السَّريع الطَّائش وبين البطيء المتماوت.

وقوله: «**ودُم**»؛ أي داومْ على هذه الوصايا العظيمة إلى الممات.

وللحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ مؤلَّف خاصٌّ، شَرَحَ فيه هذا الحديث سمَّاه: «المحجَّة في سير الدُّلجة» وهو مطبوع، وقد شرح ـ أيضًا ـ هذا الحديث شرحًا موجزًا في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري»[1]، فقال:

«وقوله ﷺ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا**»؛ «التَّسديد» هو إصابة الغرض المقصود، وأصله من تسديد السَّهم؛ إذا أصاب الغرض المرمى إليه ولم يخطئْه، و«المقاربة»: أن يقارب الغرض، وإن لم يصبْه؛ لكن يكون مجتهدًا على الإصابة،

---

(١) (١ / ١٣٧ ـ ١٣٩).

فيصيب تارةً ويقارب تارةً أخرى، أو تكون المقاربة لمن عجز عن الإصابة كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(١).

وفي «المسند»(٢) و«سنن أبي داود»(٣)، عن الحَكَم بن حَزْنٍ الكُلَفِي أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقول على المنبر يوم الجمعة: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا ـ أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا ـ كُلَّ مَا أَمَرْتُكُمْ؛ وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَأَبْشِرُوا**».

وقيل: أراد بالتَّسديد: العمل بالسَّداد ـ وهو القصد والتَّوسُّط في العبادة ـ، فلا يقصِّر فيما أُمر به، ولا يتحمَّل منها ما لا يطيقه، قال النَّضر ابن شميل: «السَّداد: القصد في الدِّين والسَّبيل، وكذلك المقاربة المراد بهما: التَّوسُّط بين التَّفريط والإفراط، فهما كلمتان بمعنى واحد».

وقيل: بل المراد بـ«التَّسديد»: التَّوسُّط في الطَّاعات بالنِّسبة إلى الواجبات والمندوبات، وبـ«المقاربة»: الاقتصار على الواجبات، وقيل فيهما غير ذلك.

وقوله: «**أبشروا**» يعني: أنَّ مَنْ قَصَدَ المراد فليبشرْ، وخرَّج البخاريُّ في موضع آخر من «صحيحه»(٤) من حديث عائشة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا**».

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٨٥٨)، ومسلم برقم (١٣٣٧).

(٢) برقم (١٧٨٥٦).

(٣) برقم (١٠٩٦).

(٤) برقم (٦١٠٢).

وقوله: «**وَاسْتَعِينُوا بِالغدْوَةِ وَالرَّوحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلجة**»؛ يعني أنَّ هذه الأوقات الثَّلاثة أوقات العمل والسَّير إلى الله، وهي أوَّل النَّهار وآخره، وآخر اللَّيل، فـ«الغدوة»: أوَّل النَّهار، و«الرَّوحة» آخره، و«الدُّلجة»: سير آخر الليل» اهـ.

* **قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٣٨- فمِثْلُ ما خَانَتِ الكسْلانَ هِمَّتُهُ    فَطَالَما حُرِمَ المُنْبَتُّ بالسَّأَمِ**

هذان شخصان يحذِّر الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من مسلكهما:

الشَّخص الأوَّل: الشَّخص المصاب بالكسل الَّذي ثبَّطه كسلُه عن النَّشاط والجدِّ والاجتهاد في الخيرات وفي الأمور الَّتي توصله إلى المعالي، فالكسلان همَّتُه فاترة تخُونُه عندما يرى الخيرات، ويشاهد أبواب المعالي فلا يفعل.

والشَّخص الآخر: الشَّخص الملول، الَّذي يُقبل على العمل ثمَّ سرعان ما يملُّ فينقطع ويترك العمل، وفي «الصَّحيحين» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى الله مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ**»[1]، وفي رواية لمسلم: «**فَوَالله لاَ يَسْأَمُ اللهُ حَتَّى تَسْأَمُوا**»[2].

وقوله: «**المُنْبَتُّ بالسَّأَمِ**»؛ «المنبتُّ»: المنقطع في وسط الطَّريق، قال ابن منظور في «اللِّسان»[3]: «بَتَّ الشَّيءَ يَبُتُّه ويَبِتُّه بَتًّا، وأَبَتَّه: قطَعه قَطْعًا مُسْتَأْصِلًا،

(١) «صحيح البخاري» (٥٨٦١)، و«صحيح مسلم» (٧٨٢).

(٢) رقم (٧٨٥).

(٣) «لسان العرب» (٢/ ٣١٠ ـ ٣١١).

والانْبِتاتُ: الانقِطاعُ، ويقال للرَّجل إِذا انْقَطع في سفره وعَطِبَتْ راحلَتُه: صار مُنْبَتًّا، ومنه قول مُطَرِّفٍ: «إِنَّ الْمُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَع، ولا ظَهْرًا أَبْقى»؛ يريد أَنَّه بقي في طريقه عاجزًا عن مَقْصِدِهِ، ولم يَقْضِ وَطَرَه، وقد أَعْطَب ظَهْرَه» اهـ.

أي الدَّابَّة الَّتي يركبها، فهذا شأن المنقطع المنبتِّ، لَّما انقطعت به دابَّته في الطَّريق ولم تعدْ تمشي؛ بدأ يضرب ظهرها يريد منها أن تسير وهي واقفة لا تتحرَّك، فلا أرضًا قطع بضربه لها، ولم يسلم ظهر دابَّته.

وقوله: «**بالسَّأَم**»؛ من السَّآمة، وهي الملل والضَّجر كما في «اللِّسان»[1].

* **قال النَّاظم** رَحِمَهُ اللهُ:

**٢٣٩- ودُمْ عَلى البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ وحَوْ قِلْ واسْأَلِ اللهَ رِزْقًا حُسْنَ مُخْتَتَمِ**

ثمَّ قال: «**ودُمْ عَلى البَاقيات الصَّالحات**»؛ أي داوم وحافظ عليها، قال الله تعالى: ﴿**وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾ [الكهف: ٤٦]، و«الباقيات»: المراد بها أنواع الطَّاعات وصنوف القربات، ويأتي في مقدِّمة ذلك الكلمات الأربع الَّتي هي أحبُّ الكلام إلى الله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر»؛ فهذه أعظم الباقيات شأنًا، وأرفعها مكانًا، وسُمِّيت بـ«الباقيات الصَّالحات»؛ لأنَّها يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها، ومعنى قوله سبحانه: ﴿**خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾؛ أي خير أمل يؤمِّله العبد، وأفضل ثواب يرجوه، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال:

---

(١) انظر (١٢/ ٢٨٠).

«**خُذُوا جُنَّتَكُمْ**»، قلنا: يا رسول الله! مِنْ عدوٍّ قد حضر؟ قال: «**لَا، جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ فإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ، وَهُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**»، رواه الحاكم وصحَّحه[1].

أي: خذوا ما دمتم في الحياة الدُّنيا واقيًا لكم، يقيكم من النَّار، وقوله: «**مُنْجِيَاتٍ**»؛ أي لصاحبهنَّ من النَّار، و«**مقدِّمات**» أي: له إلى الجنَّة.

وقول النَّاظم رَحِمَهُ اللهُ: «**وحَوْقِلْ**»؛ «الحوقَلَة»: قول «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»، وقد جاء في السُّنَّة الأمر بالإكثار من هذه الكلمة، وأنَّها من كنز تحت العرش[2]، و«الحوقلة» هي كلمة عظيمة، تتضمَّن طلب العون من الله؛ لأنَّ معناها: لا تحوُّل من حال إلى حال، ولا حصول قوَّة للعبد إلَّا بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، فهي كلمة استعانة.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وذلك أنَّ هذه الكلمة كلمةُ استعانةٍ، لا كلمة استرجاع، وكثيرٌ من النَّاس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع ويقولها جزعًا لا صبرًا»[3].

فـ«لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»؛ كلمةُ استعانة، يُؤتى بها بين يدي الطَّاعات والعبادات، ويشهد لذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، قال: يُقَالُ حِينَئِذٍ هُدِيتَ وَكُفِيتَ**

(١) «المستدرك» (١/ ٧٢٥).

(٢) رواه أحمد من حديث أبي ذر رضي الله عنه (٥/ ١٥٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٨٦).

**وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟!»**[1].

وكذلك حديث عمر بن الخطَّاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مَنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الجَنَّةَ**»[2].

فالعبد يحتاج إلى الإكثار من: «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»؛ ليُعان على العلم، وعلى العبادة، وعلى كلِّ عمل صالح يقرِّبه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وعلى عموم أعماله ومصالحه، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الكلمة لها تأثيرٌ عجيبٌ في معاناة الأشغال الصَّعبة، وتحمُّل المشاقِّ، والدُّخول على الملوك ومَن يُخاف، وركوب الأهوال»[3].

وقوله: «**واسْأَلِ اللهَ رِزْقًا حُسْنَ مُخْتَتَمِ**»؛ أي اسأل الله ـ سبحانه ـ أن يرزقك حسن الخاتمة، وأن يثبِّتك على الدِّين، وكان من أكثر دعاء نبيِّنا ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ**

---

(١) رواه أبو داود برقم (٥٠٩٧)، والتِّرمذي برقم (٣٤٢٦) من حديث أنس ﷺ.

(٢) رواه مسلم برقم (٣٨٥).

(٣) «الوابل الصَّيِّب» (ص١٥٧).

**القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[1].**

*** قال** رَحِمَهُ اللهُ:

**٢٤٠- واضْرَعْ إلى اللهِ في التَّوْفِيقِ مُبْتَهِلا فَهْوَ المُجِيبُ وأهْلُ المَنِّ والْكَرَمِ**

قوله: «**واضْرَعْ إلى اللهِ في التَّوْفِيقِ مُبْتَهِلا**»؛ أي ادعُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ متضرِّعًا إليه، كما قال ـ جلَّ و علا ـ: ﴿**ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾**﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وملحًّا عليه؛ طمعًا في نواله أن يوفِّقَك وأن يسدِّدك.

وقوله: «**فَهو المُجِيبُ وأهْلُ المَنِّ والْكَرَمِ**»؛ أي أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المجيب، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠]، وهو ـ سبحانه ـ أهل المنِّ والكرم، ومن أسمائه ـ جلَّ وعلا ـ: «المنَّان» و«الكريم»؛ فألحَّ عليه بالسُّؤال.

*** ثمَّ إنَّ النَّاظم** رَحِمَهُ اللهُ **بعد أن حثَّ على الدُّعاء ختم منظومته ببعض الأدعية العظيمة في هذا الباب فقال:**

**٢٤١- يا رَبِّ يا حيُّ يا قيومُ مَغْفِرَةً لِمَا جَنَيْتُ مِنَ العِصْيانِ واللَّمَمِ**

(١) رواه أحمد (٣/ ١١٢)، والتِّرمذي برقم (٢١٤٠) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

«**يا ربِّ يا حَيُّ يا قيومُ مَغْفِرَة**»؛ أي اسأله المغفرة، وناده ـ سبحانه وتعالى ـ بأسمائه الحسنى؛ عملًا بقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠] فناده بأسمائه: يا ربِّ، يا حيّ، يا قيُّوم مغفرةً أي أرجو منك مغفرةً للذُّنوب بسترها والعفو عنها، والصَّفح والتَّجاوز.

وقوله: «**لما جنيتُ من العِصْيان واللَّمم**»؛ أي تجاوز عنِّي فيما وقعتُ فيه من المعاصي، ـ وأيضًا ـ فيما وقعتُ فيه من اللَّمم، و«اللَّمم»؛ جاء ذكره في قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ**﴾ [النَّجم: ٣٢]، قال ابن كثير في قوله: ﴿**إِلَّا ٱللَّمَمَ**﴾: «وهذا استثناء منقطع؛ لأنَّ اللَّمم من صغائر الذُّنوب، ومحقِّرات الأعمال»؛ ثمَّ أورد قول ابن عبَّاس رضي الله عنهما في «الصَّحيحين»[(١)] أنَّه قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللَّمَم ممَّا قال أبو هريرة عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لا مَحَالَة، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ**»[(٢)].

❊ **قال النَّاظم** رحمه الله:

**٢٤٢- وامْنُنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضيكَ واقْضِهِ لِي   مِنِ اعْتِقادٍ ومِنْ فِعْلٍ ومِنْ كَلِمِ**

قوله: «**وامْنُنْ عَلَيَّ بما يُرضِيكَ واقضِه لي**»؛ أي: يا ربِّ يا حيُّ يا قيُّوم وفِّقني لفعل الطَّاعات والعبادات الَّتي ترضى بها عنِّي، واقضها لي كونًا وقدرًا،

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٨٨٩)، ومسلم برقم (٢٦٥٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠).

واكتبني في عداد عبادك المطيعين المنيبين المُخْبِتِين.

وقوله: «**مِنِ اعْتِقادٍ ومِنْ فِعْلٍ ومِنْ كَلِمِ**»؛ هذا توضيح لقوله: «**وامنُنْ عليَّ بما يُرْضِيك**»؛ أي وفِّقني لما يرضيك من العقائد الصَّحيحة، وما يرضيك من الأفعال الزَّاكية والطَّاعات المقرِّبة، وما يرضيك من الكَلم الطيِّب.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٤٣- وأَعْلِ دينَكَ وانْصُرْ ناصِريهِ كَمَا وَعَـدْتَهُمْ ربَّنـا فِي أصْـدَقِ الكَلِـمِ**

يسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعلي دينه، وأن ينصر ناصري دينه، كما وعدهم ـ سبحانه ـ في كتابه.

وقد وعد الله تعالى بنصر من ينصرُ دينه، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ**﴾ [غافر: ٥١] ، وقال: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ**﴾ [الرُّوم: ٤٧]، والله لا يخلف الميعاد.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٤٤- واقـصِمْ بِبَأْسِـكَ رَبِّي حِـزْبَ خاذِلِـهِ ورُدَّ كَيْـدَ الأعـادِي فِي نُحُـورِهِمِ**

قوله: «**واقصِمْ بِبَأْسِكَ رَبِّي حِزْبَ خاذِلِهِ**»؛ هنا يدعو على أعداء دين الله، فيقول: يا ربِّ أنزل بَأْسَك عليهم، واقْصِم ظهورَهم حتَّى لا ترتفع لهم راية ويكونوا عبرة لمن خلفَهم وآية.

وقوله: «**ورُدَّ كَيْدَ الأعادِي فِي نُحُورِهِمِ**»؛ أي من أراد بالإسلام والمسلمين

كيدًا؛ فَرُدَّ كيده في نحره، وكان من دعاء نبيِّنا ﷺ إذا خاف قومًا قال: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ**»[1].

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٤٥- واشْدُدْ عَلَيْهِمْ بِزِلْزَالٍ ودَمْدَمَةٍ كـمَا فَعَلْـتَ بأَهْـلِ الْحِجْـرِ فِي القِـدَمِ**

أي اشددْ وطْأَتَك وعقوبتك على أعداء دينك وخاذليه، كما فعلتَ بأهل الحِجر سابقًا، وهم قوم صالح الَّذين عقروا النَّاقة، والنَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ يشير إلى ما جاء في سورة الشَّمس: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا**﴾ [الشَّمس: ١٤].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: دمَّر عليهم وعمَّهم بعقابه، وأرسل عليهم الصَّيْحة من فوقهم، والرَّجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعيًا ولا مجيبًا»[2]، ومعنى «دَمْدَم» أي أطبق عليهم العذاب.

* **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

**٢٤٦- واجْعَلْهُمُو رَبَّنا لِلْخَلْقِ مَوْعِظَـةً وعِـبْرَةً يـا شَـديدَ الـبَطْشِ والـنِّقَمِ**

أي اجعل أعداء دينك وخاذليه، موعظةً وعبرةً لمن يأتي بعدهم، يا الله، يا شديد النَّكال والبطش والعقوبة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**﴾ [البروج: ١٢].

---

(١) رواه أبو داود برقم (١٥٣٧)، وأحمد (٤/ ٤١٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «تفسير السَّعدي» (٩٢٦).

ثمَّ ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا النَّظم المبارك الطَّيِّب النَّافع بالصَّلاة على رسول الله ﷺ وآله وصحبه.

* **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

**٢٤٧- ثمَّ الصَّلاةُ عَلى المَعْصومِ مِنْ خَطَأٍ    مُحَمَّـدٍ خَـيْرِ رُسْـلِ اللهِ كُلِّهِـمِ**

**٢٤٨- والآلِ والصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ لَـهُمْ    وتَـمَّ نَظْمِـي بِحَمْـدِ اللهِ ذِي الـنِّعَمِ**

بهذين البيتين ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا النَّظم كما بدأه بحمد الله والصَّلاة على رسوله ﷺ وآله وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسان.

وبهذا ينتهي التَّعليق على هذا النَّظم المبارك النَّافع الماتع، والحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصالحات.

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وبأنَّه الله الَّذي لا إله إلَّا هو أن ينفعنا جميعًا بما علَّمنا وأن يجعل ما تعلَّمناه حجَّة لنا لا علينا، وأن يهدينا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنِها إلَّا هو، وأن يصرف عنَّا سيِّئها لا يصرف عنَّا سيِّئها إلَّا هو، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يصلح لنا شأننا كلَّه، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا، وللمسلين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، إنه غفور رحيم، والله تعالى أعلم.

وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

# الفهرس

# الفهرس


ـ تقريظ فضيلة الشَّيخ زيد بن محمَّد بن هادي المدخلي.......... ٥
ـ المقدِّمة .......... ٧
ـ نصُّ المنظومة .......... ١٠
ـ شرح المنظومة .......... ٢٣
ـ معنى الحمد .......... ٢٣
ـ معنى ذي الملك والملكوت .......... ٢٤
ـ معنى «الواحد» و«الصَّمد» .......... ٢٦
ـ معنى «البَرِّ» و«المهيمن» .......... ٢٦
ـ العلم والبيان فضلٌ من الله على النَّاس .......... ٢٧
ـ معنى الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ .......... ٢٩
ـ منزلة النَّبيِّ ﷺ وفضل أمَّته ووجوه خيريَّتها .......... ٢٩
ـ المراد بآل النَّبيِّ ﷺ .......... ٣٢
ـ فضل العلم والفقه في الدِّين .......... ٣٤
ـ المراد بالفقه في الدِّين .......... ٣٤
ـ حثُّ القرآن على التَّفقُّه في الدِّين .......... ٣٥
ـ امتنان الله على النَّاس بالعلم .......... ٣٦
ـ التَّميُّز بالعلم حتَّى بين الحيوانات .......... ٣٨

ـ ذمُّ الجهل بالدِّين ........................................ ٣٩
ـ معنى الغِبطة ومن يُغبط ........................................ ٣٩
ـ من صفات أهل الإيمان الحرص على العلم والنَّهمة في طلبه ........................ ٤٠
ـ العلم أعلى وأحلى في السَّمع والنُّطق ........................................ ٤١
ـ العلم أشرف مطلوب وطالبه أكرم مخلوق ........................................ ٤٢
ـ طلب العلم عبادة يشترط فيها الإخلاص........................................ ٤٢
ـ العلم نور وحياة للقلوب، ومكانة العلماء........................................ ٤٣
ـ ظلمة الجهل ........................................ ٤٥
ـ الحياة الحقيقيَّة بالعلم ........................................ ٤٦
ـ الجهل أصل الضَّلال والشَّقاء، والعلم أصل الهدى والسَّعادة........................ ٤٧
ـ من ثمار الجهل الخوف والحزن........................................ ٤٩
ـ العلم ميراث النُّبوَّة ........................................ ٥٠
ـ العلم ميزان الشَّرع........................................ ٥٤
ـ السُّلطان في القرآن هو العلم والحجَّة ........................................ ٥٥
ـ سلطة العلم أعظم من سلطة اليد........................................ ٥٧
ـ ذهاب الدُّنيا والدِّين بذهاب العلم ........................................ ٥٨
ـ استغفار أهل السَّموات والأرض والحيتان للعالم ........................................ ٥٩
ـ الخارج في طلب العلم بمنزلة المجاهد في سبيل الله ........................................ ٦٢
ـ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم ........................................ ٦٣
ـ السَّالك لطريق العلم سائر في طريق الجنَّة........................................ ٦٤
ـ دعاء النَّبيِّ ﷺ بالنَّضارة لسامع الحديث ومبلِّغه ........................................ ٦٦
ـ رفعة درجات الذين أوتوا العلم........................................ ٦٧

ـ تفضيل آدم عليه السَّلام على الملائكة بالعلم .......................... ٦٨
ـ تفضيل يوسف عليه السَّلام على غيره بالعلم والحِكم .......................... ٦٨
ـ رحلة موسى الكليم عليه السلام إلى الخَضر لأجل العلم .......................... ٦٩
ـ تقديم النَّبيِّ ﷺ لحامل العلم والقرآن على غيره .......................... ٧١
ـ أهل العلم قلوبهم أوعية للوحي .......................... ٧٢
ـ أهل العلم هم أهل الخشية والعقل عن الله .......................... ٧٣
ـ قرن الله تعالى شهادة أهل العلم بشهادته .......................... ٧٤
ـ شهادة أهل العلم على غيرهم يوم الحشر .......................... ٧٥
ـ فضل العالم على العابد .......................... ٧٥
ـ موت العالم ليس كموت غيره .......................... ٧٧
ـ العلماء مثل النُّجوم والشُّهب .......................... ٧٨
ـ كثرة فضائل أهل العلم .......................... ٨٠

## نبذة في وصيَّة طالب العلم

ـ تجنُّب الصَّوارف .......................... ٨١
ـ تقديس العلم ومعرفة حُرمته .......................... ٨٢
ـ بذل الجهد في طلب العلم بعزم قوي .......................... ٨٣
ـ بذل العلم وتقديم النَّصيحة .......................... ٨٤
ـ احترام المعلِّم والشَّيخ .......................... ٨٦
ـ الحفاوة والتَّرحيب بطالب العلم .......................... ٨٧
ـ وصيَّة رسول الله ﷺ بطالب العلم .......................... ٨٨
ـ إخلاص النِّية في طلب العلم .......................... ٨٩
ـ خسران صفقة من طلب العلم لغير الله .......................... ٩٠

ـ سوء عاقبة من طلب العلم للدُّنيا ........................................ ٩٢
ـ الآيات الواردة في ذلك ........................................ ٩٣
ـ ترك مماراة السُّفهاء ومباهاة أهل العلم ........................................ ٩٤
ـ التَّحذير من داء العُجب ........................................ ٩٥
ـ التَّدرج في طلب العلم ........................................ ٩٧
ـ تقديم النَّص على الرَّأي في الدِّين ........................................ ١٠٠
ـ تقديم علوم الدِّين على غيرها ........................................ ١٠١
ـ أعظم المصائب المصيبة في الدِّين ........................................ ١٠٢
ـ التَّمسُّك بالعتيق ........................................ ١٠٣
ـ العلم هو الكتاب والسُّنَّة ........................................ ١٠٤
ـ عقوبة من كتم العلم ........................................ ١٠٥
ـ صون العلم ليس كتمًا له ........................................ ١٠٦
ـ ثمرة العلم العمل ........................................ ١٠٧
ـ التَّحذير من عدم العمل بالعلم ........................................ ١٠٨
ـ أقوال بعض السَّلف في العمل بالعلم ........................................ ١١٠
ـ الدَّعوة إلى الله تكون بالتِّبيان والحِكم ........................................ ١١١
ـ الصَّبر على الأذى في سبيل الدَّعوة إلى الله ........................................ ١١١
ـ فضل من كان سببًا في هداية النَّاس ........................................ ١١٣
ـ سلوك الصِّراط المستقيم ولزوم الاستقامة ........................................ ١١٣

**الوصيَّة بكتاب الله عزَّ وجلَّ**

ـ تلاوة القرآن بالتَّدبُّر والتَّرتيل ........................................ ١١٥
ـ أفضل الأوقات لقراءة القرآن ........................................ ١١٨

ـ العمل بالقرآن وتحكيمه ........................................ ١١٨
ـ التَّحذير من الخوض في القرآن بالرَّأي المجرَّد ........................ ١١٩
ـ ردُّ المتشابه إلى المحكم ........................................ ١٢٠
ـ التَّحذير من المراء في القرآن ........................................ ١٢٢
ـ امتثال أوامر القرآن واجتناب نواهيه........................................ ١٢٣
ـ المتشابه في القرآن ........................................ ١٢٤
ـ التَّحذير من أهل الزَّيغ والبدع والضَّلال........................................ ١٢٥
ـ قارئ القرآن كأنَّما خاطب الرَّحمن........................................ ١٢٧
ـ من أوصاف القرآن الكريم........................................ ١٢٧
ـ القرآن شفاء لأهل الإيمان العاملين به ........................................ ١٣٠
ـ وعد من أقام القرآن ووعيد من أعرض عنه ........................................ ١٣٢
ـ فضل سورتي البقرة وآل عمران ........................................ ١٣٣
ـ القرآن معجزة دائمة مستمرَّة........................................ ١٣٥
ـ قارئ القرآن لا يسأم من كثرة ترداده ........................................ ١٣٦
ـ القرآن مهيمن ........................................ ١٣٨
ـ القرآن فيه بيان الأحكام والشَّرائع وأخبار الماضين ........................................ ١٤٠
ـ القرآن فيه شرح لأحكام الشَّريعة الواضحة الميسَّرة ........................................ ١٤١
ـ القرآن يهدي إلى كلِّ صلاح ويزجر عن كلِّ فساد ........................................ ١٤٢
ـ لا يغني عن هداية القرآن النُّظُم الأرضيَّة ........................................ ١٤٤
ـ كلام عظيم الفائدة لابن القيِّم في الاستغناء بالشَّريعة عن غيرها ........................ ١٤٥
ـ أخبار القرآن وأمثاله فيها العظة والاعتبار ........................................ ١٤٧
ـ الجنُّ الذين سمعوا القرآن من النَّبيِّ ﷺ ........................................ ١٤٨

ـ إعجاز بلاغة القرآن الكريم ........................................ ١٤٩
ـ خيبة وعجز من أراد معارضة القرآن ........................................ ١٥٠
ـ تحدِّي القرآن لأهل البلاغة والفصاحة من العرب ........................................ ١٥٢
ـ عجز الجنِّ والإنس على أن يأتوا بمثل القرآن ........................................ ١٥٤
ـ القرآن كلام الله المنزَّل على قلب محمَّد ﷺ........................................ ١٥٥

الوصيَّة بالسُّنَّة

ـ تحقق النجاة لمن تمسك بالسُّنة........................................ ١٥٧
ـ لزوم أهل العلم والأخذ عن والأكابر ........................................ ١٥٩
ـ السير على منهاجهم وترسم خطاهم ........................................ ١٦٠
ـ الأصل في حملة العلم العدالة........................................ ١٦٠
ـ سمات أهل العلم وعلاماتهم........................................ ١٦٣
ـ أهل العلم هم حماة الدِّين ........................................ ١٦٤
ـ أهل العلم لا يغيب نورهم ويبقى ذكرهم ........................................ ١٦٥
ـ رفعة مقام أهل العلم ........................................ ١٦٧
ـ أهل العلم يحيون السُّنَّة........................................ ١٦٨
ـ أهل العلم يروون السُّنَّة ويذبُّون عن الشَّريعة ........................................ ١٦٩
ـ صيانة أهل العلم للرِّواية........................................ ١٧٠
ـ أهل العلم لم يشغلهم عنه شاغل ........................................ ١٧٢
ـ نيل المجد بالعلم والعمل........................................ ١٧٣
ـ الأمن والنُّور والفوز والبشرى لأهل العلم والعمل........................................ ١٧٤
ـ لزوم التَّقوى لنيل المجد والرفعة........................................ ١٧٥
ـ العكوف على السُّنَّة والمداومة على حفظها وفهمها........................................ ١٧٦

ـ الحثُّ على قراءة كتاب في علم مصطلح الحديث ........................ ١٧٦
ـ السُّنَّة هي المحجَّة والحنيفيَّة السَّمحة ........................................ ١٧٨
ـ السُّنَّة وحي كالقرآن ................................................................ ١٧٨
ـ السُّنَّة خير الكلام ................................................................... ١٧٩
ـ السُّنَّة بيانٌ للقرآن ................................................................... ١٧٩
ـ تحكيم السُّنَّة مع الرِّضا والانقياد ................................................... ١٨٠
ـ العضُّ على السُّنَّة واجتناب كلِّ بدعة ............................................. ١٨٠

## فصل في الفرائض والآلة والتَّحذير من العلوم المبتدعة

ـ تعريف علم الفرائض ................................................................. ١٨٢
ـ ضرورة الاعتناء بعلم الفرائض ....................................................... ١٨٢
ـ من فضل الفرائض تولي الله قسمتها ................................................ ١٨٣
ـ من أصول علم الفرائض .............................................................. ١٨٣
ـ المراد بالكلالة ........................................................................ ١٨٥
ـ الحثُّ على تعلُّم علوم الآلة ........................................................... ١٨٥
ـ التَّحذير من علم الكلام ............................................................... ١٨٦
ـ علم الكلام قاموس فلسفة ومفتاح زندقة ........................................... ١٨٧
ـ أهل الكلام يقصدون تعطيل أحكام الله بقوانينهم .................................. ١٨٨
ـ أهل الكلام يقدِّمون العقل على الوحي ............................................. ١٨٨
ـ أهل الكلام يحرِّفون القرآن عن مواضعه ............................................ ١٩٠
ـ أهل الكلام يردُّون أخبار الآحاد ..................................................... ١٩٠
ـ تحذير السَّلف من علم الكلام ....................................................... ١٩٢
ـ تحديد معنى علم الكلام الَّذي ذمَّه السَّلف ........................................ ١٩٢

ـ من الوجوه الدَّالة على بطلان علم الكلام.................................. ١٩٣
ـ نقول عن علماء السَّلف في ذمِّ علم الكلام.................................. ١٩٣
ـ شهادة أئمَّة المتكلِّمين على أنفسهم بالحيرة والشَّكِّ .............................. ١٩٥
ـ التَّحذير من الكهانة والتَّنجيم ............................................... ١٩٦
ـ الجنُّ لا تعلم الغيب ...................................................... ١٩٩
ـ فوائد النُّجوم ............................................................ ٢٠٠
ـ من تأوَّل في النُّجوم غير ما خُلقت له فهو الكذوب .............................. ٢٠٢
ـ المنجِّمون مثلهم مثل عبَّاد الهياكل ........................................... ٢٠٣
ـ من تخرُّصات المنجِّمين ..................................................... ٢٠٥
ـ التَّحذير من المجلَّات الفاسدة............................................... ١٩٤
ـ التَّحذير من وسائل الفتن المعاصرة.......................................... ٢٠٦
ـ المفاسد الَّتي تدعو إليها هذه المجلاَّت ......................................... ٢٠٧
. الدَّعوة إلى نبذ الهدى والدِّين والعلم والعقل.................................. ٢٠٩
. الدَّعوة إلى الرُّكون إلى الدُّنيا وزخارفها ...................................... ٢١٠
. الدعوة إلى التَّهتُّك والخلاعة ............................................... ٢١٠
. الدَّعوة إلى الاعتماد على الأسباب دون المسبِّب ............................... ٢١٢
. الدَّعوة إلى الكفر بأصول الإيمان السِّتَّة........................................ ٢١٣
. الدَّعوة إلى اعتقاد أنَّ الطَّبيعة ليس لها خالق مدبِّر.............................. ٢١٤
ـ تسمية هذا الكفر والباطل بالعلم الجديد ...................................... ٢١٦
ـ الكفر الجديد هو كفر قديم في صور جديدة...................................... ٢١٦
ـ محاولة بعضهم جمع الباطل مع الإسلام......................................... ٢١٨
ـ خلاصة ما تروِّج له هذه المجلَّات ............................................ ٢١٩

خاتمة في تحصيل ثمرات العلم النَّافعة واجتناء قطوفه الدَّانية


ـ ليس العلم مجرَّد مظاهر وشهادات مزخرفة ........................ ٢٢٠
ـ العلم النَّافع الحقيقي هو خشية الله في السرِّ والعلن ........................ ٢٢٣
ـ الدَّعوة إلى العلم بالله ومعرفته ........................ ٢٢٤
ـ معرفة حقِّ الله عليك والقيام بموجبه ولزوم منهج الحقِّ ........................ ٢٢٧
ـ الشَّقاء والسَّعادة والإضلال والهداية كلُّها بيد الله ........................ ٢٢٨
ـ الوحي والتَّشريع بيد الله ........................ ٢٢٩
ـ الله يحب البر والإحسان ويكره العصيان وفعل المحرَّمات ........................ ٢٣١
ـ العمل مع الوجل ........................ ٢٣٢
ـ الاستمرار في العمل ........................ ٢٣٢
ـ لا يُظنُّ بالله إلَّا خيرًا ........................ ٢٣٣
ـ الانقياد للشَّرع والتَّسليم للقضاء ........................ ٢٣٣
ـ ذمُّ الخصومة في الدِّين ........................ ٢٣٤
ـ الإيمان بالقدَر ........................ ٢٣٥
ـ الجمع بين العبادة والاستعانة ........................ ٢٣٦
ـ الأخذ بالأسباب، وأقسام النَّاس في هذا الباب ........................ ٢٣٦
ـ من الأخطاء الشَّائعة الدَّعوة إلى الثِّقة بالنَّفس ........................ ٢٣٨
ـ وزن جميع الأعمال بالشَّرع ........................ ٢٣٩
ـ الحثُّ على الإخلاص والصِّدق وإصابة السُّنَّة وهضم النَّفس ........................ ٢٣٩
ـ التَّحذير من العُجب ........................ ٢٤١
ـ اجتناب النَّواهي والمبادرة إلى التَّوبة عند الزَّلل مع النَّدم ........................ ٢٤٤

ـ محاسبة النَّفس في باب الأوامر والنَّواهي ........................ ٢٤٥
ـ من زكت نفسه فليحمد الله ........................ ٢٤٧
ـ من عصت نفسه فليعصها ........................ ٢٤٨
ـ الاعتبار بالعواقب المخزية للمسيئين ........................ ٢٤٩
ـ الحثُّ على لزوم صفات المتَّقين ........................ ٢٤٩
ـ لزوم الطَّاعة مع الخوف والرَّجاء ........................ ٢٥٠
ـ الرَّجاء المشروع ........................ ٢٥٢
ـ الخوف المشروع ........................ ٢٥٢
ـ الوسطيَّة دون إفراط أو تفريط ........................ ٢٥٣
ـ الوصيَّة بالسَّداد والمقاربة والقصد ........................ ٢٥٤
ـ كلام ابن رجب في معنى قوله ﷺ: «سدِّدوا وقاربوا وأبشروا» ........................ ٢٥٥
ـ التَّحذير من مسلكي: الكسول والملول ........................ ٢٥٧
ـ المداومة على الباقيات الصَّالحات والحوقلة ........................ ٢٥٨
ـ التَّضرُّع إلى الله بالدُّعاء وسؤال التَّوفيق ........................ ٢٦١
ـ بعض الأدعية العظيمة في ختام المنظومة ........................ ٢٦١